حِلْيَةُ الجَنَّةِ

إِلَى أَيَّامِ الأُمَّةِ

إعداد

أبو عبد الله

زكريا بن طه أسحاقة

غزة - فلسطين

هَذِهِ المَادَّةُ الإِلِكْتُرونِيَّةُ PDF مِنْ إِعْدَادِ **شَبَكَةِ (بَـلِّغُوا عَنِّي العَالَمِيَّةُ)**، وَإِصْدَارَاتِـهَـا الحَدِيثَـةِ الخَاصَّـةِ؛ لِلمُـطَـالَـعَـةِ الهَـاتِفِيَّـةِ وَاللَّـوْحِيَّـةِ وَالحَاسُوبِيَّـةِ.

(سَاهِمْ بِالنَّشْرِ أَخِي الكَرِيمَ، وَأَهْدِهَا لِمَنْ تُحِبُّ؛ جَزَاكَ اللهُ تَعَالَى خَيرًا، فَالدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ ☺)

لتحميل كافة
كتب الشيخ؛
اضغط الأيقونة

إِشْرَافُ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ

أَبُو عَبْدِ اللهِ زَكَرِيَّا بْنُ طَاهِرٍ شِحَادَة

:: لِزيارَةِ المَنَصَّاتِ الإِلكترونِيَّةِ؛ اضغَطْ على الأَيْقُونَةِ المُقَابِلَةِ لِكُلِّ مَنَصَّةٍ ::

الموقعُ الرَّسْميُّ		قناةُ اليوتيوب	
صفحةُ الفيسبوك		مجموعةُ الفيسبوك	
قناةُ التليغرام		مجموعةُ التليغرام	
مجموعاتُ الواتساب			
حسابُ تويتر		حسابُ إنستغرام	
مجموعةُ سنقال - Signal		قناةُ Bip	مجموعةُ Bip

لِلتَّبْلِيغِ عَنْ خَطَأ؛ تَوَاصَلْ مَعَ إِدَارَةِ بَلِّغُوا عَنِّي وَمُنَسِّقِ الكُتُبِ:

:: وَجِّهْ كاميرا الجَوَّالِ عَلَى الأَشْكَالِ المُرَبَّعَةِ؛ للانتقالِ إلى المَنَصَّاتِ ::

SCAN ME SCAN ME SCAN ME SCAN ME SCAN ME SCAN ME SCAN ME

حِلْيَةُ الجَنَّـةِ
إِلَى أَيَامَى الأُمَّةِ

إلى كُلِّ مُسْلِمَةٍ لم تُرْزَقْ بزوجٍ...

إلى كُلِّ أَرْمَلَةٍ...

إلى كُلِّ مُطَلَّقَةٍ...

إلى كُلِّ امرأةٍ...

إعـداد

زكـريا بـن طـه شحـادة

1436هـ - 2015م

وِقْفَةٌ أُوْلَى

القَارِئَةُ الكَرِيمَةُ

- اقْرَئِي هذهِ الرسالةَ بِنِيَّةِ العملِ بما فيها؛ فإِنَّهُ لا خيرَ في عِلْمٍ بِلا عَمَلٍ، ولا خيرَ في عَمَلٍ بِلَا نِيَّةٍ خالصةٍ.
- قِفِي عند كُلِّ عنوان، وأَحْضِري له نِيَّةً خالصةً؛ فإِنَّ أَجْرَ العبدِ إِنَّما يَقَعُ علىٰ قَدْرِ نِيَّتِه.
- كَتَبَ سالم بن عبد الله بن عُمَر إِلىٰ عمر بن عبد العزيز: «اعلم يا عمرُ أَنَّ عَوْنَ اللهِ للعبدِ بِقَدْرِ نِيَّتِه، فمَنْ خَلُصَتْ نِيَّتُه؛ تَمَّ عَوْنُ اللهِ لَه، ومَنْ نَقَصَتْ نِيَّتُه؛ نَقَصَ عَنْه مِنْ عَوْنِ اللهِ بِقَدْرِ ذلك»[1].

(1) انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، لمحمد بن محمد بن الحسيني الزبيدي: 2/ 312.

مُقَدِّمَة

كثيرٌ هو عددُ بناتِ المسلمين اللاتي ابتُلِين بالتَّأيُّم[1]، فيما يَرَيْنَ أخواتهن وصُوَيْحِبَاتِهن وجاراتهن، وأترابهن ومن يَصْغُرْنَهُنَّ يتقدم لهن الخُطَّاب، وتتزوج إحداهن بعد الأخرىٰ، وهن يَتَرَقَّبْن بألم وحزن واحتراق، أن لم يكن لهنَّ من الأزواج مثل ما لأخواتهن وصُوَيْحِبَاتِهن وجاراتهن، ولربما استحال الألمُ والحزن إلىٰ حسرةٍ دائمة ونارٍ مُتَّقِدَة في نفس من فاتها الزواج، أو مات عنها زوجها، أو ابتليت بالطلاق، فتسلُك ما لا يُرْضِي ربَّها من عَتَبٍ وتَسَخُّطٍ علىٰ القَدَرِ، أو حسد لمن رزقها الله الزوج والذُّرِّية، أو سلوك غير سبيل المؤمنين من ذهاب للسحرة والدجالين، أو تَبَرُّجٍ، ولو أدركت هؤلاء المسلماتُ حِكْمةَ الله البالغة في تَأَيُّمها، لاطمأنَّت وسَكَنَتْ ورَضِيَتْ بِمَقْدُور الله، وَوَجَدَتْ فيما قضاه اللهُ الخيرَ والبَرَكَةَ والغَنَاءَ، والعجيبُ أن كثير من هذه الفئة من النساء -والتي تُعَدُّ بالملايين في ديار الإسلام المختلفة- مُهْمَلَةٌ مَنْسِيَّةٌ في مجتمع المسلمين، متروكةٌ وحدَها دونما رِعاية أو توجيه؛ فهي تقضي ساعاتها وأيامها وسنوات عمرها بلا

---

(1) الأيامىٰ: الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، قال ابن سيده: الأيم من النساء التي لا زوج لها، بكرًا كانت أو ثيبًا، ومن الرجال الذي لا امرأة له، وجمع الأيم من النساء: أيايم وأيامىٰ، وتأيم الرجل زمانًا وتأيمت المرأة: إذا مكثا أيامًا وزمانًا لا يتزوجان، وآمت المرأة: إذا مات عنها زوجها أو قتل وأقامت لا تتزوج، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 12/ 39.

هدف، لا تدري أين تَتَّجِهُ، ولا تعلم لحياتها غاية، تستحيي من نفسها، ويستحيي منها أهلها؛ أَدَّي ذلك إلىٰ استغلالهن في بعض المجتمعات أَخَسَّ استغلال؛ وإنْ كانَ لكثيرٍ مِنْ أيامَىٰ المسلمين دورٌ كبير في نَشْرِ الدعوة الإسلامية، وتربية أجيال المسلمات، وكثير منهم مَنْ تعيُش مُكَرَّمةً، سَيِّدَةً في بيتِها وخارجِ بيتِها، فرأينا أن نخصَّ هذه الفِئَةَ برسالةٍ نافعةٍ، تَتَبَيَّنُ من خلالها طريقها، وترسم غايتها، لتحيا عزيزةً كريمةً؛ راضيةً سعيدةً بما عَوَّضها الله -تعالىٰ- به عن الأزواج وربما الأولاد. وأسميناها: (حِلْيَةُ الجَنَّةِ إِلَىٰ أَيَامَىٰ الأُمَّةِ) وَالْأَيَامَىٰ: جَمْعُ أَيِّمٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، كَانَتْ ثَيِّبًا أَمْ بِكْرًا؛ سواءً لم تُرْزَق بزوج، أو مات عنها زوجُها؛ فَتَرَمَّلَتْ، أو طُلِّقَتْ من زوجها. فهي: حِلْيَةٌ وزِينَةٌ لمن عَقَلَتْها وتَمَسَّكَت بها عَمِلَتْ بما فيها من أَيَامَىٰ المسلمات؛ تُفْضِي بها إلىٰ بلوغ أعلىٰ منازل الجنان.

وإننا وإنْ خاطَبْنَا الأيامَىٰ بهذهِ المادَّةِ خُصُوصًا، فهيَ نافعةٌ كذلكَ لعمومِ النساءِ وعمومِ الرجالِ؛ لِمَا أَوْدَعْناها مِنْ نَفِيسِ المعانِي والآثار، ولن يَعْدِمَ الفائدةَ مَنْ نَشَدَها، وحَرَصَ عليهَا؛ وأَخْلَصَ النِّيَّةَ في طَلَبِها.

وإننا لَنُقَدِّمَ هذه البضاعة قُرْبانًا لله -تعالىٰ-، علىٰ قِلَّة الحِيلة، وعظيمِ حقِّ الرَّبِّ -تعالىٰ-، لعلَّه أن يَتَقَبَّلَها مِنَّا، ويرضَىٰ بها عنَّا، وَيُقَرِّبَنَا منه منزلًا ومقامًا، وينفع بها بنات المسلمين؛ إنه أهل ذلك.

فإليكِ أختاه هذه المادةَ النفيسةَ؛ إِذْ لم أعلم بكتابٍ خُصِّصَ لهذه الفئة من المسلمات؛ راجيًا ربًا كريمًا، برًا رحيمًا، أن تكون مواساةً لأيامَىٰ المسلمات، وطِبًّا لجراحهن، فإن الله -تعالىٰ-هو خالق الداء والدواء، فإليك أختاه، إليك أختاه:

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الصَّبرُ عُدَّةُ الصَّالِحَاتِ

قضىٰ اللهُ قضاءً لا رَادَّ له أنَّ الدنيا دارُ ابتلاءٍ وامتحانٍ، وأنَّ كُلَّ بني آدم فيها مبتلَوْن، وأن من رَامَتْ لنفسها دوامَ العافية، فقد نشدت غير المُمْكِن، وقد جَهِلَتْ حكمةَ الله – سبحانه– في الخَلْقِ والخَلِيقَةِ، بل في الحقيقة لا تصلحُ الحياةُ إلا بالابتلاء، ولو استمرت العافية علىٰ الناس سَرْمَدًا لفسدت الحياةُ وأَسِنَتْ[1]، فالابتلاء مُوَكَّل بالظالمين، ولا يزال بهم حتىٰ يُرْدِيَهم ويُزِيلَ مَمَالِكَهم، أو يُصلِحَهم ويَرُدَّهم إلىٰ رَبِّهِم، وهو كذلك مُوَكَّلٌ بالصالحين، فلا يزال بهم، حتىٰ يُطَهِّرَهم ويُزَكِّيَهم ويرفعَ درجاتِهم، قال رسول الله ﷺ: «وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّىٰ يَمْشِيَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[2]. فَيَقْدُمُون علىٰ الله –تعالىٰ– وهم أنقىٰ من الثوب الأبيض، وأطهر من الثلج والماء البارد. ولهذا كان الصبرُ للصالحين ألزمَ من كُلِّ عُدَّةٍ، وأَحْوَجَ مِنْ كُلِّ زَادٍ.

---

(1) أسن الماء يأسن، وهو الذي لا يشربه أحد من نتنه، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 13/ 16.

(2) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي إسحاق، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: 3/ 78، وحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

قال ابن القيم: «الصَّبْرُ مِنْ آكَدِ الْمَنَازِلِ فِي طَرِيقِ الْمَحَبَّةِ، وَأَلْزَمِهَا لِلْمُحِبِّينَ، وَهُمْ أَحْوَجُ إِلَىٰ مَنْزِلَتِهِ مِنْ كُلِّ مَنْزِلَةٍ، وَهُوَ مِنْ أَعْرَفِ الْمَنَازِلِ فِي طَرِيقِ التَّوْحِيدِ وَأَبْيَنِهَا، وَحَاجَةُ الْمُحِبِّ إِلَيْهِ ضَرُورِيَّةٌ...، وبِهِ يُعْلَمُ صَحِيحُ الْمَحَبَّةِ مِنْ مَعْلُولِهَا، وَصَادِقُهَا مِنْ كَاذِبِهَا؛ فَإِنَّ بِقُوَّةِ الصَّبْرِ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ فِي مُرَادِ الْمَحْبُوبِ يُعْلَمُ صِحَّةُ مَحَبَّتِهِ، وَمِنْ هَاهُنَا كَانَتْ مَحَبَّةُ أَكْثَرِ النَّاسِ كَاذِبَةً، لِأَنَّهُمْ كُلَّهُمُ ادَّعَوْا مَحَبَّةَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، فَحِينَ امْتَحَنَهُمْ بِالْمَكَارِهِ؛ انْخَلَعُوا عَنْ حَقِيقَةِ الْمَحَبَّةِ، وَلَمْ يَثْبُتْ مَعَهُ إِلَّا الصَّابِرُونَ. فَلَوْلَا تَحَمُّلُ الْمَشَاقِّ، وَتَجَشُّمُ الْمَكَّارِهِ بِالصَّبْرِ؛ لَمَا ثَبَتَتْ صِحَّةُ مَحَبَّتِهِمْ؛ وَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ أَعْظَمَهُمْ مَحَبَّةً أَشَدُّهُمْ صَبْرًا، وَلِهَذَا وَصَفَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِالصَّبْرِ خَاصَّةَ أَوْلِيَائِهِ وَأَحْبَابِهِ، فَقَالَ عَنْ حَبِيبِهِ أَيُّوبَ ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾[1]، ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[2]»[3].

---

(1) ص: 44.

(2) ص: 44.

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 162.

الصبرُ على الابتلاءِ سُنَّةُ الحياةِ الدُّنيا

فالعباد في هذه الدار يَتَقَلَّبُون بين العافية والابتلاء، فَأَقْدَارُ اللهِ -تعالىٰ- جارِيَةٌ علىٰ خَلْقِه كما يجري عليهم الحَرُّ والبَرْدُ، والصيفُ والشتاءُ، بل إِنَّ البلاءَ فيها أكثرُ من العافية كما قال الشاعر الأَنْدَلُسِيِّ أبو البقاء الرُّنْدِي[1]:

لِكُلِّ شَيءٍ إذا ما تَمّ نُقصانُ ❊❊❊ فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ ❊❊❊ مَن سَرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقِي عَلىٰ أَحَدٍ ❊❊❊ وَلا يَدُومُ عَلىٰ حالٍ لَها شانُ

فجائعُ الدَّهرِ أنواعٌ مُنَوَّعةٌ ❊❊❊ وللزَّمانِ مَسَرَّاتٌ وأَحْزَانُ

وأصدقُ مِنْ قَوْلِ الشاعرِ هذا، قَوْلُ الله -تعالىٰ-: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ❊ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2].

---

(1) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، لأحمد بن إبراهيم بن مصطفىٰ الهاشمي: 2/ 385.

(2) العنكبوت: 2، 3.

مُقَسِّمُ الأرزاقِ هو مُقَسِّمُ الابتلاءاتِ

واللهُ -سبحانه- مُقَسِّم الأرزاق، هو مُقَسِّمُ الابتلاءات، وهو -وَحْدَه- مَنْ يُحَدِّدُ لكلِّ مُسلمةٍ نوعَ الاختبارِ، ومُدَّةَ دَوامِهِ، وَوَقْتَ انْقِضائِهِ وَزَوَالِهِ، وَدَرَجَةَ شِدَّتِهِ وصُعُوبَتِه؛ فَمُبْتَلاةٌ بِبَدَنِها بالأَسْقَام والأَوْجَاعِ، ومُبْتَلاةٌ بنقص المال وشِدَّةِ الفَقْرِ، ومُبْتَلاةٌ بالتَّأَيُّم: بعدم الزواج، أو بموت الزوج ويُتْم الأولاد، أو بالطلاق، ومُبْتَلاةٌ بِنَقْصِ الذُّرِّيَّةِ، وعَدَمِ الإِنْجَاب، ومُبْتَلاةٌ بزوجٍ شَيْطانٍ مَرِيدٍ[1]، يُذِيقُها كُلَّ صباحٍ ومساءً كُؤُوسَ الآلامِ، ويُجَرِّعُها مَرَارةَ الأحزانِ، وغيرُها مِمَّا لا يُحصيها إلا من قدَّرَها -سبحانه-: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2].

(1) شيطان مريد، أَيِ: الْعَاتِي فِي الشيطنة. وَمَعْنَاهُ أَنه قد عري من الْخَيْر، وَظهر شَره، انظر: تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، سورة الحج: 17/ 193.

(2) الملك: 14.

لا اعتراضَ على قَضَاءِ الحَكِيمِ -سُبْحَانَهُ-

أَمَّا الأَمَةُ المسلمةُ فَمَمْلُوكةٌ للهِ مربوبة[1] له، تحتَ سُلْطانِ المَلِكِ الحقِّ، والخَلْقُ كلهم كذلك، خَلَقَهُم بِرُبُوبِيَّتِه، وقَهَرَهُمْ بِمُلْكِهِ، واسْتَعْبَدَهُم بِأُلُوهِيَّتِهِ، فَلَيْسَ لِلْأَيِّمِ المسلمةِ إلا التسليمُ للمَلِكِ الحقِّ، والعلمِ بأنَّ اللهَ لا يقضي لها إلا المصلحة، وإنْ وَجَدَتْ أَلَمَ المِحْنَةِ، وشِدَّةَ الابتلاءِ، فإنَّ المريضَ يُمَكِّنُ الطبيبَ مِنْ بَطْنِهِ أنْ يَشُقَّهُ ويَبْقُرَهُ، أو قَدَمِهِ أو يَدِهِ أن يقطعَها ويُبِينَها، لِعِلْمِه بِحِرْصِ الطبيبِ علىٰ مَصْلَحَتِه، بل يُثِيبُ الطبيب، فيعطيه أجرًا علىٰ بَقْرِ بطنه وقَطْعِ يده أو رجله، مع شِدَّةِ أَلَمِهِ؛ لِعِلْمه أنَّ الألمَ الذي أَحْدَثَه الطبيبُ، يعودُ عليه بالعافيةِ والراحةِ وحُسْنِ العاقبةِ. فَرَبُّ الأربابِ ومَلِكُ المُلوكِ، العليم الخبير، أَعْلَمُ بمصالحِ إِمَائِهِ، بما يَنْفَعُهُنَّ في عاجِلِهِنَّ وآجِلِهِنَّ، في دُنْيَاهِنَّ ومَعَادِهِنَّ.

(1) مربوب: بَيِّن الربوبة، أي: مملوك؛ والعباد مربوبون لله ﷻ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 1/ 400.

رحمةُ اللهِ -تعالى- بِعِبادِهِ في كُلِّ قَضاءٍ

وهو -سبحانه-الرحمنُ الرحيمُ، أرحم بَأَمَتِهِ من الوالدة بولدها، وأنفعُ لها من أمِّهَا وأبيها، وصاحِبِهَا وبَنِيها. وإنما يعظُم الصبر إذا تلَمَّحَتْ[1] المسلمةُ حُسْنَ العاقبةِ، فإنَّ مَنْ أخذَ مِنْهُ الملكُ شاةً، وَوَعَدَهُ أن يُرَبِّيَها له في حِماه، وأن يَسْتَعْمِلَ عليها خاصَّةَ عُمَّالِهِ، حتَّىٰ تُصْبِحَ قطيعًا، فَيُضْعِفَ له مِثْلَها من أَفْرَهِ[2] شِياهِ مَمْلَكَتِه، ثُمَّ يُوَفِّيه إياها أَحْوَجَ ما يكونُ إِلَيْهَا، عندَ كِبَرِ سِنِّه، وانقطاعِ سعيه-وهو يعلمُ من المَلِكِ صِدْقَه وأمانتَه وكَرَمَه وحُسْنَ سِيْرَتِه في الناس-؛ تُراه يَجِدُ ألمًا علىٰ فَقْد هذه الشاةِ مُدَّةً من الزمنِ، وهو يعلمُ حُسْنَ العاقِبَةِ؟! فَرَبُّ الأربابِ وَمَلِكُ الملوكِ أَوْلَىٰ بعباده من هذا الملكِ بِرَعِيَّتِه والمخبوءُ للصابرةِ المُحْتَسِبَةِ مِنْ فَيْضِ كَرَمِ اللهِ -تعالىٰ- وعظيمِ فَضْلِهِ أكبرُ بكثيرٍ ممَّا افْتَقَدَتْهُ في أيام الدنيا، ولا يعلمُ ذلك إلا الربَّانيونَ من أهلِ العلمِ والمعرفةِ بِرَبِّهم ووليِّ أمرِهم.

قال ابن القَيِّم: «فهكذا الرَّبُّ ﷻ لا يمنعُ عَبْدَهُ المؤمنَ شيئًا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضلَ منه وأنفعَ له، وليس ذلك لغيرِ المؤمنِ؛ فإنَّه يَمْنَعُه الحظَّ الأَدْنَىٰ الخَسِيسَ ولا يرضَىٰ له به؛ ليعطيه الحظَّ الأعلىٰ النفيسَ. والعبدُ لجهلِهِ بمصالحِ نَفْسِهِ وجَهْلِه بِكَرَمِ ربِّه وحِكْمَتِهِ

---

(1) تلمحت: اللمحة: النظرة بالعجلة، وقيل: لا يكون اللمح إلا من بعيد، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 2/ 584.

(2) الفارهة: النَّشِيطَةُ الْحَادَّةُ الْقَوِيَّةُ، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 16/ 107.

ولُطْفِهِ لا يعرفُ التَّفاوُتَ بين ما مُنِعَ مِنْهُ وبين ما ذُخِرَ له، بل هو مُولَعٌ بِحُبِّ العاجِلِ؛ وإنْ كانَ دَنِيئًا، وبِقِلَّةِ الرَّغْبَةِ في الآجلِ وإنْ كانَ عَلِيًّا. ولو أَنْصَفَ العبدُ رَبَّهُ -وأنَّىٰ له بذلك- لَعَلِمَ أنَّ فَضْلَهُ عليه فيما مَنَعَهُ من الدنيا ولَذَّاتِها ونَعِيمِها أعظمُ من فَضْلِهِ عليه فيما آتاهُ من ذلك؛ فما مَنَعَهُ إلا لِيُعْطِيَه، ولا ابتلاهُ إلا لِيُعَافِيَهِ، ولا امْتَحَنَه إلا لِيُصَافِيَهِ، ولا أماتَهُ إلا لِيُحْيِيَهُ، ولا أخرجَهُ إلىٰ هذه الدارِ إلا لِيَتَأَهَّبَ منها للقدومِ عليه، وليسلك الطريقَ المُوْصلةَ إليه، فجعلَ الليلَ والنَّهارَ خِلْفَةً لمن أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ أو أرادَ شُكُورًا، وأبىٰ الظالمون إلا كُفورًا. واللهُ المستعانُ»[1].

(1) الفوائد، لابن قيم الجوزية، باب: قاعدة لشهادة (أن لا إله إلا الله عند الموت): 1/ 57.

الصبرُ دواءُ كلِّ داءٍ[1]

وليسَ للفتنةِ والابتلاءِ دواءٌ أنفعُ من الصَّبْرِ؛ وإن كان مُرًّا؛ فإن مَرَارَتَه تُعْقِبُ الراحةَ واللّذةَ والعافيةَ وحُسْنَ العاقبةِ في الدنيا والآخرةِ، وفي الحديثِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[2].

قال ابن القيم: «قَرَنَ اللهُ -سبحانه- الفتنةَ بالصبر... فليسَ لمن قد فُتِنَ بفتنة دواءٌ مثل الصبر، فإنْ صَبَرَ كانتِ الفتنةُ مُمَحِّصَةً له، ومُخَلِّصةً من الذنوبِ، كما يُخَلِّصُ الكِيرُ خَبَثَ الذهبِ والفضةِ»[3].

وقال -رحمه الله-: «فإذا صَبَرَ علىٰ هذه العَصْرَةِ[4] قليلًا أَفْضَتْ بهِ إلىٰ رياضِ الأُنْسِ وجَنَّاتِ الانشراحِ، وإنْ لَمْ يَصْبِرْ لها؛ انقلبَ علىٰ وجهِهِ، والله المُوَفِّقُ لا إلهَ غيرُه ولا ربَّ سِواهُ»[5].

---

(1) الداء: اسم جامع لكل مرض وعيب ظاهر أو باطن، والجمع أدواء، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 1/ 79.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب الصبر عن محارم الله: 8/ 99، ومسلم، باب فضل التعفف والصبر: 2/ 729.

(3) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية: 2/ 162.

(4) يقصد بـ(العصرة) الشدة والمحنة التي تواجه المبتلىٰ والمبتلاة؛ حتىٰ لكأنها، تعصرها بقوة وشدة لتستخرج ما فيها من خير: من صبر، ورضا عن الله، وافتقار له وإقبال عليه؛ كما تُعْصَرُ حبات الزيتون؛ فتخرج خيرها، زيتًا طيبًا، يؤتدم به، ويستشفىٰ منه.

(5) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 243.

حقُّ الرَّبِّ -تعالى- عَلَى عِبَادِهِ الصبرُ على قَضَائِهِ

ولله -تَعَالَىٰ- علىٰ عبادِه حقٌّ فيما قَضَاهُ من الابتلاءِ، كما لَهُ حَقٌّ عليه في النَّعْماءِ، فَكَما أنَّ حقَّه -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ عبدِه في النَّعْماءِ القيامُ بواجبِ شُكْرِها بقلبِهِ ولسانِهِ وجَوَارِحِهِ؛ فَحَقُّه علىٰ عبادِهِ في قَضَاءِ الابتلاءِ: الصبرُ عَلَيْهَا، وعَدَمِ تَسَخُّطِهَا، فالمسلمةُ الصابرةُ تحبسُ حُزْنَها في صَدْرِها، إذْ لا خَيْرَ في جَوْفٍ لا يَتَّسِعُ لمحبوبِ اللهِ منَ الصَّبْرِ والرِّضا، وتَعْقِلُ لسانَها عنِ الشِّكايةِ، إذْ لا خيرَ في أَمَةٍ تَشْكُو ربَّها، تشكو ربَّ العبادِ إلىٰ العبادِ؛ وتَحْجِز جوارِحَها عن المعصيةِ، وسلوكِ غيرِ سبيلِ المؤمنين.

وإذا شَكَوْتَ إلىٰ ابنِ آدمَ إنَّما *** تشكو الرحيمَ إلىٰ الذِي لا يرحمُ[1].

قال القرطبي -رحمه الله-: «الْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا أُصِيبَ بِمَكْرُوهٍ فِي نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ أَنْ يَتَلَقَّىٰ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ، وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ لِمُجْرِيهِ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَيَقْتَدِي بِنَبِيِّ اللهِ يَعْقُوبَ، وَسَائِرِ النَّبِيِّينَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: مَا مِنْ جَرْعَتَيْنِ يَتَجَرَّعُهُمَا الْعَبْدُ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ جَرْعَةِ مُصِيبَةٍ يَتَجَرَّعُهَا الْعَبْدُ بِحُسْنِ صَبْرٍ وَحُسْنِ عَزَاءٍ، وَجَرْعَةِ غَيْظٍ يَتَجَرَّعُهَا الْعَبْدُ بِحِلْمٍ وَعَفْوٍ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أَيْ: لَا أَشْكُو ذَلِكَ إِلَىٰ أَحَدٍ»[2].

---

(1) الفوائد، لابن قيم الجوزية: 1/ 87.

(2) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، سورة يوسف: 9/ 247.

وإنما يُغبَطُ أهل البلاء في الآخرة لِمَا يُرَىٰ لهم منَ الكراماتِ، جَزَاءَ صَبْرِهِم واحْتِسابِهم، عن جابر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوَدُّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ حينَ يُعْطَىٰ أهلُ البلاءِ الثوابَ لو أَنَّ جلودَهُم كانَتْ قُرِّضَتْ في الدُّنيا بالمقاريضِ»[1].

(1) رواه الترمذي في سننه، بَابُ مَا جَاءَ فِي ذَهَابِ البَصَرِ: 4/ 603، وحَسَّنَهُ الألباني.

الصَبْرُ دواء لمن تَأَيَّمَت ولم تتزوج

فمنِ ابْتُلِيَتِ اليومَ بالتَّأَيُّمِ؛ فلمْ تَتَزَوَّجْ؛ لِقِلَّةِ الحظِّ منَ الجمالِ، أو لِمَرَضٍ، أو لأيِّ سَبَبٍ كانَ حائِلًا دونَ زواجِها؛ فدواؤُها الصَّبْرُ؛ وسَيَهَبُها اللهُ -تعالىٰ- هناكَ، من البهاءِ والجمالِ والعافيةِ ما تَقَرُّ به عينُها، وسيزوجُها اللهُ -تعالىٰ- في دارِ كرامَتِه من كِرَام خَلْقِه ما تَرْضَىٰ، وسيُمْهِرُها من نَفِيسِ عَطائِه، وحُلِيِّ جِنانِه، ما لو بَدا مِنْه شيءٌ لأهلِ الدُّنيا؛ لَمَلَأَهُ نورًا، وبهاءً.

فَلَئِنْ صَبَرتِ المُسْلِمةُ علىٰ عدمِ الزواجِ مُدَّةَ أيامِ الدنيا، فإنَّها سَتُمَتَّع به في دارِ الخلودِ، ولئِنْ حِيلَ بينَها وبينَ الزواجِ من رَجُلٍ يَضِلُ ويَزِلُ ويَفْسُقُ ويَفْجُرُ، ويَصِيحُ ويَصْخَبُ، ويسبُّ ويُقَبِّحُ؛ فستنعُم بصُحْبةِ رجلٍ من رجالِ الجنةِ، قالَ اللهُ فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

(1) الأعراف: 43.

بُشْرَى لِمَنْ لَمْ تَتَزَوَّجْ

ثُمَّ إِنَّ لمنْ لمْ تُرْزَقْ بِزَوْجٍ في الدنيا بُشْرَىٰ كريمةً منْ رسولِ اللهِ ﷺ أن تُكْتَبَ في الشهداءِ؛ لِمَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَبْرِ بْنِ عَتِيكٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ مَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِهِ: إِنْ كُنَّا لَنَرْجُو أَنْ تَكُونَ وَفَاتُهُ قَتْلَ شَهَادَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ: الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ شَهَادَةٌ، وَالْمَطْعُونُ شَهَادَةٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهَادَةٌ يَعْنِي الْحَامِلَ، وَالْغَرِقُ، وَالْحَرِقُ، وَالْمَجْنُوبُ يَعْنِي ذَاتَ الْجَنْبِ شَهَادَةٌ»[1].

* قال ابنُ عبدِ البَرِّ: «قَوْلُه: (الْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ) ففيهِ قولانِ:

* أَحَدُهُمَا: هي المرأةُ تموتُ من الولادةِ، وولدُها في بطنِها، قَدْ تَمَّ خَلْقُهُ، وماتَتْ من النّفاسِ، وهو في بَطْنِها لمْ تَلِدْه.

* والقول الآخر: هي المرأةُ تموتُ عذراءَ، لم تُنْكحْ، ولم تُفْتَضَّ»[2].

* وقال الباجي في المُنْتَقَىٰ: «(وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ) قِيلَ: إِنَّ مَعْنَىٰ ذَلِكَ تَمُوتُ بِالْوِلَادَةِ، وَقِيلَ: إِنَّ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنْ تَمُوتَ جَمْعَاءَ بِكْرًا غَيْرَ ثَيِّبٍ لَمْ يَنَلْهَا أَحَدٌ»[3].

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه، باب ما يرجىٰ فيه الشهادة: 2/ 937، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر: 19/ 307.

(3) المنتقىٰ شرح الموطَّأ، للباجي: 2/ 27.

* وقال ابنُ الأَثِيرِ: «(وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ) وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهَا مَاتَتْ مَعَ شَيْءٍ مَجْمُوعٍ فِيهَا، غَيْرِ مُنْفَصِلٍ عَنْهَا مِنْ حَمْلٍ أَوْ بَكَارَةٍ»[1].

* قال ابن السِّكِّيت في إصلاح المنطق: «ويُقال للعذراءِ: (هي بِجُمْعٍ) وقالتِ الدهناءُ ابنةُ مسحل، امرأةُ العَجَّاج حين نَشَزَت عليه للوالي: أصلحك الله، إنِّي منه بِجُمْعٍ، أي: عذراء لم يَفْتَضَّنِي»[2].

* فالمعنىٰ -إذن- يدخلُ فيه مَنْ ماتَتْ بالولادةِ، ومَنْ ماتَتْ بِكرًا، ولم تَتَزَوَّجْ، وفي هذا بِشَارة عظيمةٌ لمن ماتَتْ دونَ أن تتزوجَ، وصبرتْ علىٰ ذلكَ واحْتَسَبَتْ؛ فيُرْجَىٰ لها أن تُكْتَبَ في ديوان الشهداء.

---

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 1/ 296.

(2) انظر: إصلاح المنطق، لابن السكيت: 1/ 34.

الصَبْرُ دواء لمن تَأَيَّمَت لموت زوجها

وإذا كانتِ الأَيِّمُ أرملةً قد تَأَيَّمَتْ لموتِ زوجِها، فدواؤُها الصبرُ كذلك؛ وعليها أن تَسْلُكَ في نفسِها سبيلَ الصالحاتِ، فَتَصْبِرَ أولًا علىٰ موتِ زوجِها وتَحْتَسِبُه، وتقولُ عند تَلَقِّي خَبَرِ وفاتِه ما عَلَّمَها رسول الله ﷺ لأمِّ سَلَمَةَ لمَّا ماتَ زوجُها، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا». قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؛ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا؛ فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ، يَخْطُبُنِي لَهُ؛ فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا، وَأَنَا غَيُورٌ. فَقَالَ: «أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو اللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ»[1]. ولَهَا إن فعلت ذلك البُشْرَىٰ من رسول الله ﷺ بالجنة؛ لِمَا روىٰ البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ -تَعَالَىٰ-: مَا لعَبدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الجَنَّةَ»[2].

---

(1) رواه مسلم، باب: ما يقال عند المصيبة: 2/ 631.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب العمل الذب يبتغىٰ به وجه الله: 8/ 90.

في صَبْرِ الصالحاتِ علَى مَوْتِ الأزواجِ عِبْرَةٌ

ثم إنَّ في صَبْرِ مُعَاذَةَ العَدَوِيَّةِ علىٰ فَقْدِ زَوْجِها أُسْوةً للنساءِ حَسَنَةً، ذكر ابنُ الجَوْزِيِّ عن ثابت البُنَاني، أنَّ أبا الصَهْباء، صِلَةَ بن أَشيَم كان في مَغْزَىً لهُ، ومَعَهُ ابنٌ له، فقال: أي بُنَي، تَقَدَّم؛ فقاتِل حتىٰ أَحْتَسِبَكَ؛ فَحَمَلَ علىٰ الأعداءِ فقاتَلَ حتىٰ قُتِلَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ؛ فَقُتِلَ؛ فاجْتَمَعَتِ النساءُ عندَ امرأتِه (مُعَاذَةُ العَدَوِيَّة) فقالتْ: مَرْحَبًا، إن كُنْتِنَّ جِئْتِنَّ لِتُهَنِّئْنَنِي؛ فمرحبًا بِكُنَّ وإن كُنْتنَّ جِئْتنَّ بغير ذلك فارجعنْ.

قالت عفيرةُ العابدةُ: «بَلَغَنِي أنَّ مُعاذَةَ العَدَوِيَّةَ لَمَّا احْتَضَرَهَا الموتُ بَكَتْ، ثُمَّ ضَحِكَتْ، فَقِيلَ لَها: بَكَيْتِ، ثُمَّ ضَحِكْتِ؛ فَمِمَّ البُكاءُ، ومِمَّ الضَحِكُ؟ قالت: أمَّا البكاءُ الذي رأيتُم؛ فإنِّي ذكرتُ مُفَارقَةَ الصيامِ والصلاةِ والذِّكْرِ؛ فكانَ البكاءُ لِذَلِكَ، وأمَّا الذي رأيتُم من تَبَسُّمِي وضَحِكِي؛ فإني نظرتُ الىٰ أبي الصَّهْباءِ (تعني زوجَها) قد أقبلَ في صَحْنِ الدارِ، وعليه حُلَّتَانِ خَضْرَاوانِ، وهو في نَفَرٍ، واللهِ ما رأيتُ لهم في الدنيا شَبَهًا؛ فَضَحِكْتُ إليهِ، ولا أُرَاني أدركُ بعد ذلك فَرْضًا؛ فماتتْ قبلَ أنْ يدخلَ وقتُ الصلاةِ»[1].

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 240.

لمن ماتَ زوجُها الخيارُ بَيْنَ التَّأَيُّمِ أو الزواجِ

وللمرأةِ التِي ماتَ عَنْها زَوْجُها؛ إن وَجَدَتْ في نَفْسِها القُوَّةَ والصبرَ علىٰ تركِ الزواجِ بعدَ موتِ زوجِها، والقيامِ علىٰ خدمةِ أبنائِها أن تتأَيَّمَ، وتَتْرُكَ الزواجَ؛ مُتُأَسِّيةً بِأُمِّ الدَّرْدَاء، روىٰ الطبرانيُّ أنَّ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ خطب أُمَّ الدَّرْدَاء بعد وفاةِ أبي الدرداءِ، فقالتْ أمُّ الدرداءِ: إنِّي سمعتُ أبا الدرداءِ يقولُ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «أَيُّمَا امرأةٌ تُوُفِّيَ عنها زوجُها، فتزوجتْ بعدَهُ فهي لآخرِ أزواجِها»، وما كُنْتُ لأختاركَ علىٰ أبي الدَرْدَاء[1]. وأمَّا إنْ عَلِمَتْ منْ نَفْسِها الضعفَ مِنْ جِهَةِ الرِّجالِ والحاجةَ إليهم، وخَشِيَتْ علىٰ نَفْسِها الفِتْنَةَ؛ فَالأَلْزَمُ لها أنْ تَتَزَوَّجَ؛ إذا تَيَسَّرَ لها الزوجُ الصالحُ بعدَ موتِ زوجِها؛ فَلَعَلَّ اللهَ أنْ يرزقَهَا زوجًا صالحًا خيرًا من الأول؛ فإنْ أَبَتْ فلا نَأْمنُ عليها الإثمَ؛ لأجل تعريضِ نفسِها للفِتْنَةِ، ولا تَلْتَفِتَنَّ إلىٰ كلامِ الناسِ، كما تفعلُ بعضُ النساءِ من تَرْكِهِنَّ الزواجَ بعدَ موتِ زَوْجِها؛ خَشْيةَ أنْ يُقالَ: تَزَوَّجَتْ، وتَرَكَتْ أَيْتامَها، ولها في نساءِ الصحابةِ أُسْوةٌ، إذْ كانتْ إحداهُنَّ ما إنْ يَمُتْ زوجُها، ويَتَيَسَّرْ لها الزواجُ من آخَرَ حتىٰ تَسْتَجيبَ؛ فأُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ تَزَوَّجَتْ بِزَيْدِ بنِ حارثةَ، فلما قُتِلَ عنها، تَزَوَّجَتِ الزُّبَيْرَ، فَوَلَدَتْ له زينبَ، ثمَّ تزوجتْ عبدَ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ، فولدتْ له إبراهيمَ وحُمَيْدًا، ثمَّ تزوجتْ عمرَ بنَ العاصِ، فماتتْ عندَه؛ رحمها الله[2].

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه بكر: 3/ 275، وصَحَّحَهُ الألباني في صحيح الجامع الصغير: 1/ 525.

(2) انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 323.

الصَبْرُ دواءٌ لمن تَأَيَّمَت لطلاقها من زوجها

أما إذا تَأَيَّمَتِ المُسْلِمةُ بسببِ طلاقِها من زوجِها؛ فدواؤُها الصبرُ علىٰ مصيبةِ الطلاقِ؛ ثمَّ لتَتَقِي اللهَ -تعالىٰ- في طَلِيقِها، فلا تَذْكُرُ مساوئَه وعيوبَه، ولْتَسْتُرْ عليه، قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَومَ القِيامَةِ»[1]، ولتُمْسكْ عن الحديثِ عنه، وعن ذِكْره؛ فإنه أصبح أجنبيًا عنها، ولا يُهَيِّجَنَّها النساءُ المُواسِياتُ لها علىٰ ذِكْرِ مساوِئِه؛ فإنَّ أكثر الناس لا يتقون اللهَ، ولا يُعِينون علىٰ المعروفِ؛ فإذا حَضَرَها ذِكْرُ سَيِّئاتِه؛ فلتذكرْ سابِقَ إحسانِه؛ ثمَّ لتَتَّقِي الله -تعالىٰ- في طَلَبِ حَقِّها الشرعي من مَهْرٍ ودُيُون ونَفَقَة، ولتُحْسنْ إليه في خلافِها معه؛ فإنَّ الله -تعالىٰ- يحبُّ المُحسنين؛ وإنَّه لَئِنْ أساءَ في تَطْلِيقِها؛ فطالما أَحْسَنَ إليها في سابقِ الأيامِ، ولئن أحزن؛ فطالما أفرح؛ ولقد أصابتْ منه خيرًا كثيرًا، كما أصاب منها خيرًا كثيرًا؛ ولقد خاطب الله -تعالىٰ- الزوجين بقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[2]؛ ولتعلمْ أنَّ الله الذي أحلَّ الطلاقَ؛ قد حَرَّم عليها غيبته بذكر عيوبه، حتىٰ لو كانت فيه، وتَوَعَّد عليها؛ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟» قالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِما يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فقد اغْتَبْتَهُ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[3].

---

(1) رواه البخاري، باب: تحريم الظلم: 4/ 1996، ومسلم، باب: فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن: 4/ 2047.

(2) البقرة: 237.

(3) رواه مسلم، باب: تحريم الغيبة: 4/ 201.

ثمَّ لتعلمْ أنَّ خيرَ الرجالِ مِنْ قبلِ زوجِها طَلَّقوا خيرَ النساءِ من قبلِها؛ فلقد طَلَّق حِبُّ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه، أمَّ المؤمنين زينبَ بنتَ جَحْشٍ -رضي الله عنها-، وطَلَّق حَوارِيُّ رسول الله ﷺ الزبيرُ بنُ العَوَّامِ رضي الله عنه أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ، ذات النِّطاقَيْنِ -رضي الله عنها-. ولقد خَيَّر رسول الله ﷺ نساءه بين الطلاق والتَّسْريحِ بإحسانٍ، وبين الصبر معه علىٰ الفقرِ وقِلَّةِ المَتاعِ؛ فاخْتَرْنَه ﷺ علىٰ الدنيا ومتاعِها وزينتِها.

وفي الطلاقِ بَقِيَّةٌ من خَيْرٍ

وقد يكونُ الطلاقُ دواءً للخلافاتِ المُسْتَعْصِية التي قد تُفْضِي إلىٰ ما هو أكبر من الطلاقِ لو دامتْ عشرتُهُما؛ وطلاقُ المسلمةِ ليسَ نِهايةَ الحياةِ؛ وكمْ مِنْ مُسْلِمَةٍ عاشتْ معَ زوجِها حياةَ الجحيمِ، فلمْ تَجِدْ لها مَعَهُ يومًا تَفْرَحُ بِهِ؛ يُجَرِّعُها في الصباحِ والمساءِ كُؤُوسَ الآلَامِ، ثُمَّ لمَّا طُلِّقَتْ مِنْهُ؛ كَأَنَّما حُرِّرَتْ مِنْ أَسْرٍ شَدِيدٍ، وإن المسلمةَ المطلقةَ إنْ سألتِ اللهَ -تعالىٰ- أن يرزقَها خيرًا منه، واتقتِ الله -تعالىٰ- في خلافِها معه؛ فَعَسَىٰ اللهُ الرزاق أن يرزقَها مَنْ هوَ خيرٌ منه دِينًا وخُلُقًا؛ كما رَزَق زينبَ بنت جحش -رضي الله عنها- برسول الله ﷺ الذي هو خيرٌ مِنْ زيدِ بنِ حارثةَ رضي الله عنه، وكثيراتٌ هُنَّ النساء اللاتِي أَبْدَلَهُنَّ اللهُ زوجًا آخَرَ، كانَ أَنْفَعَ لها مِنْ زوجِها الأوَّلِ، وأفضلَ منه دِينا وخُلُقًا؛ ولَئِنْ كَتَبَ اللهُ -تعالىٰ- عليها التأيُّمَ، ففي صَبْرِها علىٰ حِرْمانِها الزوجَ، خيرٌ لها مِنَ الزوجِ، وفي تَفَرُّغِها لعبادة ربِّها خيرٌ لها مِنَ الزوجِ في عاجِلِ أَمْرِها وآجِلِهِ، ولتَعْلَمْ أنَّ اللهَ -تعالىٰ- هو مُقَسِّمُ الأرزاق، وأنه -سبحانه- لا يقضِي لها إلا المصلحةَ، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

(1) البقرة: 216.

السبيلُ إلى تَحْقِيقِ الصَبْرِ

لَمَّا عُلِمَ أن أكثرَ الدواءِ مُرٌّ مكروهٌ الطعم والرائحة؛ احْتِيجَ إلىٰ ما يُسَهِّلُه؛ لِيُسْتساغَ ويُتَجَرَّعَ؛ وكذلك جرعاتُ الصَبْرِ حارةٌ مُرَّةٌ، فحينَ يَجِنُّ الليلُ الناسَ وتأوِي كلُّ امرأةٍ إلىٰ زوجِها؛ تَنْفَرِدُ الأَيِّمُ وحدَها علىٰ فراشها، تَطْوِي بينَ جوانِحِها نارَ الوَحْدَةِ والغُرْبَةِ، فَكَلِمةُ (اصبِرِي) وحدَها غيرُ كافيةٍ حتَّىٰ تَعْلَمَ ما بعدَ الصبرِ، وحتىٰ تَرَىٰ ما يُسَهِّلُ الصبرَ ويُهَوِّنُهُ، فالمسلمةُ بحاجةٍ إلىٰ ما يُسَهِّلُ الصبرَ؛ لِتَسْتَسِيغهُ وتَتَجَرَّعهُ؛ وإنَّ مِمَا يُسَهِّلُ الصبر علىٰ الأَيِّمِ المسلمة أمور منها:

الأول: عِلْمُ المُسْلِمَةِ بِمَوْعُودِ اللهِ للصابرات

وإنَّما يُسهِّلُ الصبرَ علىٰ أَيَامَىٰ النساءِ المُبْتَلَيَاتِ عِلْمُهُنَّ بِحُسْنِ العاقبةِ في الدنيا والآخرةِ، وعُلُوِّ منزلتهنَّ عندَ اللهِ.

قال ابنُ القَيِّمِ: «عَلَىٰ حَسَبِ مُلَاحَظَةِ ثوابِ الصَّبْرِ وَالْوُثُوقِ بِهِ، وَمُطَالَعَتِهِ، يُخَفَّفُ حِمْلُ الْبَلَاءِ، لِشُهُودِ الْعِوَضِ، وَهَذَا كَمَا يَخِفُّ عَلَىٰ كُلِّ مُتَحَمِّلٍ مَشَقَّةً عَظِيمَةً حَمْلُهَا، لِمَا يُلَاحِظُهُ مِنْ لَذَّةِ عَاقِبَتِهَا وَظَفَرِهِ بِهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَتَعَطَّلَتْ مَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا أَقْدَمَ أَحَدٌ عَلَىٰ تَحَمُّلِ مَشَقَّةٍ عَاجِلَةٍ إِلَّا لِثَمَرَةٍ مُؤَجَّلَةٍ، فَالنَّفْسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ. وَإِنَّمَا كان الْعَقْلُ: لتَلَمُّحِ الْعَوَاقِبِ، وَمُطَالَعَةِ الْغَايَاتِ، وَأَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَىٰ أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ. وَأَنَّ مَنْ رَافَقَ الرَّاحَةَ فَارَقَ الرَّاحَةَ. وَحَصَلَ عَلَىٰ الْمَشَقَّةِ وَقْتَ الرَّاحَةِ فِي دَارِ الرَّاحَةِ، فَإِنَّ قَدْرَ التَّعَبِ تَكُونُ الرَّاحَةُ. وَالْقَصْدُ: أَنَّ مُلَاحَظَةَ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ تُعِينُ عَلَىٰ الصَّبْرِ

فِيمَا تَتَحَمَّلُهُ بِاخْتِيَارِكَ وَغَيْرِ اخْتِيَارِكَ، (وممَّا يعينُ علىٰ الصبر) انْتِظَارُ رُوحِ الْفَرَجِ يَعْنِي: رَاحَتَهُ وَنَسِيمَهُ وَلَذَّتَهُ، فَإِنَّ انْتِظَارَهُ وَمُطَالَعَتَهُ وَتَرَقُّبَهُ يُخَفِّفُ حَمْلَ الْمَشَقَّةِ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ قُوَّةِ الرَّجَاءِ، أَوِ الْقَطْعِ بِالْفَرَجِ، فَإِنَّهُ يَجِدُ فِي حَشْوِ الْبَلَاءِ مِنْ رُوحِ الْفَرَجِ وَنَسِيمِهِ وَرَاحَتِهِ مَا هُوَ مِنْ خَفِيِّ الْأَلْطَافِ، وَمَا هُوَ فَرَجٌ مُعَجَّلٌ، وَبِهِ - وَبِغَيْرِهِ - يُفْهَمُ مَعْنَىٰ اسْمِهِ اللَّطِيفِ»[1].

فإن الصابرة علىٰ أَقْدارِ اللهِ عندِ اللهِ بمنزلةِ كُلِّ خيرٍ، يَبْتَلِيها بالمِحَنِ، وهي تَصْبرُ: فلا تَشْكُو ولا تَضْجُرُ، بل تُسلِّم وتَسْتَسْلِم لمن بيدِه الأمْرُ كُلُّه؛ حُبًا وكَرَامةً. فما أَحْسَنَ موعودَ اللهِ للصابراتِ المُسْتَقِيماتِ علىٰ طريقِ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، كما أخبرَ اللهُ -تعالىٰ- بقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[2].

قال الفخر -رحمه الله- في هذه الآية: «ثمَّ إنَّ الملائكةَ معَ جلالةِ مَرَاتِبِهِمْ يدخلونَ عليهِمْ لِأَجْلِ التَّحِيةِ والإكرامِ عندَ الدُّخولِ عليهِمْ، يُكْرِمُونَهُمْ بالتَّحِيَّةِ والسَّلَامِ، ويُبَشِّرُونَهُمْ بقولِه: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»[3].

قال القرطبي: «﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾، أَيْ: بِالتُّحَفِ والهَدَايا مِنْ عِنْدِ اللهِ تَكْرِمةً لَهُمْ. يقولون: سلامٌ عليكُم، قَدْ سَلِمْتُم من الآفاتِ والمِحَنِ»[4].

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 166.

(2) الرعد: 22-24.

(3) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة الرعد: 19/ 37.

(4) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، سورة الرعد: 9/ 312.

وقال الواحِدِيُّ: «ويقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، أي: سَلَّمَكُمُ اللهُ مِنْ أهوالِ القيامةِ وشَرِّهَا بِصَبْرِكُم في الدنيا علىٰ طاعَتِه، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾، ما أَنْتُمْ فيهِ مِنَ الكَرَامَةِ، أَيْ: نِعْمَ عُقْبَىٰ الدارِ التِي عَمِلْتُم فيها ما أَعْقَبَكُمْ هذهِ الكرامةِ»[1].

وقال ابنُ القَيِّمِ: «فإنَّها دارُ السَّلامةِ مِنْ كُلِّ بَلِيَّةٍ وآفَةٍ ومَكْرُوهٍ، وهيَ دارُ اللهِ، واسمُه -سبحانه وتعالىٰ- (السَّلامُ) الذي سَلَّمَها وسَلَّمَ أهلَها، وتَحِيَّتُهُم فيها سَلَامٌ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ، والرَّبُّ -تعالىٰ- يُسَلِّم عَلَيْهِم مِنْ فَوْقِهِمْ، كما قالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾، وكلامُهُمْ كُلُّه فيها سلامٌ، أَيْ: لا لَغْوَ فيها، ولا فُحْشَ ولا باطلَ، كما قال -تعالىٰ-: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً﴾»[2].

وليسَ أَجْمَعُ ولا أَمْنَعُ لِمَا سَتَجِدُهُ الصابِرَةُ المُحْتَسِبَةُ عِنْدَ اللهِ مِنْ عظيمِ الأَجْرِ وحُسْنِ المَثُوبَةِ مِنْ قولِ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

فَهَلْ بَعْدَ كلِّ هذا الوَعْدِ الكريمِ مِنْ رَبٍّ كريمٍ يَبْقَىٰ فِي صَدْرِ الأَيِّمِ مِنْ أَلَمٍ، أو حَرَجٍ، أو ضِيقٍ؟!

---

(1) تفسير الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي، سورة الرعد: 4/ 201.

(2) التفسير القيم، لابن قيم الجوزية: 1/ 513.

(3) الزمر: 10.

الثاني: عِلْمُ المُسْلِمَةِ بِنُفُوذِ قَضَاءِ اللهِ

وإنَّ مِمَّا يُسَهِّلُ الصبرَ عِلْمُ الأيِّمِ بِنُفُوذِ قَضَاءِ اللهِ -تعالىٰ-، ثمَّ رِضاها بهِ؛ فإنَّ قضاءَ اللهِ -تعالىٰ- في العبادِ نافذٌ، لا يَرُدُّه رادٌّ، ولا يُعَقِّبُ علىٰ حُكْمِهِ مُعَقِّبٌ، ولا يَغْلِبُ أمرَهُ غالِبٌ، وإنَّ أَمْرَ كُلِّ مسلمةٍ قَدْ قُضِيَ مِنَ الأزلِ، وكُتِب لكل امرأة رزقُها مِنَ الأزواجِ، كما كُتِبَ رزقُها من الأَقْواتِ، فما ماتَ زوجٌ، وتَرَمَّلت امرأةٌ إلا بقضاءِ اللهِ، ولا طُلِّقتِ امرأةٌ إلا بقضاءٍ، ولا حِيلَ بينها وبينَ الزواجِ إلا بقضاءٍ.

فعن عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، قال: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ عُبَادَةَ، وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي، وَاجْتَهِدْ لِي؛ فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ؛ فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ[1]؛ فلئن صبرت الأيِّمُ عادتْ بِمَكْرُمَتَيْنِ: مَكْرُمَةِ الصبرِ وراحةِ البالِ، ومُكْرُمَةِ الأَجْرِ. ولئن سَخِطَتْ قضاء الله؛ باءَتْ بِضُرَّيْنِ: حُرْقَةِ البَلَاءِ، وعاقِبَةِ السُّخْطِ فِي الآخرةِ.

الثالث: عِلْمُ المُسْلِمَةِ بِاطِّلَاعِ اللهِ عليها

وإن مما يُسَهِّل البلاء ويُعَزِّي المبتلاة عِلْمُها أنَّ اللهَ -تعالىٰ- مُطَّلِعٌ علىٰ حالِها، وأنَّها تَحْتَ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ، وأنه -تعالىٰ- يُعْجِبُهُ أن يراها مُتَصَبِّرةً له، ويُحِبُّ منها ذلكَ، فإنَّ

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند: عبادة بن الصامت: 37/ 378، وصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

رِضَا المَحْبُوبينَ غايةُ مُرادِ المُحِبِّينَ؛ وإنْ كانَ فِيهِ مَشَقَّتُهُمْ وآلَامُهُمْ، كما قالَ بَعْضُ الشعراءِ يُخاطبُ مَحْبوبًا له، نالَه بِبَعْضِ ما يَكْرَه[1]:

لئِـنْ سَـاءَني أن نِلتَني بمَسَـاءةٍ *** لقـد سَـرَّني أنّـي خَطَرتُ بِبَالِكا

والذين آمنوا أشدُّ صبراً في اللهِ -تعالىٰ-، قال ابنُ القَيِّم: «كانَ بعضُ العارِفينَ فِي جَيْبِه رِقْعَةٌ، يُخرجُها كلَّ وقتٍ، يَنْظُرُ فيها، وفيها ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2]»[3].

فَعِلْمُ المُسْلِمةِ بِرُؤْيةِ اللهِ -تعالىٰ- لها، وعِلْمُهُ بِحَالِها، يُهَوِّنُ عليها كلَّ عَسِيرٍ.

قال ابن القيم: «هانَ سهرُ الحُرَّاسِ لَمَّا عَلِمُوا أنَّ أصواتَهُم بِسَمْعِ المَلِك»[4].

الرابع: عِلْمُ المُسْلِمَةِ بِسُرْعَةِ انْقِضاءِ الدُّنْيا

وإنَّ مِمَّا يُسَهِّل الصبرَ عِلْمُ المسلمةِ أنَّ الدنيا سريعةُ الانقضاءِ، وَشِيكَةُ الفَناءِ، وأنها عَمَّا قريبٍ سترتحلُ هيَ وكلُّ مَنْ علىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، وكأنَّه ما عاشَتْ مَنْ عَاشَتْ، ولا تَزَوَّجَتْ مَنْ تَزَوَّجَتْ، ولا أَنْجَبَتْ مَنْ أَنْجَبَتْ، فما هيَ إلا أيامٌ وقدْ ماتَ الأزواجُ والزوجاتُ والأولادُ والبناتُ وكلُّ مَنْ تَعْرِفِينَ، وتَتَمَنَّيْنَ نَصِيبَها.

قالَ ابنُ رَجَبٍ: «كمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يومًا لا يَسْتَكْمِلُهُ، ومُؤَمِّلٍ غدًا لا يُدْرِكه، إنَّكُم لو أَبْصَرْتُم الأَجَلَ ومَسِيرَه؛ لأَبْغَضْتُم الأملَ وغُرُورَهُ، خطبَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ آخِرَ خُطْبَةٍ خَطَبَها، فَقَالَ فيها: إنكم لَمْ تُخْلَقوا عَبَثًا، ولن تُتْرَكُوا سُدًى، وإنَّ لكمْ معادًا، يَنْزِلُ اللهُ فيه

---

(1) عيون الأخبار، لابن قتيبة: 3/ 125.

(2) الطور: 48.

(3) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية: 1/ 95.

(4) بدائع الفوائد: 3/ 215.

للفَصْلِ بينَ عِبَادِه، فَقَدْ خَابَ وخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمةِ اللهِ التِي وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ، وحُرِمَ جنةً عرضُها السمواتُ والأرضُ، ألا تَرَوْنَ أنَّكم في أَسْلَابِ الهالِكِينَ[1]، وسَيَرِثُها بعدكم الباقونَ، كذلكَ حتَّىٰ تُرَدَّ إلىٰ خَيْرِ الوارثينَ، و في كُلِّ يوم تُشَيِّعُون غاديًا و رائحًا إلىٰ اللهِ، قدْ قَضَىٰ نَحْبَه، وانقضَىٰ أَجَلُه، فَتُوَدِّعُونَه وتَدَعُونَه في صَدْعٍ من الأرضِ، غير مُوَسَّدٍ ولا مُمَهَّدٍ، قدْ خَلَعَ الأسبابَ، وفارقَ الأحبابَ، وسَكَنَ الترابَ، وَوَاجَهَ الحسابَ، غَنِيًّا عمَّا خَلَّفَ، فقيرًا إلىٰ ما أسلف؛ فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ قبلَ نزولِ الموتِ وانقضاءِ مَوَاقِيتِه، وإنِّي لَأَقُولُ لكمْ هذهِ المَقَالةَ، وما أعلمُ عندَ أحدٍ منَ الذنوبِ أكثرَ ممَّا أعلمُ عِنْدِي، ولكنْ أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، ثمَّ رَفَعَ طَرفَ رِدَائِه وبَكَىٰ، حتَّىٰ شَهِقَ، ثمَّ نَزَل؛ فما عادَ إلىٰ المِنْبَرِ بعدها حتَّىٰ ماتَ رحمةُ اللهِ عَلَيْه»[2].

فَيَقِينُ المرأةِ بِسُرْعةِ زوالِ الدنيا وانتقالِها إلىٰ الدارِ الآخرةِ؛ يُهَوِّنُ عَلَيْها ابتلاءَها، وسَيَرِدُ قريبًا مزيدٌ مِنْ بيانٍ لسرعة انقضاء الدنيا، وفواتِ نعيمِها.

---

(1) أسلاب: جمع سَلَب، والسَّلَبُ: ما يُسْلَبُ من الْمَقْتُول من مركب وثياب وسلاح، وَمَا مَعَه علىٰ الدَّابَّة من مَاله فِي حقيبته أَو فِي وَسطه، انظر: عمدة القاري، لبدر الدين العيني 14/ 296.

ومعنىٰ العبارة، أن ما أنتم فيه من نعيم إنما كان لمن هلك قبلكم، وأنتم أخذتموه بعد هلاكهم وموتهم، فكأن الموت قتلهم، وأنتم أخذتم سَلَبَهُم، وسيكون حالكم كحالهم، سيقتلكم الموت، وسيأخذ سَلَبَكُم مَن بعدكم، والله أعلم.

(2) لطائف المعارف، لابن رجب: 1/ 149.

العزاءُ بأخبارِ أهلِ البلاء

ثمَّ لِتَتَعزَّ المسلمةُ الأيِّمُ المبتلاةُ بِقصَصِ أهلِ البلاءِ في دارِ الدنيا، فَمَنْ نظرتْ في مصائبِ الخلقِ وتَلَوُّنِّها؛ هانتْ عليها مصيبتُها، وعَلِمَتْ أنَّ ما هي فيه، هو عينُ العافيةِ.

العزاءُ بامرأةٍ فُجِعَتْ بِفَقْد زوجِها وَوَلَدَيْهَا

* ذكرَ ابنُ الجَوْزيِّ -رحمه الله- أنَّه قيلَ لامرأةٍ حَسَنَةٍ صَبِيحَةٍ: «ما هذا الحُسْنُ، وهذهِ النَّضَارةُ؟! وما ذاكَ إلا مِنْ قِلَّةِ الحُزْنِ؛ فقالتْ: واللهِ إنِّي لَيَذْبَحُنِي الحزنُ، ما يَشْرُكُنِي فيهِ أحدٌ، ثمَّ قالتْ: ذَبَحَ زوجي شاةً مُضَحِّيًا، ولِي صَبِيَّانِ يلعبانِ، فقالَ أكبرُهُما للأصغرِ: أُريكَ كيف صنعَ أبي بالشاةِ؟ فَعَلَّقَهُ، فَذَبَحَهُ، فما شَعَرْنَا بهِ إلا مُتَشَحِّطًا بِدَمِه، فَلمَّا اسْتَعْلَتِ الضَّجَّةُ؛ هَرَبَ الغلامُ ناحيةَ الجَبَلِ، فَرَهَقَهُ ذِئْبٌ فَأَكَلَهُ، ونَحْنُ لا نعلمُ، واتَّبَعَهُ أبوهُ، يَطْلُبُهُ فماتَ عَطَشًا؛ فَأَفْرَدَنِي الدَّهْرُ»[1].

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 531.

العزاءُ بِعَبْسِيٍّ ذاقَ مُرَّ البلاءِ

ومما يَتَعَزَّىٰ بِهِ أهلُ البَلَاءِ مَا ذَكَرَ أَهْلُ السِّيَرِ: «أنَّ خليفةَ المُسلمينَ الوليدَ بْنَ عبدِ المَلِكِ دَعَا عُرْوَةَ بنَ الزُّبَيْرِ لزيارتِه في دمشقَ؛ فَلَبَّىٰ دعوتَه، وصَحِبَ معهُ أكبرَ بَنِيهِ، وَحَدَثَ في زيارتِه أنَّ ابنَ عُرْوةَ دخلَ إِصْطَبْلَ الوليدِ؛ لِيَتَفَرَّجَ علىٰ نَجائِبِ الخُيولِ، فَرَمَحَتْهُ دابةٌ رَمْحَةً قاضيةً؛ أَوْدَتْ بحياتِهِ، ولمْ يَكَدِ الأبُّ المَفْجُوعُ يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرَابِ قَبْرِ وَلَدِهِ حتَّىٰ أصابَ إِحْدَىٰ قَدَمَيْهِ الأَكِلَةُ[1]، فَأَجْمَعَ الأَطِبَّاءُ علىٰ أنَّه لا مَنْدُوحَةَ[2] مِنْ بَتْرِ ساقِ عُرْوَةَ، قَبْلَ أنْ يَسْرِيَ الدَّاءُ في جَسَدِهِ كُلِّهِ؛ فَيَقْتُلَهُ. ولَمَّا حضرَ الجَرَّاحُ لِبَتْرِ السَّاقِ، وأَحْضَرَ معهُ مَبَاضِعَهُ[3] لِيَشُقَّ اللَّحْمَ، ومَنَاشِرَهُ لِنَشْرِ العَظْمِ، قالَ الطبيبُ لِعروةَ: أَرَىٰ أنْ نَسقِيَكَ جُرْعَةَ مُسْكِرٍ؛ كَي لا تشعرَ بالآلامِ المُبَرِّحَةِ؛ فقالَ عُرْوَةُ: هَيْهَاتَ، لا أَسْتَعِينُ بِحَرامٍ عَلَىٰ ما أَرْجُوهُ مِنَ العافيةِ، فقالَ: إِذَنْ نَسْقِيَكَ المُخَدِّرَ، فقالَ: ما أُحِبُّ أنْ أُسْلَبَ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِي دُوْنَ أنْ أَشْعُرَ بأَلَمِهِ، وأَحْتَسِبَ ذلكَ عندَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، ولَمَّا جِيءَ بِالْمُمْسِكِينَ، قالَ عروةُ: رُدُّوهُمْ، لا حاجةَ لي بِهِمْ، إنِّي لَأَرْجُو أنْ أَكْفِيَكُمْ ذلكَ بِالذِّكْرِ والتَّسْبِيحِ، ثمَّ

---

(1) الْأَكِلَةُ: داءٌ فِي العُضْوِ، يَأْتَكِلُ مِنْه مِنَ الحِكَّةُ، وَهُوَ كالجُذَامِ، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 28/ 12، والاستذكار، لابن عبد البر: 5/ 421.

(2) مَنْدُوحَةٌ: سَعَةٌ، والنَّدْحُ: السَّعَةُ والفُسْحَةُ، تَقول: إِنَّك لَفي نَدحَةٍ من الأمْرِ ومَنْدوحَةٍ مِنْهُ، أيْ في سعة منه، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 4/ 245.

(3) مَبَاضِعُ: جَمْعُ مِبْضَعٍ، والمِبْضَعُ: المِشْرَطُ، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 1/ 60.

أَقْبَلَ الطبيبُ، فقطَعَ اللَّحْمَ بِالْمِبْضَعِ، ولَمَّا بلغَ العَظْمَ، وطَفِقَ يَنْشُرُ، وعُرْوةُ يقولُ: لا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، حتَّىٰ بُتِرَتِ الساقُ، ثمَّ جِيءَ بالزَّيْتِ المَغْلِيِّ، وغُمِسَتْ بِهِ ساقُ عُرْوةَ؛ لإيقافِ تَدَفُّقِ الدَّمِ؛ فَأُغْمِيَ علىٰ عروةَ إِغْماءَةً طويلةً، فَاتَهُ فيها وِرْدُهُ من قراءَةِ القرآنِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ منذُ صَدْرِ شَبَابِهِ، فلمَّا أَفَاقَ، دَعا بِقَدَمِهِ المَبْتُورةِ، فَجعلَ يُقَلِّبُهَا، ويقولُ: أَمَا والذِي حَمَلَنِي عَلَيْكِ فِي عَتَمَاتِ الليلِ إِلَىٰ المساجدِ، إِنَّه لَيَعْلَمُ أَنَّنِي ما مَشَيْتُ بكِ فِي حَرَامٍ قَطُّ.

ثمَّ تَمَثَّلَ بِأَبْيَاتٍ لِأَوْسِ بنِ مَعْنٍ، قالَ فِيها:

لَعَمْــرُكَ ما أَهْـوَيْتُ كَـفِّـي لِـرِيبَةٍ *** ولا حَمَلَتْنِـي نَحْـوَ فَـاحِشَـةٍ رِجْـلِي

ولا قَـادَنِي سَمْعِـي ولا بَصَـرِي لَهَا *** ولا دَلَّـنِي رَأْيِـي عـليهـا ولا عَقْلِـي

وأَعْلَـمُ أَنِّـي لَـمْ تُصِبْنِـي مصيبـةٌ *** مِنَ الدَّهْرِ إلا قَـدْ أَصـابَتْ فَتًىٰ قَبْلِي

فَشَقَّ عَلَىٰ الوليدِ بنِ عبدِ المَلِكِ ما نَزَلَ بضيفِهِ، وجَعَلَ يَحْتَالُ لِتَعْزِيَتِه وتَصْبِيرِهِ علىٰ مَا أَصَابَه، وَوَافَقَ ذلكَ نزولَ جماعةٍ مِنْ بَنِي (عَبْسٍ) فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرُ البَصَرِ، فَسَأَلَه الوليدُ عنْ سَبَبِ كَفِّ بَصَرِهِ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، لمْ يَكُنْ في عَبْسٍ رجلٌ أَوْفَرَ مِنِّي مالًا، ولا أكثرَ أهلًا ولا ولدًا، فَنَزَلْتُ مَعَ مالِي وعِيالِي في بَطْنِ وادٍ مِنْ منازلِ قَوْمِي، فَطَرَقَنَا سَيْلٌ، لمْ نَرَ مِثْلَهُ قَطُّ؛ فَذَهبَ السيلُ بما كانَ لِي مِنْ مالٍ، وأهلٍ، وولدٍ، ولمْ يتركْ لِي غيرَ بَعِيرٍ واحدٍ، وطِفْلٍ صغيرٍ، وكانَ البعيرُ صَعْبًا؛ فَنَدَّ[1] مِنِّي؛ فَتَرَكْتُ الصَّبِيَّ علَىٰ الأرضِ، ولَحِقْتُ بالبعيرِ، فَلَمْ أُجَاوِزْ مكانِي قليلًا حتَّىٰ سمعتُ صيحةَ الطفلِ؛ فالْتَفَتُّ، فإذا رأْسُهُ في فَمِ الذِّئْبِ، وهوَ يأكلُهُ؛ فَبَادَرْتُ إليهِ، غيرَ أَنِّي لمْ أستطِعْ إنقاذَهُ؛ إِذْ كانَ قدْ أَتَىٰ عليهِ، فَلَحِقْتُ بالبعيرِ، فلمَّا دَنَوْتُ منهُ، رَمَانِي بِرَجْلِهِ علَىٰ وَجْهِي رَمْيَةً حَطَّمَتْ جَبِينِي، وأَذْهَبَتْ بَصَرِي؛

(1) نَدَّ البعيرُ: إذا نَفَرَ وَشَرَدَ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 14/ 51.

فَوَجَدْتُ نَفْسِي قدْ غَدَوْتُ فِي لَيْلَةٍ واحدةٍ مِنْ غَيْرِ أَهْلٍ ولَا ولدٍ ولا مالٍ ولا بَصَرٍ... فقالَ الوليدُ لِحَاجِبِهِ[1]: انْطَلِقْ بهذا الرَّجُلِ إلىٰ ضِيْفِنَا عروةَ، ولْيَقُصَّ عليهِ قِصَّتَهُ؛ لِيَعْلَمَ أنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هوَ أعظمُ مِنْهُ بلاء. ولمَّا حُمِلَ عروةُ إلىٰ المدينةِ، وأُدْخِلَ علىٰ أَهْلِهِ، بادَرَهُمْ قائِلًا: لا يَهُولَنَّكُم[2] ما تَرَوْنَ، ثُمَّ قالَ: اللهمَّ إنَّه كانَ لِي أطرافٌ أربعةٌ، فَأَخَذْتَ واحدًا، وأَبْقَيْتَ ثلاثةً؛ فلكَ الحمدُ، وكانَ لي بنونَ أربعةٌ، فأخذتَ واحدًا، وأبقيتَ لي ثلاثةً؛ فلكَ الحمدُ، وايمُ اللهِ، لَئِنْ أَخَذْتَ؛ لَقَدْ أَبْقَيْتَ، ولَئِنْ ابْتَلَيْتَ؛ طَالَمَا عافَيْتَ»[3].

العزاءُ بِأَبِي قِلابَة صاحِبِ ابنِ عَبَّاسٍ

روىٰ ابنُ حِبَّان، عنِ الأوزاعيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ، قالَ: «خرجْتُ إلىٰ ساحلِ البحرِ مُرابِطًا، وكانَ رِباطُنَا يومئذٍ عريشَ مِصْرَ، قالَ: فلمَّا انتهيتُ إلىٰ الساحلِ، فإذا أنا بِبَطِيحةٍ[4]، وفِي البطيحةِ خيمةٌ فِيهَا رجلٌ، قدْ ذهبتْ يداهُ ورِجْلاهُ، وثَقُلَ سمعُهُ وبصرُهُ، وما لَهُ مِنْ جارحةٍ تَنْفَعُهُ إلا لسانُهُ، وهو يقولُ: اللهمَّ أَوْزِعْنِي أنْ أَحْمدَكَ حَمْدًا أُكَافِئُ بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ التِي أنعمتَ بِهَا عليَّ، وفَضَّلْتَنِي علىٰ كثيرٍ مِمَّنْ خلقتَ تفضيلًا، قالَ الأوزاعِيُّ: قال: عبدُ اللهِ، قلتُ: واللهِ لآتِيَنَ هذا الرجلَ، ولَأَسْأَلَنَّهُ أَنَّىٰ لهُ هذا الكلامُ؟!

---

(1) الحَاجِبُ: البَوَّابُ، فَهُوَ يَحْجِبُ مَنْ يَشَاءُ عَنِ الدُّخُولِ عَلَىٰ المُلُوكِ والأُمَراءِ، وَيَأْذَنُ لِمَنْ يَشَاءُ، انظر: القاموس الفقهي، لسعدي حبيب: 1/ 76.

(2) يَهُولُ: يُفْزِعُ، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 3/ 2376.

(3) انظر: صور من حياة التابعين، للدكتور عبد الرحمن الباشا: 1/ 44-47.

(4) البَطِيحَةُ: الأَرْضُ المُنْبَسِطَةُ، انظر: جمهرة اللغة، لابن دُرَيْدٍ: 1/ 280.

فَهْمٌ؟ أَمْ عِلْمٌ؟ أَمْ إلهامٌ أُلْهِمَ؟! فَأَتَيْتُ الرجلَ، فَسَلَّمْتُ عليهِ، فقلتُ: سمعتُكَ وأنتَ تقولُ: اللهمَّ أَوْزِعْنِي أنْ أَحْمدَكَ حَمْدًا أُكَافِئُ بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ التِي أنعمتَ بها عليَّ، وفَضَّلْتَنِي علىٰ كثيرٍ مِمَّنْ خلقتَ تفضيلًا، فأيُّ نِعْمةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ عليكَ تحمدُهُ عليها؟! وأيُّ فَضِيلَةٍ تَفَضَّلَ بها عليكَ؛ تَشْكُرُهُ عليها؟! قالَ: وما تَرَىٰ ما صَنَعَ رَبِّي؟ واللهِ لوْ أَرْسَلَ السماءَ عليَّ نارًا؛ فَأَحْرَقَتْنِي، وأَمَرَ الجِبَالَ؛ فَدَمَّرَتْنِي، وأَمَرَ البِحَارَ؛ فَأَغْرَقَتْنِي، وأَمَرَ الأرضَ؛ فَبَلَعَتْنِي؛ ما ازْدَدْتُ لِرَبِّي إلا شُكْرًا؛ لِمَا أَنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ لِسَانِي هَذا، ولَكِنْ يا عبدَ اللهِ، إذْ أَتَيْتَنِي؛ لِي إليكَ حاجةٌ، قدْ تراني علَىٰ أيِّ حالةٍ أَنَا؟ أَنا لستُ أَقْدِرُ لِنَفْسِي علىٰ ضرٍّ ولا نَفْعٍ، ولقدْ كانَ معِي بُنَيٌّ لي يَتَعاهَدُنِي في وَقْتِ صلاتِي؛ فَيُوَضِّينِي، وإذا جُعْتُ؛ أَطْعَمَنِي، وإذا عَطِشْتُ؛ سَقَانِي، ولقدْ فَقَدْتُهُ منذُ ثلاثةِ أيامٍ، فَتَحَسَّسْه لي؛ رَحِمَكَ اللهُ؛ فقلتُ: واللهِ ما مَشَىٰ خَلْقٌ في حاجةِ خَلْقٍ كانَ أعظمَ عندَ اللهِ -تَعالَىٰ- أجرًا مِمَّنْ يمشِي في حاجةِ مثلِكَ، فَمَضَيْتُ في طَلَبِ الغُلَامِ، فما مَضَيْتُ غيرَ بعيدٍ، حتَّىٰ صِرْتُ بينَ كُثْبَانٍ منَ الرَّمْلِ، فإذا أنا بالغلامِ قَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ، وأَكَلَ لَحْمَهُ؛ فَاسْتَرْجَعْتُ، وقلتُ: أَنَّىٰ لِي وَجْهٌ رَقِيقٌ آتِي به الرَّجُلَ، فبينما أنا مُقْبِلٌ نحوَه، إذ خَطَرَ علَىٰ قَلْبِي ذِكْرُ أَيُّوبَ النبي ﷺ، فلمَّا أَتَيْتُهُ، سَلَّمْتُ عليهِ؛ فرَدَّ عَلَيَّ السلامَ، فقالَ: أَلَسْتَ بِصاحِبِي، قلتُ: بَلَىٰ، قال: ما فعلتَ في حاجَتِي؟ فقلتُ: أَنْتَ أكرمُ علىٰ اللهِ -تَعالَىٰ-، أَمْ أيوبُ النبيُّ ﷺ؟ قال: بل أيوبُ النبيُّ ﷺ، قلتُ: هلْ عَلِمْتَ ما صنعَ بِهِ ربُّه؟ أليسَ قدِ ابْتَلاهُ بمالِهِ وآلِهِ وولَدِهِ؟ قال: بَلَىٰ، قلتُ: فكيفَ وَجَدَهُ؟ قالَ: وَجَدَهُ صابرًا شاكرًا حامدًا، قلتُ: لَمْ يَرْضَ مِنْهُ ذلكَ حتَّىٰ أُوْحِشَ من أَقْرِبائِهِ وأَحِبَّائِهِ، قالَ: نعم، قلتُ: فكيفَ وَجَدَهُ ربُّهُ؟ قال: وَجَدَهُ صابرًا شاكرًا حامدًا، قلتُ: فَلَمْ

يَرْضَ مِنْهُ بِذَلِكَ حتَّىٰ صَيَّرَهُ عَرَضًا[1] لِمَارِّ الطَّرِيقِ، هلْ عَلِمْتَ؟ قالَ: نَعم، قلتُ: فكيفَ وَجَدَهُ ربُّهُ؟ قال: صابرًا شاكرًا حامدًا. فَقَالَ: أَوْجِزْ؛ رَحِمَكَ اللهُ، قلتُ: لَهُ: إنَّ الغلامَ الذِي أَرْسَلْتَنِي في طَلَبِه وَجَدْتُه بين كُثْبَانِ الرَّمْلِ، وقدْ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ، فأكلَ لَحْمَهُ؛ فأَعْظَمَ اللهُ لَكَ الأَجْرَ، وأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ، فَقَال المُبْتَلَىٰ: الحمدُ للهِ الذِي لمْ يَخْلُقْ مِنْ ذُرِّيَّتِي خَلْقًا يَعْصِيهِ؛ فيعذبهُ بالنارِ، ثمَّ اسْتَرْجَعَ، وشَهِقَ شَهْقَةً؛ فماتَ، فقلتُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ؛ عَظُمَتْ مُصِيبَتِي؛ رَجُلٌ مثلُ هذا إنْ تَرَكْتُهُ؛ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ، وإنْ قَعَدْتُ لمْ أَقْدِرْ علَىٰ ضُرٍّ ولا نَفْعٍ، فَسَجَّيْتُهُ[2] بِشَمْلَةٍ[3] كانتْ عَلَيْهِ، وقَعَدْتُ عندَ رَأْسِهِ باكيًا، فبينما أنا قاعدٌ إذْ تهجَّمَ[4] عَلَيَّ أربعةُ رجالٍ، فقالوا: يا عبدَ اللهِ ما حالُكَ؟ وما قِصَّتُكَ؟ فَقَصَصْتُ عليهمْ قِصَّتِي وقِصَّتَه، فقالوا لِي: اكْشِفْ لنا عنْ وَجْهِهِ، فَعَسَىٰ أنْ نَعْرِفَهُ؛ فَكَشَفْتُ عن وجهِهِ فانْكَبَّ القومُ عليهِ يُقَبِّلُونَ عِيْنَيْهِ مرةً، ويَدَيْهِ أُخْرَىٰ، ويقولون: بأبِي عينٌ طَالَمَا غَضَّتْ عن محارمِ اللهِ ﷻ، وبأبِي جِسْمٌ طالمَا كنتَ ساجدًا، والناسُ نِيَامٌ، فقلتُ: مَنْ هذا؛ يَرْحَمُكُمُ اللهُ؟ فقالوا: هذا أبو قِلَابَةَ الجَرْمِيُّ، صاحبُ ابنِ عَبَّاسٍ، لقدْ كانَ شديدَ الحُبِّ للهِ -تعالَىٰ-، وللنبيِّ ﷺ؛ فَغَسَّلْنَاهُ، وكَفَّنَّاهُ بأثوابٍ كانَتْ مَعَنَا، وَصَلَّيْنَا عليهِ، ودَفَنَّاهُ، فانْصَرَفَ القومُ، وانصرفْتُ إلىٰ رِبَاطِي، فلمَّا أنْ جَنَّ[5] عَلَيَّ الليلُ، وضَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُهُ فيما يَرَىٰ النائمُ في رَوْضَةٍ من

---

(1) أي: يَعْتَرِضُهُ النَّاسُ فِي طَرِيقِهِمْ، وَيُؤْذُونَهُ بِكَلامِهِمْ.

(2) سَجَّيْتُهُ: غَطَّيْتُهُ، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 2/ 1038.

(3) الشَّمْلَةُ: كِسَاءٌ يَتَغَطَّىٰ بِهِ، ويُتَلَفَّفُ فِيهِ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 2/ 501.

(4) المقصود بكلمة (تَهَجَّمَ) هنا: أنهم نزلوا عليه بغتة، من غير سابق موعد.

(5) جَنَّ اللَّيْلُ: أَظْلَمَ، انظر: غريب القرآن، لابن قتيبة: 1/ 156.

رِياضِ الجنةِ، وعليه حُلَّتانِ من حُلَلِ الجنةِ، وهو يَتْلُو الوَحْيَ: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [1]، فقلتُ: أَلَسْتَ بِصاحِبِي؟! قال: بَلَىٰ، قلتُ: أَنَّىٰ لكَ هذا؟! قال: إنَّ للهِ ﷻ دَرَجَاتٍ لا تُنالُ إلا بالصَّبْرِ عِنْدَ البَلَاءِ، والشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، مَعَ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ في السِّرِّ والعَلَانيةِ» [2].

أَلَا، فَاصْبِرْ وتَصَبَّرْ للهِ -تَعَالَىٰ-، وَصَابِرْ نَفْسَكَ عَلَىٰ مَا بِكَ مِنْ مَرَضٍ وَبَلَاءٍ، والزَمْ ثَغْرَ الصَّبْرِ مُرَابِطًا عليه؛ واهْنَأْ بِالفَلَاحِ، وبِأَجْرٍ تُوَفَّاهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [3].

(1) الرعد: 24.

(2) الثقات، لابن حبان: 5/ 3.

(3) آل عمران: 200.

الفَصْلُ الثَّانِي

الرِّضا بِقَضاءِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الزَّوْجِ

لِتَعْلَمِ المسلمةُ، وكلُّ المسلمينَ أنَّ اللهَ -تعالىٰ- بِيَدَهِ مقاليدُ السماواتِ والأرضِ، يُدَبِّرُ أَمْرَ الخلائِقِ بِحِكْمَةٍ بالغةٍ، وقُوَّةٍ غَالِبَةٍ، وقُدْرَةٍ نافذةٍ، كما أخبر عن نفسه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [1]، وأنَّه لا يكونُ في مُلْكِهِ ومَمْلَكَتِهِ إلا ما يريدُ، وأنَّ مَنْ رَزَق مسلمةً زوجًا هوَ مَنْ حَجَبَهُ عن صاحِبَتِها، لِأَمْرٍ أَرَادَهُ، وقضاءٍ قضاهُ، وكلُّ قضائِهِ خيرٌ، وكلُّ أفعالِهِ مصلحةٌ، وهوَ أرحمُ بالعبدِ منْ نَفْسِهِ وأهلِهِ والناسِ أجمعين: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [2]، وإنَّما يُخفِي اللهُ -تعالىٰ- سِرَّ قَضائِهِ عن عبادِهِ امْتِحَانًا وابتلاءً، فمن رضِيَتْ فلها من ربِّها الرِّضا، ومَنْ سَخِطَتْ قضاءَ اللهِ فَلَها مِنْهُ السُّخْطُ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[3]، فمنْ

---

(1) يونس: 3.

(2) الحج: 65.

(3) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الصبر علىٰ البلاء: 4/ 179، وحَسَّنَهُ الألباني.

رَضِيَتْ باللهِ -تعالىٰ- رَبًّا؛ رَضِيَتْ بِكُلِّ قضاءٍ قَضَاهُ، وبِكُلِّ تَدْبِيرٍ يَصْدرُ عنْهُ، واطْمَأَنَّتْ إلىٰ ذلكَ كُلَّ الاطْمِئْنَانِ، قال ابن القَيِّم: «والرِّضا بالله ربًّا يَتَضَمَّنُ الرِّضَا بِتَدْبِيرِهِ لِعَبْدِهِ، وَيَتَضَمَّنُ إِفْرَادَهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ، وَالثِّقَةَ بِهِ، وَالِاعْتِمَادَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِكُلِّ مَا يَفْعَلُ بِهِ. وَأَمَّا الرِّضَا بِنَبِيِّهِ رَسُولًا: فَيَتَضَمَّنُ كَمَالَ الِانْقِيَادِ لَهُ، وَالتَّسْلِيمَ الْمُطْلَقَ إِلَيْهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَلَا يَتَلَقَّىٰ الْهُدَىٰ إِلَّا مِنْ مَوَاقِعِ كَلِمَاتِهِ، وَلَا يُحَاكِمُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَلَا يَرْضَىٰ بِحُكْمِ غَيْرِهِ أَلْبَتَّةَ»[1].

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 171.

لا تَتَمَنَّيَنَّ مُسْلِمةٌ حَظَّ أُخْتِها

لا ينبغِي للمسلمة الأيِّمِ أن تتمنَىٰ ما لمْ يشأِ اللهُ -تعالىٰ-، أو ترغبُ في غيرِ قضائِه؛ فتتمنَّىٰ مَنْ ماتَ زوجُها نصيبَ من لمْ يَمُتْ زوجُها، ولا تتمنَّىٰ مَنْ طُلِّقتْ مِنْ زوجِها نصيبَ مَنْ لمْ تُطَلَّقْ، ولا تتمنَّىٰ مَنْ حِيلَ بينها وبينَ الزواجِ لِقِلَّةِ حظٍ من الجمالِ ممَّا رُزِقَتْه غيرُها مِنَ المسلماتِ، نصيبهُنَّ من الجمالِ الظاهرِ؛ فَتُفْنِي أيامَهَا مُتَمَنِّيَةً ما ليسَ بكائنٍ، وفي هذا يقول -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

قالَ أبو السُّعُود: «فالمعنَىٰ لا تَتَمَنَّوْا ما أعطاهُ اللهُ -تعالىٰ- بعضَكُمْ من الأمورِ الدُّنْيَوِيةِ: كالجاهِ، والمالِ، وغيرِ ذلكَ مِمَّا يجرِي فيه التنافُسُ دُونكم؛ فإنَّ ذلكَ قِسْمَةٌ منَ اللهِ -تعالىٰ-، صادرةٌ عنْ تدبيرٍ لائقٍ بأحوالِ العبادِ، مُتَرَتِّبٍ علىٰ الإحاطةِ بجلائلِ شُئُونِهِمْ ودقائِقِهَا؛ فَعَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ مِنَ المُفَضَّلِ عليهم أنْ يرضَىٰ بما قَسَمَ اللهُ لَهُ، ولا يَتَمَنَّىٰ حَظَّ المُفَضَّلِ، ولا يَحْسُدُه عليهِ؛ لِمَا أَنَّه مُعارَضةٌ لِحُكْمِ القَدَرِ، المُؤَسَّسِ علَىٰ الحِكَمِ البالغةِ»[2].

---

(1) النساء: 32.

(2) تفسير أبي السعود المسمىٰ: إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ، سورة النساء: 2/ 171.

اللهُ المُصَوِّرُ، لا سِواهُ

وإنَّما يُسَهِّلُ علىٰ المسلمةِ الرضا بحظِّها من الجمالِ يقينها بقولِ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

* قال ابن كثير: «﴿الْمُصَوِّرُ﴾، أَيْ: الذِي يُنْفِذُ ما يريدُ إيجادَهُ علَىٰ الصِّفَةِ التِي يُرِيدُها»[2].

فهو -سبحانه- لا غيره مَنْ يُصَوِّرُ الخلائقَ كُلَّها، يصوِّرُها كما يشاءُ هو، لا سِواهُ، يصوِّرُ سَمْعَها وحِدَّته، وبَصَرَها وآلَتَه، يصوِّرُ سَوادَها وزُرْقَتَها، يصوِّرُ طولَهَا وقِصَرَها، يُصَوِّرُ نَحافَتَها وبَدَانَتَها، يصوِّرُ جِلْدَها رِقَّةً وخُشونةً، يصوِّرُ لونَها بياضًا وسوادًا، سُمْرَةً وشُقْرةً، يُصَوِّرُ أسنانَها وانتظامَها، يصوِّر أَنْفَها: دِقَّتَه، وطولَه، وقِصَرَه، يصوِّرُ شَعْرَها: جُعودةً وسَباطَةً، وطُولًا وقِصَرًا، يصوِّرُها كُلَّهَا جَمالًا وقُبْحًا...، يصوِّرُها كيفَ يشاءُ، وهيَ بعدُ في الرَّحِم، قبل أن تَسْمَعَ وتَرَىٰ، وقبلَ أن تَرَىٰ الدُّنيا بِعَيْنَيْها، بِعِزِّ وحِكْمة، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3]، فهو -جلَّ في عُلَاه- عزيزٌ لا يُغَالَبُ، ولا يُنَازَعُ، ولا يُراجَعُ، حَكِيمٌ في أَمْرِهِ، حَكِيمٌ في خَلْقِه، حَكِيمٌ في تصويرِه، فَأَيُّ اختيارٍ لِلْأَمَةِ بعد ذلك؟!

---

(1) آل عمران: 6.

(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الحشر: 8/ 109.

(3) آل عمران: 6.

رَوَىٰ مسلمٌ، أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فَيَقْضِيٰ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِيٰ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَىٰ مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ»[1].

وهو -سبحانه- أحقُّ بِنَفْسِ المسلمةِ مِنْ نفسِها، وهو مالكُها الحقيقيُّ، لا مالكَ لها -علىٰ الحقيقة- سواه، وهذا معنَىٰ قولِه -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2]، فهي للهِ ملكًا وتَصَرُّفًا، ولله خَلْقًا وتَصْوِيرًا، ثم له -سبحانه- الرَّجْعَةُ والمَصِيرُ، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[3]، وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ؛ فليسَ لِلْأَمَة المسلمة أنْ تسألَ ما ليسَ لَهَا، ولا أن تَسْتَفْتِحَ علىٰ سَيِّدِها ما ليس من اخْتِصاصِها، ولا أنْ تَقْتَرِحَ علىٰ الحكيمِ الخبيرِ حُكْمًا وإرادَةً. بل حَقِيقٌ بِمَنْ عَرَفَتْ ربَّها أنْ تُسلِّم للمالِكِ في مُلْكِه، وللصانِع في صَنْعَتِهِ، وللخالِقِ في خَلْقِه، فهيَ ونَفْسُها وصورَتُها ليستْ إلا من اللهِ وحدَه، ولله وحدَه.

---

(1) رواه مسلم، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه: 4/ 2037.

(2) البقرة: 156.

(3) الأعراف: 54.

صُوْرَةُ القَلْبِ أَوْلَى أَنْ تُجَمَّل

وكما أنَّ اللهَ ﷻ صَوَّرَ الأبدانَ فَتَعَدَدَتْ وتَنَوَّعَتْ وتَبَايَنَتْ، نَوَّعَ كذلكَ في الأخلاقِ والطِّباعِ؛ فَتَعَدَّدَتْ صُوَرُ الأخلاقِ والطِّباعِ وتَبَايَنَتْ؛ فَعَلَىٰ المسلمةِ أنْ تَعْلَمَ أن للمسلمة صورتين ثِنْتَيْنِ: صورةٍ ظاهرةٍ، وصورةٍ باطنةٍ، أمَّا الصورةُ الظاهرةُ، فهيَ ظاهرُ الخَلْقِ التي صوَّر اللهُ الإنسانَ عليها، وهذهِ الصورةُ ليسَ لِأَحَدٍ عليها سلطانٌ إلا مُصَوِّرُها وبارِئها -سبحانه-، ولا يَتَرَتَّبُ عليها -مِنْ حَيْثُ هيَ- ثوابٌ ولا عِقَابٌ؛ إذِ العبدُ فيها مَقْهورٌ مَرْبوبٌ، وأمَّا الصورةُ الباطنةُ فهيَ ما سَكَنَ هذا البدنَ مِنْ نَفْسٍ ورُوحٍ وقَلْبٍ، إذِ البدنُ وصورتُه مَطِيةٌ لها، وفِيهَا يَتفاوتُ الخَلْقُ تَفَاوُتًا عظيمًا: مِنْ بَرٍّ وفاجرٍ، ومسلمٍ وكافرٍ، بل إنَّ التفاوتَ في المنزلةِ الواحدةِ كما التفاوتُ بين السماءِ والأرضِ، فتجد الأُخْتَيْنِ التَّوْأَمَيْنِ المُتماثِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ خَرَجَتا في ساعةٍ واحدةٍ مِنْ رحمٍ واحدةٍ علىٰ صورةٍ واحدة -حتَّىٰ لا تكادُ أمُّهما تُمَيِّزُ بين صورَتَيْهِما- يكونُ ما بينهما مِنَ التَّفَاوتِ والتَّفَاضُلِ عندَ اللهِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، وتَرَىٰ العابِدَيْنِ يُصَلِّيانِ مُتَلَاصِقَيْنِ في صَفٍّ واحدٍ، خَلْفَ إمامٍ واحدٍ، وعلَىٰ صِفَةٍ واحدةٍ، وإنَّ ما بينَهُما منَ التَّفَاوُتِ والتفاضُلِ عندَ اللهِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، وإنَّ الشَّهِيدَيْن لَيُسْتَشْهَدَانِ بِنَفْسِ القَذِيفَةِ، وإنَّ ما بينهما من التَّفَاوُتِ والتفاضُلِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، فعن أبي هريرة ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[1].

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله: 4/ 16.

فعلىٰ القلبِ والنفسِ يقعُ الأَمْرُ والتَّكْليفُ، وهيَ المَأْمُورةُ المَنْهِيَّة، وهيَ التِّي تُحاسَبُ، وتُنَعَّمُ وتُعَاقَبُ، فعَنْ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ». وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَىٰ صَدْرِهِ[1].

أمَّا صورة البدن فما أسرع أن تَبْلَىٰ وتتبَدَّل، تبليها وتبدلها الأيام، فانظري إلىٰ صورة الشَّيْخَةِ العجوز التي بَدَّلَتِ الأيامُ رِقَّتَها خشونةً، ونُعومَتَها جُعُودَةً، ونَضَارَتها يُبُوسَةً؛ ثم انظري إلىٰ صورةِ ميتةٍ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ؛ يَهُلْكِ تَبَدُّلُ حُسْنِها قُبْحًا، ورِيحِها نَتَانَةً، وحَرَكَتِها سُكونًا، ومَنْطِقِها خُرْسًا، وفي هذا يقـولُ -تعالىٰ-: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[2].

* قال ابن كثير: «لمَّا ذكرَ اللباسَ الحِسِّيَ نَبّه مُرْشِدًا إلىٰ اللباسِ المَعْنَوِيِّ، وهو الخُشُوعُ، والطاعةُ والتقوىٰ، وذَكَرَ أنَّه خيرٌ مِنْ هذا، وأنفعُ. قال عطاءُ الخُراساني في قولِه: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ يعني: زاد الآخرة»[3].

* وقال السعدي: «إنَّ لباسَ التقوىٰ يَسْتَمِرُّ معَ العبدِ، ولا يَبْلَىٰ ولا يَبِيدُ، وهو جَمَالُ القَلْبِ والرُّوحِ. وأمَّا اللباسُ الظاهريُّ، فَغَايَتُهُ أنْ يَسْتُرَ العَوْرةَ الظاهرةَ، فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقاتِ، أو يكونُ جَمَالًا للإنسانِ، وليسَ وراءَ ذلكَ مِنْه نَفْعٌ. وأيضًا، فَبِتَقْدِيرِ عَدَمِ هذا

---

(1) رواه مسلم، باب تحريم ظلم المسلم وخذله: 4/ 1986.

(2) الأعراف: 26.

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة البقرة: 1/ 408.

اللباسِ، تَنْكَشِفُ عورتُه الظاهرةُ، التي لا يضرُّه كشفُها، معَ الضرورةِ، وأما بتقديرِ عَدَمِ لباسِ التَّقْوَىٰ، فإنَّها تَنْكَشِفُ عورتُه الباطنةُ، وينالُ الخِزْيَ والفضيحةَ»[1].

(1) تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، سورة الأعراف: 1/ 285.

جَمَالُ الدِّينِ والخُلُق سِتْرٌ لِكُلِّ قَبِيحٍ

ما مِنْ حِلْيَةٍ تَتَحَلَّاها المسلمةُ خيرٌ لها من دِيْنٍ تَتجَمَّلُ به، وخُلُقٍ تتَزَيَّا بهِ، فإنَّ لباسَ الدينِ والخُلُقِ سِتْرٌ لكلِّ عيبٍ، وغطاءٌ لكلِّ قبحٍ، وهَلْ يَبْقَىٰ مع الدِّينِ والخُلُقِ عيبٌ؟!

عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: «لَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا ذَرٍّ فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ خَصْلَتَيْنِ هُمَا أَخَفُّ عَلَىٰ الظَّهْرِ وَأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ؟ قَالَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا تَجَمَّلَ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا»[1].

فعدَّ النبيُّ ﷺ حُسْنَ الخُلُقِ حِلْيةً وجَمَالًا، هما أَجْملُ مِنْ كلِّ جَمَالٍ، وأَحْلَىٰ مِنْ كلِّ حِلْيةٍ، وهذا مُشاهَدٌ مُجَرَّبٌ، فإنَّكِ ترين المسلمةَ قَدْ أُوْتِيَتْ حظًا عَظِيمًا مِنَ الجَمَالِ، وقَدْ فَقَدتْ دِيَنها وخُلُقَها، فَتَسْقُطُ مِنْ عَيْنِ اللهِ -تعالىٰ- ومِنْ عيونِ الناسِ، وتَرَيْنَ المسلمةَ قَدْ حُرِمَتْ جمالَ الصورةِ، لكَّنها عظيمةٌ عندَ اللهِ، عَظيمةٌ في أَعْيُنِ الخَلْقِ، لِمَا كساهَا اللهُ من حِلْيةِ الدِّينِ والخُلُقِ، ومِنْ أمثلةِ ذلكَ:

➢ لُقْمَانُ الحَكِيمُ وجمالُ دِينِهِ وخُلُقِه

لَقَدْ أُوتِيَ لُقْمانُ الحكيمُ -كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ-، الدِّينَ والخُلُقَ والحِكْمةَ، عَلَىٰ قُبْحِ خِلْقَتِهِ، فارتفعَ بدينِهِ وسما بِخُلُقِهِ إلىٰ منزلةٍ عظيمةٍ، حتَّىٰ ذُكِرَ اسمُه في كتابِ اللهِ، بل سُمِّيَتْ

---

(1) رواه أبو يعلىٰ في مسنده، مسند ثابت البناني: 6/ 53، والطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه أحمد: 7/ 140، وَحَسَّنَهُ الألباني.

سورةٌ عظيمةٌ من سُوَرِ القرآنِ الكريمِ باسمِه، حيثُ قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[1].

* ذَكَرَ ابنُ كَثِيرٍ: «عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: كانَ لُقْمانُ عَبْدًا حَبَشِيًا نَجَّارًا. قالَ الأَوْزَاعِيُّ -رحمه الله-: حدَّثَنِي عبدُ الرحمنِ بنُ حَرْمَلَةَ قالَ: جاءَ رجلٌ أسودُ إلىٰ سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ يَسْأَلُهُ، فقالَ لهُ سعيدُ بنُ المسيبِ: لا تَحْزَنْ مِنْ أجلِ أنكَ أسودُ، فإنَّه كانَ مِنْ أَخْيَرِ الناسِ ثلاثةٌ من السودانِ: بِلالٌ، ومِهْجَعٌ مَولَىٰ عمر بن الخَطَّابِ، ولُقْمانُ الحكيمُ، كانَ أَسْودَ نوبيًا[2] ذا مَشَافِرِ[3]»[4].

➢ الأَحْنَفُ بنُ قَيْسٍ وجَمَالُ حِلْمِه ودِيْنِه

وهذا الأَحْنَفُ بنُ قَيْسٍ عَلا بَنِي تَمِيمٍ وسَادَهُمْ، فَلَم يُنَازِعْهُ منهُمْ أَحَدٌ، مَعَ ما كانَ فيه من دَمَامَةِ المَنْظَرِ، وقُبْحِ الخِلْقَةِ. ذكرَ الذَّهَبِيُّ: في سِيَرِ أعلامِ النُّبَلَاءِ، «قال العجليُّ: الأَحْنَفُ بَصَرِيٌّ ثِقَةٌ، هو الأميرُ الكبيرُ العالِمُ النَّبِيلُ أبو بَحْرٍ التَمِيمِيِّ أحدُ مَنْ يُضْرَبُ بِحِلْمِهِ وسُؤْدُدِهِ المَثَلُ. اسْمُه ضَحَّاكٌ وقيل: صَخْرٌ، وشُهِرَ بالأَحْنَفِ لَحَنَفِ رَجْلَيْهِ، وهو العوجُ والمَيْلُ. كانَ سيِّدَ تَمِيمٍ، أسلمَ في حياةِ النبيِّ ﷺ وَوَفَدَ علَىٰ عُمَرَ. كانَ سَيِّدَ قَوْمِه،

---

(1) لقمان: 12.

(2) نسبة إلىٰ النوبة، والنوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر، وهم نصارىٰ أهل شدة في العيش، انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي: 5/ 309.

(3) المشافر: جمع مشفر، وهي شفة للبعير، ويقال للإنسان مشافر علىٰ الاستعارة، والمراد عظم شفتيه، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 419.

(4) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة لقمان: 6/ 333.

وكانَ أَعْورَ أَحْنَفَ، دَمِيمًا قَصيرًا[1]، حَبَسَه عمرُ سَنَةً يَخْتَبِرُه؛ فقال: هذا واللهِ السيِّدُ. قالَ عبدُ المَلِكِ بنِ عُمَيْرٍ: قَدِمَ علينا الأَحْنَفُ الكوفةَ، فما رأيْتُ صِفَةً تُذَمُّ إلا رأيتُها فِيهِ كانَ ضَئِيلًا، صَعْلَ الرَّأْسِ[2] مُتَراكِبَ الأسنانِ مائِلَ الذَّقْنِ، ناتِئَ الوَجْنَةِ، بَاخِقَ العَيْنِ[3]، خَفِيفَ العارِضَيْنِ[4]، أَحْنَفَ الرِّجْلَيْنِ.

* قال ابنُ المباركِ: قيلَ للأَحْنَفِ: بِمَ سَوَّدُوكَ؟ قال: لو عابَ الناسُ الماءَ لَمْ أَشْرَبْهُ.

وقيلَ: عاشَتْ بنُو تميمٍ بِحِلْمِ الأحنفِ أربعينَ سنةً وفيه قال الشاعر:

إذا الأبصارُ أَبْصَرَتِ ابنَ قَيْسٍ *** ظَلَلْنَ مَهابَةً مِنْهُ خُشُوعًا

وقال خالدُ بنُ صفوانَ: كانَ الأحنفُ يَفِرُّ مِنَ الشَّرَفِ، والشَّرَفُ يَتْبَعُهُ. وقيل للأحنفِ: إنَّكَ كبيرٌ، والصومُ يُضْعِفُكَ، قالَ: إنِّي أُعِدُّهُ لِسَفَرٍ طويلٍ. وقيلَ: كانتْ عامَّةُ صلاةِ الأحنفِ بالليلِ، وكانَ يَضَعُ أصبعهُ علَىٰ المصباحِ، ثمَّ يَقُولُ: حَسِّ[5]. ويقولُ: ما حَمَلَكَ يا أحنفُ علَىٰ أنْ صَنَعْتَ كذا يوم كذا.

---

(1) الدميم: القبيح، انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: 2/ 260.

(2) الصعل: صغر الرأس، انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: 3/ 286.

(3) البخق: أقبح ما يكون من العور، وهو انخساف العين بعد العور، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 10/ 13.

(4) العارضان: شقا الفم، وقيل: جانبا اللحية، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 7/ 180.

(5) حَسِّ: كلمة تقال عند التوجع، انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: 2/ 9.

وقِيلَ: إنَّ رُجَلًا خاصمَ الأحنفَ، وقال: لَئِنْ قُلْتَ واحدةً، لَتَسْمَعنَّ عَشرًا. فقال: لكنَّكَ إنْ قلتَ عشرًا؛ لمْ تَسْمعْ واحدةً. وقيلَ: إنَّ رَجُلًا قالَ للأحنفِ: بِمَ سُدْتَ؟ -وأراد أنْ يَعِيبَهُ- قال الأحنفُ: بِتَرْكِي ما لا يَعْنِينِي، كما عناكَ مِنْ أَمْرِي ما لا يَعْنِيكَ»[1].

عطاءُ بنُ أَبِي رَبَاحٍ، وجَمَالُ دِينِهِ وعِلْمِهِ

أما عطاءُ بنُ أَبِي رَبَاحٍ فَقَدْ وَرِثَ فُتْيَا مكةَ بعدَ ابنِ عَبَّاسٍ، فكانَ الملوكُ بينَ يَدَيْهِ كالصبيانِ علىٰ ما كانَ فيهِ منْ قُبْحِ ظاهرِ المَنْظَرِ، ذَكَر عبدُ الرحمنِ الباشا في صُوَرٍ منْ حياةِ التابعينَ في وَصْفِه: «كان عطاءُ بنُ أَبِي رباحٍ في صِغَرِهِ عبدًا مَمْلُوكًا لامرأةٍ منْ أهلِ مكةَ، ولمَّا رأتِ السيدةُ المَكِّيَّةُ أنَّ غُلامَها باعَ نَفْسَهُ للهِ وَوَقَفَ حياتَه علىٰ طَلَبِ العِلْمِ تَخَلَّتْ عنْ حَقِّهَا فيهِ، فَأَعْتَقَتْ رَقَبَتَهُ للهِ ﷻ... وقد كان شيخًا حَبَشِيًا، أَسْوَدَ البَشْرَةِ، مُفَلْفَلَ الشَّعْرِ، أَفْطَسَ الأَنْفِ[2]، إذا جَلَسَ بَدَا كالغُرابِ الأَسْودَ»[3].

* ذكرَ ابنُ عَساكِرَ: «قالَ أبو إسحاقَ الحَرْبِيِّ كانَ عطاءُ بنُ أَبِي رباحٍ عبدًا أسودَ لامرأةٍ من أهل مكة، وكانَ أَنْفُه كأنَّه باقِلَّاة[4]، قال: وجاءَ سُلَيْمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ أميرُ المؤمنينَ إلىٰ عطاءٍ هو وابناه، فجلسوا إليه، وهو يُصلِّي، فلمَّا صَلَّىٰ انْفَتَل إليهمْ، فما زالوا

---

(1) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 4/ 89-93.

(2) مفلفل الشعر: شديد تجعيد الشعر، أفطس الأنف: شديد انخفاض قصبة الأنف، انظر: حاشية كتاب: صور من حياة التابعين، للدكتور عبد الرحمن الباشا: 1/ 11.

(3) انظر: صور من حياة التابعين، للدكتور عبد الرحمن الباشا: 1/ 11.

(4) الباقلاة: حبة الفول، والجمع: الباقلاء، انظر: المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن المرسي: 6/ 435، والمراد: أن أنفه أفطس صغير كحبة الفول، دلالة علىٰ قبح المنظر.

يسألونَه عن مناسكِ الحجِّ، وقَدْ حَوَّل قَفَاهُ إليهمْ، ثمَّ قالَ سُلَيْمانُ لابْنَيْهِ: قُومَا؛ فَقَامَا، فقال: يا بَنِيَّ لا تَنِيَا في طَلَبِ العلمِ، فإنِّي لا أَنْسَىٰ ذُلَّنَا بينَ يَدَيْ هذا العبدِ الأسودِ»[1].

➢ الأَعْمَشُ، سُلَيْمانُ بنُ مِهْرانَ، وجَمَالُ دِيْنِهِ وعِلْمِه

كان الأعمشُ سُلَيْمانُ بنُ مِهْرانَ، قبيحَ المنظرِ، أَعْمَشَ العَيْنَيْنِ، لَيْسَ لهُ حَظٌّ من جمالِ الخِلْقَةِ.

* ذكر الخطيبُ البغداديُ: «عن ابنِ عُيَيْنَةَ، قالَ: رأيتُ الأعمشَ لَبِسَ فَرْوًا مَقْلُوبًا، وقباءً يسيلُ خيوطُه علىٰ رَجْلَيْهِ، ثم قالَ: أَرَأَيْتُمْ لولا أنِّيْ تعلَّمْتُ العِلْمَ، مَنْ كانَ يأتيني؟ لو كنتُ بَقَّالًا كان يَقْذَرُنِي الناسُ أنْ يشتروا منيْ. وعنْ أبي بكرِ بنِ عَيَّاشٍ، قال: كُنَّا نُسَمِّي الأعمشَ سيِّدَ المُحَدِّثِين. وقالَ عيسىٰ بنُ يونسَ ما رأيتُ الأغنياءَ والسلاطينَ عندَ أحدٍ أحقرَ منهُمْ عندَ الأعمشِ معَ فَقرِه وحاجَتِهِ، وإنَّ الذِي رَفَعَهُ فوقَ عامَّةِ أهلِ زمانِه ما أُوتيَ من دِينٍ وعِلْمٍ»[2].

* ذكر الذهبي في السِّيَرِ: «عن يَحْيَىٰ القطان، إذا ذُكِرَ الأعمشُ قالَ، كانَ منَ النُّسَّاكِ، وكانَ مُحافِظًا علىٰ الصلاةِ في جماعةٍ، وعلىٰ الصفِّ الأَوَّلِ، وهو عَلَّامةُ الإسلامِ. قال وَكِيعُ بنُ الجَرَّاحِ: كانَ الأعمشُ، قريبًا من سبعينَ سنة، لمْ تَفُتْهُ التكبيرةَ الأُولَىٰ. وقالَ عبدُ الله الخريبي: ما خَلَّفَ الأعمشُ أَعْبَدَ مِنْهُ. فقالَ يومًا: لولا القرآنُ، وهذا العِلْمُ عندِي، لكنتُ مِنْ بَقَّالِي الكوفةِ»[3].

---

(1) تاريخ دمشق، لابن عساكر: 40/ 375.

(2) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: 9/ 7.

(3) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 6/ 348.

* هذه نماذجُ لِأَئِمةٍ في الدِّينِ والعِلْمِ والخُلُقِ علىٰ قُبْحٍ في الخِلْقَةِ، وغيرُهم كثيرٌ ممن لم يُرْزَقُوا جمالَ الخِلْقةِ، ورُزِقُوا جمالَ الدِّينِ والعِلْمِ والخُلُق؛ فلتنظرِ المسلمةُ، وكلُّ أبناءِ المسلمينَ إلىٰ هؤلاءِ النُّبَلاءِ الأفذاذِ من أئِمَّةِ الدنيا، كيفَ جَمُلُوا في أعينِ النَّاس وزانُوا، وأَجْمعَ الناسُ في زَمَانِهم، وفي كلِّ أزمانِ المسلمينَ، علىٰ مَحَبَّتِهم وتعظيمِهمْ، وإمامَتِهم والاقتداءِ بِهِمْ، علىٰ ما كانَ فيهم مِنْ قُبْحِ الخِلْقَة، وذلك أنَّ جمالَ الدِّينِ والخُلُقِ يَسْتُرَانِ تَحْتَهُما كلَّ عَيْبٍ فَعَلَىٰ المسلمةِ إذا أَعْجَبَها مِنْ مَخْلوقَةٍ ظاهرُ جمالٍ، فلتُبَادِر إلىٰ تَجْمِيلِ قَلْبِها ونَفْسِها حَيْثُ هُمَا مَوْضعُ نَظَرِ رَبِّها، وعَلَيْهما يُحَاكَمُ العَبْدُ، فَيَرْتَفِعُ بِهِما، أو يَسْفُلُ بِدُونِهِما، فَلَيْسَ لِمَنْ رَامَتِ السَّعَادةَ الحَقِيقِيَّةَ، والهناءَةَ السَّرْمَدِيَّةَ إلا أَنْ تَرْضَىٰ، وتُسَلِّمُ للهِ -تعالىٰ- بِمَا حَكَمَ وأَمَرَ.

حَقِيقَةُ الرِّضا

* ذَكَرَ العلماءُ تعريفاتٍ للرِّضا، وقد أكثروا، وكلُّهُم يُشيرُ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الرِّضا مِنْ ذَوْقِهِ ومِمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَنْ فَهْمٍ ومعرفةٍ، نورد منها:

قال ابن القيم: قال ابنُ عطاءٍ: «الرِّضا سُكُونُ القَلْبِ إِلَىٰ قَدِيمِ اخْتِيارِ اللهِ للعبدِ أَنَّهُ اختارَ لَهُ الأفضلَ؛ فَيَرْضَىٰ بِهِ».

وقِيلَ: الرِّضَا ارْتِفَاعُ الْجَزَعِ فِي أَيِّ حُكْمٍ كَانَ، وَقِيلَ: رَفْعُ الِاخْتِيَارِ، وَقِيلَ: اسْتِقْبَالُ الْأَحْكَامِ بِالْفَرَحِ، وَقِيلَ: سُكُونُ الْقَلْبِ تَحْتَ مَجَارِي الْأَحْكَامِ.

وَقِيلَ: نَظَرُ الْقَلْبِ إِلَىٰ قَدِيمِ اخْتِيَارِ اللهِ لِلْعَبْدِ، وَهُوَ تَرْكُ السَّخَطِ[1].

و«قال الرّاغبُ: رِضَا العبد عن اللهِ أنْ لا يَكْرَهَ ما يجرِي بِهِ قضاؤُه، ورِضَا اللهِ عنِ العبدِ هوَ أنْ يَراهُ مُؤْتَمِرًا بأمرِه ومُنْتهيًا عن نَهْيِهِ.

وقال المُنَاويُّ: الرِّضا طيبٌ نَفْسِيٌّ للإنسانِ بما يُصيبُه أو يَفُوتُه مَعَ عَدَمِ التّغَيُّرِ، وقيل: هو سرورُ القلبِ بِمُرِّ القضاءِ».

وقال الفيروزآباديّ: «رضا العبدِ عن اللهِ علىٰ ألّا يكرهَ ما يجري به قضاؤُه، والرّضوان الرّضا الكبير، ولمّا كان أعظمُ الرّضا رضا اللهِ خَصَّ لَفْظَ الرِّضوانِ في القرآن بما كانَ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ-»[2].

---

(1) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 173.

(2) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، لعدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي: 6/ 2103.

وقد صدقوا أَجْمَعُون فَكُلُّهُم يُدَنْدِنُ حولَ مَعْنًىٰ واحدٍ وحقيقةٍ واحدةٍ، وهيَ التَّسْليمُ للخالقِ بما خَلَقَ، والاطمئنانُ إِلَىٰ حِكْمَتِهِ فِيما قَضَىٰ، وإِنْ كانَ مَكْروهًا للنفسِ، وطيبُ النَّفْسِ وسُكُونُها إلىٰ سابقِ علمِ اللهِ بالمصلحةِ.

فما أَسْعَدَ عيشَ الرَّاضياتِ عَنِ اللهِ، وما أَسَرعَ خُطاهُن إلىٰ اللهِ، وما أسبقَ مراحِلِهنَّ، إذ يَقْطَعْنَ المَرَاحِلَ إلىٰ اللهِ مرحلةً بعدَ أُخرَىٰ بأسرعِ ما تُرْكَبُ النَّجائِبُ، وغَيْرُهُنَّ في التِّيه يَخْبِطْنَ، وفي الغَيِّ حائراتٍ، ويا للهِ كمْ لَهُ في عبادِهِ مِنْ حِكَمٍ وأسرارٍ؟!

السَّبِيلُ إلى تَحْقِيقِ الرِّضا

لا سبيلَ إلىٰ تحقيق الرِّضا عن اللهِ -سبحانه وتعالىٰ-، والاطمئنانِ إلىٰ أقضيتهِ إلَّا بأمرين:

الأول: السكونُ إلى أمرِ اللهِ -تعالى-

وإنما يَتَحَقَّقُ الرِّضَا فِي قَلْبِ المُسْلِمةِ، إنْ هيَ سَلَّمتْ للهِ -تعالىٰ- بأنَّه الحكيمُ في تقديرِهِ، الرَّحيمُ بِعِبَادِه، ثُمَّ سَكَنَتْ إلىٰ هذا العِلْمِ، سُكونَ الطِّفلِ إلىٰ حُضْنِ أُمِّهِ عندَ النَّوائبِ[1]، وسكونَ المريضِ إلىٰ حُكْمِ الطبيبِ الخبيرِ بالأدواءِ، وسكونَ الطالبِ إلىٰ عِلْمِ مُعَلِّمِه الحَصِيفِ[2]، وسكونَ الغَريقِ إلَىٰ ذِراعَيِ السَّبَّاحِ النِّحْريرِ[3]. فالمسلمةُ الراضيةُ عنِ اللهِ -تعالَىٰ- حَقَّ الرِّضا لا تُقدِّم بين يَدَيْ حُكْمِ اللهِ -تعالىٰ- وقَضَائِه حُكْمَ نَفْسِها، ولا تُنازِع في أَمْرٍ قضاهُ اللهُ ولا تَضْجُرُ، ولا تُراجعُ ولا تُعاتِبُ، ولا ترغَبْ في شَيْءٍ سِوَىٰ ما قَضَىٰ اللهُ، بلْ ما قَضَىٰ اللهُ -تعالَىٰ- هوَ عَيْنُ مَحْبُوبِها وفَرَحِها وقُرَّةُ عَيْنِها؛ لِيَقِينِها أنَّ اللهَ -تعالىٰ- لا يَقْضِي لها إلا المصلحة، وأنه أرحم بها من الوالدة بولدها. فَمَنْ قَضَىٰ

---

(1) النوائب: جمع نائبة، وهي ما ينوب الإنسان أي ينزل به من المهمات والحوادث. والنائبة: المصيبة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 1/ 774.

(2) الحصيف: السديد الرأي، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: 3/ 7.

(3) النحرير: الحاذق الماهر العاقل المجرب، وقيل: النحرير: الرجل الفطن المتقن البصير في كل شيء، وجمعه النحارير، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 5/ 197.

لها بألا تَتَزَوَّج؛ فَمَصْلَحَتُها بألا تتزوجَ، ولو تزوجتْ لكان شرًا لها، ومن قَضَىٰ لها بموتِ زوجِها؛ فمصلحتُها في موتِ زوجِها، ولو لم يمت لكان شرًا لها، ومن قَضَىٰ لها بطلاقِها من زوجِها؛ فمصلحتُها كذلكَ في طلاقِها من زوجِها؛ ولو لم تُطَلَّقْ لكانَ شرًا لها، وإن لم تُدْرِك بعدُ عينَ المصلحةِ.

الثاني: الوقوف مع اختيار الله -تعالى-

كما يَتحققُ الرِّضا بِوُقوفِ المسلمةِ معَ اختيارِ اللهِ -تعالىٰ-، وإن خالفَ ما تَهْوَىٰ نَفْسُها وما تحبُّ، فَهِيَ مَعَ اللهِ -تعالىٰ- علىٰ نَفْسِهَا، واثقةً بِرَبِّهَا كُلَّ الوُثُوقِ، مُتَّهِمَةً نفسَها بِالجهلِ وقِلَّةِ البَصِيرَةِ.

قال ابن القيم: «الرَّاضِيَ وَاقِفٌ مَعَ اخْتِيَارِ اللهِ لَهُ، مُعْرِضٌ عَنِ اخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ، وَهَذَا مِنْ قُوَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ -تَعَالَىٰ-، وَمَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ... قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: مَنْعُهُ عَطَاءٌ، وَذَلِكَ: أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ عَنْ بُخْلٍ وَلَا عَدَمٍ، وَإِنَّمَا نَظَرَ فِي خَيْرِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَمَنَعَهُ اخْتِيَارًا وَحُسْنَ نَظَرٍ، وَهَذَا كَمَا قَالَ، فَإِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- لَا يَقْضِي لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، سَاءَهُ ذَلِكَ الْقَضَاءُ أَوْ سَرَّهُ، فَقَضَاؤُهُ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنَ الْمَنْعَ عَطَاءٌ، وَإِنْ كَانَ فِي صُورَةِ الْمَنْعِ؛ وَنِعْمَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ فِي صُورَةِ مِحْنَةٍ؛ وَبَلَاؤُهُ عَافِيَةٌ، وَإِنْ كَانَ فِي صُورَةِ بَلِيَّةٍ؛ وَلَكِنْ لِجَهْلِ الْعَبْدِ وَظُلْمِهِ لَا يَعُدُّ الْعَطَاءَ وَالنِّعْمَةَ وَالْعَافِيَةَ إِلَّا مَا الْتَذَّ بِهِ فِي الْعَاجِلِ، وَكَانَ مُلَائِمًا لِطَبْعِهِ. وَلَوْ رُزِقَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ حَظًّا وَافِرًا لَعَدَّ الْمَنْعَ نِعْمَةً، وَالْبَلَاءَ رَحْمَةً. وَتَلَذَّذَ بِالْبَلَاءِ أَكْثَرَ مِنْ لَذَّتِهِ بِالْعَافِيَةِ، وَتَلَذَّذَ بِالْفَقْرِ أَكْثَرَ مِنْ لَذَّتِهِ بِالْغِنَىٰ، وَكَانَ فِي حَالِ الْقِلَّةِ أَعْظَمَ شُكْرًا مِنْ حَالِ الْكَثْرَةِ. وَهَذِهِ كَانَتْ حَالَ السَّلَفِ»[1].

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 206.

ثَمَرَةُ الرِّضَا

إنَّ اللهَ ﷻ لا يظلمُ الناسَ شيئًا، ولكنَّ الناسَ أنفسَهم يَظْلِمون، فهو -سبحانه- أهلُ الفضلِ والإحسانِ علىٰ عبادِه منْ أهلِ المعاصِي، فَهُمْ يُبَارِزُونَه بالعظائِم والجرائِم، وهو يَكْلَؤُهم بفضله ورعايتِه، ويَتَفَضَّلُ عليهِم بِجُودِه ومَنِّهِ، يَتَبَغَّضُونَ إليهِ بالمعاصِي، وهو يَتَحَبَّبُ إليهمْ بِوافر رِزْقه وجليلِ إنْعامِه، هذا صَنِيعُه بِمَنْ عَصَاهُ، فكيفَ صَنِيعُه بمن أطاعَتهُ ورَضِيَتْ به ربًا، وبقضائه حُكمًا؟ ما الظنُّ بمسلمة أرضتْ ربَّها فيما يُحِبُّ، حتَّىٰ لو خالفَ هواها وحظَّ نَفْسِها؟ ما الظنُّ بمنْ سَلَّمَت واسْتَسْلَمَتْ للهِ -تعالىٰ- فيما قَضَىٰ، وحَمِدَتْه علىٰ الضراءِ حَمْدَها إيَّاهُ علىٰ السَّراءِ؟ فلا تَسألي عنْ كرامةِ اللهِ -تعالىٰ- لِمَنْ هذا نَعْتُها، وهذا حالُها مع ربِّها، فاللهُ -تعالىٰ- شَكُورٌ، ومن تَمَامِ شُكْرِه أن يُثِيبَ أَمَتَه فوق ما تَسْتَحِقُّ، فهو القائل: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1]، وهو القائل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[2]، ولا تسألي عن زيادة ربنا، فهو إذا تَفَضَّلَ؛ فليسَ لِفَضْلِه وَصْفٌ، وإذا أعطىٰ أَجْزَلَ وأَدْهَشَ، فيا للهِ كمْ أَعدَّ لأوليائِه الراضين به وعنه من كراماتٍ وعظيمِ هِبَاتٍ في دار الرضوان.

---

(1) ق: 35.

(2) يونس: 26.

الأول: الرِّضَا عن الله يُثْمِرُ السُّرورَ وراحَةَ البَال

ومن أنضجِ ثِمارِ الرِّضا، وأَيْنَعِها، وأَقْرَبِها مُتَناوَلًا ومُجْتَنًى مِنَ المسلمةِ الراضيةِ عنِ اللهِ -تعالىٰ- السرورُ والطُّمأْنِينَةُ وراحةُ البالِ، وهَناءَةُ العيشِ.

قال ابن القيم: «الرِّضَا يُثْمِرُ سُرُورَ الْقَلْبِ بِالْمَقْدُورِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَطِيبَ النَّفْسِ وَسُكُونَهَا فِي كُلِّ حَالٍ، وَطُمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ عِنْدَ كُلِّ مُفْزِعٍ مُهْلِعٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَبَرْدَ الْقَنَاعَةِ، وَاغْتِبَاطِ الْعَبْدِ بِقَسْمِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَفَرَحِهِ بِقِيَامِ مَوْلَاهُ عَلَيْهِ، وَاسْتِسْلَامِهِ لِمَوْلَاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَرِضَاهُ مِنْهُ بِمَا يُجْرِيهِ عَلَيْهِ، وَتَسْلِيمِهِ لَهُ الْأَحْكَامَ وَالْقَضَايَا، وَاعْتِقَادِ حُسْنَ تَدْبِيرِهِ، وَكَمَالَ حِكْمَتِهِ، وَيُذْهِبُ عَنْهُ شَكْوَىٰ رَبِّهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ وَتَبَرُّمَهُ بِأَقْضِيَتِهِ؛... فالرِّضَا بَابُ اللهِ الْأَعْظَمُ، وَمُسْتَرَاحُ الْعَارِفِينَ، وَجَنَّةُ الدُّنْيَا. فَجَدِيرٌ بِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ أَنْ تَشْتَدَّ رَغْبَتُهُ فِيهِ. وَأَنْ لَا يَسْتَبْدِلَ بِغَيْرِهِ مِنْهُ... كما أَنَّ السُّخْطَ بَابُ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزْنِ، وَشَتَاتِ الْقَلْبِ، وَكَسْفِ الْبَالِ، وَسُوءِ الْحَالِ، وَالظَّنِّ بِاللهِ خِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ. وَالرِّضَا يُخَلِّصُهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَيَفْتَحُ لَهُ بَابَ جَنَّةِ الدُّنْيَا قَبْلَ جَنَّةِ الْآخِرَةِ...، فمَنْ مَلَأَ قَلْبَهُ مِنَ الرِّضَا بِالْقَدَرِ؛ مَلَأَ اللهُ صَدْرَهُ غِنًىٰ وَأَمْنًا وَقَنَاعَةً، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِمَحَبَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ. وَمَنْ فَاتَهُ حَظُّهُ مِنَ الرِّضَا: امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِضِدِّ ذَلِكَ. وَاشْتَغَلَ عَمَّا فِيهِ سَعَادَتُهُ وَفَلَاحُهُ. فَالرِّضَا يُفَرِّغُ الْقَلْبَ للهِ، وَالسُّخْطُ يُفَرِّغُ الْقَلْبَ مِنَ اللهِ.... الرِّضَا مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، نَظِيرُ الْجِهَادِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ. فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِيمَانِ. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِيمَانِ: الصَّبْرُ لِلْحُكْمِ، وَالرِّضَا بِالْقَدَرِ»[1].

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 212.

لذلك كله اشتد رضا الصالحين عن ربهم كما روي أنه «لَمَّا قَدِمَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ -وَقَدْ كُفَّ بَصَرُهُ- جَعَلَ النَّاسُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ لِيَدْعُوَ لَهُمْ، فَجَعَلَ يَدْعُو لَهُمْ. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ السَّائِبِ: فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا غُلَامٌ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ؛ فَعَرَفَنِي. فَقُلْتُ: يَا عَمُّ، أَنْتَ تَدْعُو لِلنَّاسِ فَيُشْفَوْنَ، فَلَوْ دَعَوْتَ لِنَفْسِكَ لَرَدَّ اللهُ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؛ فَتَبَسَّمَ، ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ، قَضَاءُ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَصَرِي. وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: ذَنْبٌ أَذْنَبْتُهُ. أَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً. قِيلَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: قُلْتُ لِشَيْءٍ قَضَاءُ اللهِ: لَيْتَهُ لَمْ يَقْضِهِ، أَوْ لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَوْ قُرِضَ لَحْمِي بِالْمَقَارِيضِ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لِشَيْءٍ قَضَاهُ اللهُ: لَيْتَهُ لَمْ يَقْضِهِ»[1].

* ابنُ تَيْمِيَّةَ مَثَلٌ للرَاضِينَ الفَرِحِين

- وقد وصف ابنُ القَيِّمِ حالَ شيخِهِ ابنِ تَيْمِيَّةَ، فقال: «فَطَرِيقُ الرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ تُسَيِّرُ الْعَبْدَ وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَىٰ فِرَاشِهِ، فَيُصْبِحُ أَمَامَ الرَّكْبِ بِمَرَاحِلَ، وَثَمَرَةُ الرِّضَا: الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ بِالرَّبِّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، وَرَأَيْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - فِي الْمَنَامِ، وَكَأَنِّي ذَكَرْتُ لَهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ، وَأَخَذْتُ فِي تَعْظِيمِهِ وَمَنْفَعَتِهِ -لَا أَذْكُرُهُ الْآنَ-، فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَطَرِيقَتِي: الْفَرَحُ بِاللهِ، وَالسُّرُورُ بِهِ، أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنَ الْعِبَارَةِ. وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ فِي الْحَيَاةِ. يَبْدُو ذَلِكَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ. وَيُنَادِي بِهِ عَلَيْهِ حَالُهُ»[2].

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 217.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 174.

وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: «الإقبالُ علىٰ اللهِ -تعالىٰ-، والإنابةُ إليهِ، والرِّضاءُ بِهِ وَعَنْهُ، وامتلاءُ القلبِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، واللَّهْجُ بِذِكْرِهِ، والفَرَحُ والسُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ؛ ثوابٌ عاجِلٌ، وجَنَّةٌ، وعَيْشٌ لا نِسْبَةَ لِعَيْشِ المُلُوكِ إِلَيْهِ أَلْبَتَّة. وسمعتُ شيخَ الإسلامِ ابن تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يقولُ: إِنَّ فِي الدُّنيا جَنَّةً مَنْ لمْ يدخُلْها؛ لا يدخلُ جنَّةَ الآخرةِ.

وقالَ لِي مرةً: ما يصنعُ أعدائِي بِي؟ أنا جَنَّتِي وبُسْتانِي فِي صَدْرِي، إِنْ رُحْتُ فَهِيَ مَعِي، لا تُفَارِقُنِي، إِنَّ حَبْسِي خُلْوَةٌ، وقَتْلِي شَهَادَةٌ، وإِخْراجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ.

وكانَ يقولُ فِي مَحْبَسِهِ فِي القَلْعَةِ: لَوْ بَذَلْتُ مِلْءَ هَذِهِ القَاعَةِ ذهبًا؛ ما عَدَلَ عِنْدِي شُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ.، أَوْ قَالَ ما جَزَيْتُهُم علىٰ ما تَسَبَّبُوا لي فِيهِ مِنَ الخَيْرِ، ونَحْوُ هَذَا.

وكان يقولُ فِي سُجُودِهِ، وهُوَ مَحْبُوسٌ: اللهمَّ أَعِنِّي علَىٰ ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، ما شَاءَ اللهُ، وقَالَ لي مرةً: المحبوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّه -تعالىٰ-، والمَأْسُورُ مَنْ أَسَرَهُ هَواهُ. ولَمَّا دَخَلَ إِلَىٰ سجنِ القَلْعَةِ، وصَارَ داخلَ سُورِها؛ نَظَرَ إِلَيهِ وقالَ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[1].

وعَلِمَ اللهُ ما رَأَيْتُ أَحَدًا أَطْيبَ عَيْشًا مِنْهُ قَطُّ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ ضِيقِ العَيْشِ، وخِلَافِ الرَّفَاهِيَةِ والنَّعيمِ بَلْ ضِدَّهَا، ومَعَ ما كانَ فيهِ منَ الحَبْسِ والتَّهْديدِ والإرهاقِ، وهُوَ مع ذلكَ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا، وأَشْرَحِهِمْ صَدْرًا، وأَقْواهُمْ قَلْبًا، وأَسَرِّهِمْ نَفْسًا، تَلُوحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ عَلَىٰ وَجْهِهِ. وكُنَّا إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الخَوْفُ، وسَاءَتْ مِنَّا الظُّنُونُ، وضَاقَتْ بِنَا الأرضُ، أَتَيْنَاهُ، فَما هُوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ، ونَسْمَعَ كَلَامَهُ؛ فَيَذْهَبَ ذلكَ كُلُّهُ، ويَنْقَلِبَ انْشِرَاحًا وقُوَّةً ويَقِينًا وطُمَأْنِينَةً.

---

(1) الحديد: 13.

فَسُبْحانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبَادَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وفَتَحَ لَهُمْ أَبْوابَهَا فِي دارِ العَمَلِ، فَآتَاهُم مِنْ رُوحِها ونَسِيمِها وطِيْبِها ما اسْتَفْرَغَ قُواهُمْ لِطَلَبِها والمُسَابَقَةِ إِلَيْها»[1].

الثاني: الرِّضَا عن الله يُثْمِرُ الطُّمَأْنِينَةَ عندَ لقاءِ اللهِ

فمن اطمأنتْ إلىٰ قضاءِ ربِّها في الدنيا، وحَقَّقَتِ الرِّضا في نفسها حَيَّةً؛ نُودِيَ عليها يوم مَوْتِها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2].

عن الْحَسَنِ، قال: «﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾، إِذَا أَرَادَ اللهُ ﷻ قَبْضَهَا اطْمَأَنَّتْ إِلَىٰ اللهِ، وَاطْمَأَنَّ اللهُ إِلَيْهَا، وَرَضِيَتْ عَنِ اللهِ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَأَمَرَ بِقَبْضِ رُوحِهَا، وَأَدْخَلَهَا اللهُ الْجَنَّةَ، وَجَعَلَهَا مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ»[3].

وروىٰ ابن كثير عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «الْمَيِّت تَحْضُرهُ الْمَلَائِكَة، فَإِذَا كَانَ الرَّجُل الصَّالِح؛ قَالُوا: اُخْرُجِي أَيَّتهَا النَّفْس الْمُطْمَئِنَّة، كَانَتْ فِي الْجَسَد الطَّيِّب، اُخْرُجِي حَمِيدَة، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَان وَرَبٍّ غَيْر غَضْبَان، فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُعْرَج بِهَا إِلَىٰ السَّمَاء، فَيُسْتَفْتَح لَهَا، فَيُقَال: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولَانِ: فُلَان، فَيُقَال: فُلَان. مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَة الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَسَد الطَّيِّب، اُدْخُلِي حَمِيدَة، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَان وَرَبٍّ غَيْر غَضْبَان، فَيُقَال لَهَا ذَلِكَ؛ حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاء الَّتِي فِيهَا الله ﷻ»[4].

---

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية: 1/ 48.

(2) الفجر: 27،28.

(3) انظر: صحيح البخاري، سُورَةُ وَالفَجْرِ: 6/ 169.

(4) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الأعراف: 3/ 372.

قال ابنُ القَيِّمِ: «قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾، لَمْ يَدَعْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْمُتَسَخِّطِ إِلَيْهِ سَبِيلًا... قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِذَا تُوُفِّيَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ. وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِتُحْفَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ. فَيُقَالُ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ رُوحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ عَنْكِ رَاضٍ»[1].

الثالث: الرِّضَا عن الله يُثْمِرُ بُلوغَ القُرْبِ منَ اللهِ في الآخرةِ

قال ابنُ قُدَامَةَ المقدسيُّ: «أَمَّا الرِّضا بقضاءِ اللهِ -تعالىٰ-، فهو مِنْ أعلَىٰ مقاماتِ المُقَرَّبينَ، وهو مِنْ ثِمَارِ المَحَبَّةِ، وحقيقتُهُ غامضةٌ، ولا ينكشفُ الأمرُ فيه إلا لِمَنْ يفهمُهُ عنِ اللهِ -تعالىٰ-... وقال بعضُهم: لن يَرِدَ الآخرةَ أرفعَ درجاتٍ من الراضينَ عنِ اللهِ -تعالىٰ- علىٰ كل حال، فمنْ وُهِبَ له الرضا، فقد بلغَ أفضلَ الدرجاتِ»[2].

❋ فما فازتْ بِشَرَفِ السَّبْقِ وكانتْ منَ السابقينَ السابقينَ، وما حَظِيَتْ برُتْبةِ القُرْبِ منَ اللهِ، والمكانةِ العاليةِ عندَ الناسِ في الدنيا إلا مَنْ حَقَّقَتْ في قلبِها مَقَامَ الرِّضا عنِ اللهِ علىٰ كل حالٍ.

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 172، 176.

(2) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي: 4/ 119.

عَسَى أنْ تُحبوا شيئًا وهوَ شرٌ لكم

كم تمنتِ امرأةٌ الزواجَ، فلمَّا رُزِقَتِ الزوجَ، ورأتْ مِنْ سوءِ خُلُقه ما رأتْ، تَمَنَّتْ أنْ لو تَأَيَّمَتْ دَهْرَها، وأَنَّها لمْ تَرَ هذا الإنسانَ، يتبَدَّىٰ ساعةَ الخِطْبَةِ والزواجِ في هيئةِ الصالحينَ، فإذا امْتَلَكَ عِصْمةَ المرأةِ، انقلبَ إلىٰ شيطانٍ مريدٍ؛ فكمْ مِنِ امرأةٍ كانَ الزواجُ وبالًا عليها، فَضَلَّت بعد هُدًىٰ، أو شَقِيَت بعد سعادةٍ، أو ذَلَّتْ بعد عِزٍّ، فإذا سَلِمت من هذا كُلِّهِ؛ فإنَّها تُكابدُ ما لا طاقةَ لها بهِ إلا بتوفيقٍ من اللهِ وعَوْنٍ، فتكاليفُ الزواجِ شاقةٌ، وتَبِعَاتُهُ عظيمةٌ، وحملُهُ ثقيلٌ، مِنْ مفارقةِ بيتِ الأهلِ وما اعتادتْ عَلَيْهِ، إلىٰ الصَبْرِ علىٰ الزوجِ وطِبَاعِهِ، إلىٰ الحمل وآلامِهِ، والوَضْعِ وأوجاعِه، والرضاعةِ وشِدَّتِها، والفطامِ وقَسْوَتِه، وتربيةِ الأولادِ وهمومِها، إلىٰ مقاساةِ خُلُقِ الزَّوْجِ، ومَكْرِ الضرائرِ، و كَيْدِ السَّلَفات، وتَسَلُّطِ الأَحْماءِ والحَمَوَاتِ، إلىٰ ما لا ينتهي مِنْ همومِ النساءِ إلا بلقاءِ اللهِ، كلُّ هذا تَجِدُه مَنْ تَزَوَّجَت، والأيِّمُ مِنْ كلِّ هذا بِمُسْتَرَاح، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: «أَتَىٰ رجلٌ بابنتِهِ إِلَىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: إنَّ ابنتِي هذهِ أبتْ أنْ تَتَزَوَّجَ، فقالَ: لها رسولُ اللهِ ﷺ: أطيعِي أباكِ، فقالتْ: والذِي بَعَثَكَ بالحقِ لا أتزوجُ حتَّىٰ تُخْبرُنِي ما حقُّ الزوجِ علىٰ زوجَتِه؟ قالَ: حقُّ الزوجِ علىٰ زوجَتِه؛ لو كانتْ بهِ قُرْحةٌ، فَلَحَسَتْها، أو انْتَثَرَ مَنْخِراهُ

صَدِيدًا أَوْ دَمًا، ثمَّ ابْتَلَعَتْهُ ما أدَّتْ حقَّهُ، قالتْ والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لا أتزوجُ أبدًا؛ فقالَ النبيُّ ﷺ: لا تنكِحُوهُنَّ إلا بإذنِهِنَّ»[1].

ثمَّ إنَّما غابَ عن المسلمةِ مِنْ مصالحَ وخَفِيَ أعظمُ مِمَّا يَسْتَقْصِيهِ العلماءُ الحكماءُ، قال -تعالىٰ-: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، باب: استحباب تحمل المكاره للمرأة عن زوجها: 9/ 472، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، باب: ما جاء في عظم حق الزوج علىٰ المرأة: 4/ 476، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(2) البقرة: 216.

فَوَائِدُ الآيةِ من الفوائد[1]

قال ابنُ القيم في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. في هذه الآية عِدَّةُ حِكَمٍ وأسرارٍ ومصالحَ:

* فإنَّ العبدَ إذا عَلِمَ أنَّ المكروهَ قد يأتِي بالمحبوبِ، والمحبوبَ قد يأتي بالمكروهِ؛ لم يأمنْ أن تُوافِيَهُ المَضَرَّةُ من جانبِ المَسَرَّةِ، ولم يَيْأَسْ أنْ تَأْتِيَه المَسَرَّةُ من جانبِ المَضَرَّةِ لِعَدمِ عِلْمِهِ بالعواقبِ، فإنَّ اللهَ يعلمُ مِنْها ما لا يعلمُه العبدُ.

* ومن أسرارِ هذهِ الآيةِ أنَّها تَقْتَضِي من العبدِ التَّفْويضَ إلىٰ مَنْ يعلمُ عواقبَ الأمورِ، والرِّضا بما يختارُه لهُ، ويَقْضِيهِ لَهُ؛ لِمَا يرجو فيه مِنْ حُسْنِ العاقبةِ.

* ومنها أنَّه لا يَقْتَرِحُ علىٰ ربِّه، ولا يَخْتارُ عليهِ، ولا يسألُهُ ما ليسَ لهُ بِهِ عِلْمٌ؛ فلعلَّ مَضَرَّتَهُ وهلاكَه فيهِ وهوَ لا يعلمُ، فلا يختارُ علىٰ ربِّه شيئًا، بل يسألُه حُسْنَ الاختيارِ لهُ، وأنْ يُرْضِيَهُ بما يَخْتارُه، فلا أَنْفَعَ لهُ منْ ذلكَ.

* ومنها أنَّه إذا فَوَّضَ إلىٰ ربِّه ورَضِيَ بما يختارُه لَهُ؛ أَمَدَّهُ فيما يختارُه لَهُ بالقوَّةِ عليه والعزيمةِ والصبرِ، وصَرَفَ عنهُ الآفاتِ التِي هي عُرْضةُ اختيارِ العبدِ لِنَفْسِهِ، وأراهُ مِنْ حُسْنِ عواقبِ اختيارِهِ لهُ ما لمْ يكُنْ لِيَصِلَ إلىٰ بَعْضِه بما يختارُهُ هوَ لِنَفْسِهِ[2].

---

(1) قصدنا بكلمة: (الفوائد) الثانية؛ كتاب الفوائد، لابن قيم الجوزية -رحمه الله- فيكون معنىٰ العنوان: فوائد الآية المقتبسة من كتاب الفوائد.

(2) الفوائد، لابن قيم الجوزية: 1/ 136.

❊ فكثيرًا ما تَتَوَلَّدُ المَسَرَّاتُ مِنَ الأحزانِ، تَبْدُو المحنةُ حينَ تُقْبِلُ شديدةً عَصِيَّةً، فإذا وَلَّتْ وأَدْبَرَتْ؛ أَسْفَرَتْ عن صُبْحٍ، وفَرَجٍ وخَيْرٍ وبَرَكَةٍ، ولا يعلمُ خَفَايا الأمورِ وعواقِبَها إلا مُبْدِيها.

➢ قال ابن القيم: «فالغاياتُ الحميدةُ في خَبايا الأسبابِ المكروهةِ الشَّاقَّةِ، كما أنَّ الغاياتِ المكروهةَ المُؤْلِمَةَ في خَبايا الأسبابِ المُشْتَهاةِ المُسْتَلَذَّةِ، وهذا مِنْ حين خَلَقَ اللهُ -سبحانه- الجَنَّةَ، وحَفَّهَا بالمكارهِ، وخَلَقَ النَّارَ، وحَفَّها بالشَّهواتِ»[1].

❊ وبعدَ كلِّ هذا أَلَا تُحِبِّينَ أنْ تَرْجِعَ النِّساءُ بالأزواجِ، وتَرْجِعِينَ أنتِ بِرِضْوانِ اللهِ، كما قالَ رسولَ اللهِ ﷺ للأنصارِ يومِ عَتَبَتْ عليهِ فِي قِسْمَةِ حُنَيْن: «أَمَا تَرْضَوْنَ أنْ يَرْجِعَ الناسُ بالدُّنْيا، وتَرْجِعُونَ برسولِ اللهِ ﷺ إلىٰ بيوتِكمْ؟!». قالوا: بَلَىٰ؛ فماذا أنت -إذن- قائلة؟!

(1) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية: 2/ 109.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

وَاسِطَةُ العِقْدِ: محبةُ رَبِّ العَالَمِينَ أَعْظَمُ مِنْ مَحَبَّةِ المَخْلُوقِينَ

فمن وجدت مَسَّ المِحْنَةِ بِفَقْدِ الزوج، حينَ تَضَعُ رأسَها علىٰ فراشِها وحيدةً، وقدْ تَذكرَتْ صُويحِبَاتِها اللَّاتِي بِتْنَ بصحبةِ الأزواجِ، ومَنْ وجدتْ نفسَها وحيدةً بلا أَنِيسٍ من أهلِ الأرضِ، فيما أخواتُها كَثُرَ مِنْهُنَّ الولدُ والأنيسُ، فَتَوَقَّدَتْ في نفسِها نارُ الحَسْرةِ ومَرارةُ الأَلَمِ، لِتَتَذَكَّرْ ساعتَها أنها بعينِ الله وكَلَاءَتِه، وأنَّهُ يعلمُ مِنْ حالِها ومآلِها ما لا تَعْلَمُ، وأنَّها ليستْ وَحْدَها؛ وأنها ليستْ بِمَحلِّ وَحْشَةٍ، ولا منزلِ غُرْبةٍ، والمُسْتَوْحِشَةُ -علىٰ الحقيقةِ- هيَ مَنْ حُجِبَتْ عن ربِّها، فضُرِبَ قلبُهَا بِوَحْشةٍ وقَسْوةٍ وبُعْدٍ وحِجَابٍ؛ أمَّا مَنْ تعلمُ أنَّ مَعَها ربَّها يُؤْنِسُها ويُؤَيِّدُها؛ فلا وحشةَ عليها في الدُّنيا، ولا في القَبْرِ ولا في القِيامةِ.

ولَئِنْ خَلَتْ صُوَيْحِباتِك بأزواجهنَّ من أهلِ الدُّنيا؛ فلتكُنْ خلوتَكِ بربِّ الأربابِ، ولَئِنْ اسْتَأْنَسْنَ بِخِلَّانِهِنَّ، فليكُنْ أُنْسُكِ بِمَلِكِ الملوكِ، ولَئِنْ تَعَلَّقَتْ قلوبُ النساءِ بالرجالِ؛ فَتَعَلَّقِي أنتِ بالإلهِ العظيمِ، ولَئِنْ تَحَبَّبْنَ إلىٰ أزواجِهِنَّ؛ فَتَحَبَّبِي أنتِ إلىٰ اللهِ الجميلِ السَّيِّدِ الجَلِيلِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[1].

---

(1) البقرة: 165.

نفوذُ قَلْبِ المُحِبَّةِ إِلَى اللهِ -تَعَالى-

فإذا نَفَذَ قَلْبُ الْمُسْلِمَةِ الْمُحِبَةِ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ-، واخترقَ حُجُبَ الدُّنْيا وعاجِلَ زَهْرَتِها؛ فَقَدْ وَصَلَتْ إلىٰ الجنةِ وهِيَ بَعْدُ علىٰ الأرضِ؛ فلا وَحْشَةَ عليها بِفَقْدِ زَوْجٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ مَنْزِلَةٍ أو جاهٍ.

قال ابنُ القيم: «ومَعْنَىٰ النفوذُ إِلَىٰ اللهَ أنْ يتَّصلَ به قلبُه، ويَتَعَلَّقَ به تَعَلُّقَ المُحِبِّ التَّامِّ المحبةِ بمحبوبِهِ، فَيَسْلُو[1] بِهِ عن جميعِ المطالبِ سِواهُ، فلا يَبْقَىٰ في قَلْبِه إلا محبَّةُ اللهِ وأَمْرُهُ، وطَلَبُ التَّقْرِيبِ إليهِ، فإذا سَلَكَ العَبْدُ علىٰ هذا الطريقِ عَطَفَ عَلَيْهِ ربُّه؛ فَقَرَّبَه، واصْطَفاهُ، وأَخَذَ بِقَلْبِهِ إليهِ، وتَوَلَّاهُ في جميعِ أمورِهِ في مَعَاشِه ودِينِه، وَتَوَلَّي تَرْبِيَتَه أَحْسَنَ وَأَبْلَغَ مِمَّا يُرَبِّي الوالِدُ الشَّفِيقُ ولَدَهُ، فإنَّهُ -سُبْحانَه- القَيُّومُ المُقِيمُ لكلِّ شَيْءٍ مِنَ المخلوقاتِ: طائِعِها وعاصِيها، فَكَيْفَ تكونُ قَيُّومِيَّتُه بِمَنْ أَحَبَّهُ، وتَوَلَّاهُ وآثَرَهُ علَىٰ ما سِواهُ، ورَضِيَ بِهِ مِنْ دونِ الناسِ حَبِيبًا وربًّا وَوَكِيلًا وناصرًا ومُعِينًا وهاديًا، فَلَوْ كُشِفَ الغِطاءُ عنْ أَلْطافِهِ وبِرِّهِ وصُنْعِهِ لهُ، مِنْ حيثُ يعلمُ، ومِنْ حيثُ لا يعلمُ؛ لَذَابَ قلبُه مَحَبَّةً لهُ وشَوْقًا إليهِ، ويَقَعَ شُكْرًا لَهُ، ولكنْ حَجَبَ القُلوبَ عَنْ مُشاهدةِ ذلكَ إِخْلادُها إلىٰ عَالَمِ الشَّهَواتِ»[2].

---

(1) يسلو: يفارق، وينسىٰ، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 3/ 91، ولسان العرب، لابن منظور: 14/ 394.

(2) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 179.

* ومنزلةُ المحبةِ هي المنزلةُ التي ترنو إليها قلوبُ السابقات المُقَرَّبَات، ولأَجْلِها سَهِرَتِ العابِداتُ، وصلَّتِ المُصَلِّياتُ، وصامَتِ الصَّائماتُ وجاهدتِ المجاهداتُ.

مَنْزِلَةُ المَحَبَّةِ مَنْزِلَةُ السابقاتِ

➢ قال ابنُ القَيِّم: «مَنْزِلَةُ الْمَحَبَّةِ هِيَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي فِيهَا تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ، وَإِلَيْهَا شَخَصَ الْعَامِلُونَ، وَإِلَىٰ عِلْمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ، وَعَلَيْهَا تَفَانَىٰ الْمُحِبُّونَ، وَبِرُوحِ نَسِيمِهَا تَرَوَّحَ الْعَابِدُونَ، فَهِيَ قُوتُ الْقُلُوبِ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَقُرَّةُ الْعُيُونِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي مَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ، وَالنُّورُ الَّذِي مَنْ فَقَدَهُ فَهُوَ فِي بِحَارِ الظُّلُمَاتِ، وَالشِّفَاءُ الَّذِي مَنْ عَدِمَهُ حَلَّتْ بِقَلْبِهِ جَمِيعُ الْأَسْقَامِ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي مَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا فَعَيْشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَآلَامٌ»[1].

* فمحبة الله -تعالىٰ- هي أعظمُ نِعْمةٍ وأجَلُّ مِنَّةٍ يَهَبُها اللهُ -تعالىٰ- إماءَهُ المُقَرَّبَات.

قالَ ابنُ القَيِّم: «وَمِنْ أَعْظَمِ مُطَالَعَةِ مِنَّةِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ تَأْهِيلُهُ لِمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ، وَمُتَابَعَةِ حَبِيبِهِ، وَأَصْلُ هَذَا: نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، فَإِذَا دَارَ ذَلِكَ النُّورُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَذَاتِهِ؛ أَشْرَقَتْ ذَاتُهُ، فَرَأَىٰ فِيهِ نَفْسَهُ، وَمَا أُهِلَّتْ لَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ وَالْمَحَاسِنِ؛ فَعَلَتْ بِهِ هِمَّتُهُ، وَقَوِيَتْ عَزِيمَتُهُ، وَانْقَشَعَتْ عَنْهُ ظُلُمَاتُ نَفْسِهِ وَطَبْعِهِ، لِأَنَّ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ لَا يَجْتَمِعَانِ إِلَّا وَيَطْرُدُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ؛ فَرَقِيَتْ حِينَئِذٍ بَيْنَ الْهَيْبَةِ وَالْأُنْسِ إِلَىٰ الْحَبِيبِ الْأَوَّلِ.

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 3/ 8.

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَىٰ *** مَا الْحُـــبُّ إِلَّا لِلْحَبِيـــبِ الْأَوَّلِ

كَـمْ مَنْـزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَىٰ *** وَحَـنِينُـــهُ أَبَـــدًا لِأَوَّلِ مَـنْـــزِلِ

وَهَذَا النُّورُ كَالشَّمْسِ فِي قُلُوبِ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ، وَكَالْبَدْرِ فِي قُلُوبِ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَكَالنَّجْمِ فِي قُلُوبِ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ»[1].

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 3/ 39.

المَحَبَّةُ روحُ العُبُودِيَّةِ ولُبُّهَا

والمسلمةُ التي أَعْطَتِ العبودية حَقَّها هيَ مَنِ امتلأَ قَلْبُهَا بِحُبِّ اللهِ؛ وقامتْ جَوَارِحُهَا وأركانُها بخدمةِ مَوْلاهَا؛ حبًا وكرامةً، دونما مَلَلٍ ولا سَآمَةٍ.

قال ابنُ القَيِّم: «فَإِنَّ الْعَبْدَ هُوَ الَّذِي قَدْ مَلَكَ الْمَحْبُوبُ رِقَّهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ نَفْسِهِ أَلْبَتَّةَ، بَلْ كُلُّهُ عَبْدٌ لِمَحْبُوبِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ، وَمَنْ كَمَّلَ ذَلِكَ فَقَدْ كَمَّلَ مَرْتَبَتَهَا»[1]. فالمُحِبَّة لله -تعالىٰ- الصادقة في محبتها، موفقَّةٌ في أمورها، مُسَدَّدةٌ في مراحلها، سعيدةٌ في حياتها، قال ابنُ القَيِّم: «فَأَطْيَبُ الْحَيَاةِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ حَيَاةُ هَذَا الْعَبْدِ، فَإِنَّهُ مُحِبٌّ مَحْبُوبٌ، مُتَقَرِّبٌ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَرَبُّهُ قَرِيبٌ مِنْهُ، قَدْ صَارَ لَهُ حَبِيبُهُ لِفَرْطِ اسْتِيلَائِهِ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَلَهَجِهِ بِذِكْرِهِ وَعُكُوفِ هِمَّتِهِ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ بِمَنْزِلَةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ وَرِجْلِهِ، وَهَذِهِ آلَاتُ إِدْرَاكِهِ وَعَمَلِهِ وَسَعْيِهِ، فَإِنْ سَمِعَ سَمِعَ بِحَبِيبِهِ، وَإِنْ أَبْصَرَ أَبْصَرَ بِهِ، وَإِنْ بَطَشَ بَطَشَ بِهِ، وَإِنْ مَشَىٰ مَشَىٰ بِهِ»[2].

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 3/ 31.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 3/ 31.

محبةُ اللهِ مَنْسَاةٌ للهُمُومِ والأحزانِ

فَمَنْ عَظُمَتْ مَحَبَّةُ اللهِ في نفسِها أَنْسَتْها محبةُ اللهِ -تعالىٰ- كلَّ بَلِيَّةٍ، وهانتْ عليها كلُّ رَزِيَّةٍ، بلْ لَرُبَّما اِلْتَذَّتْ بالمصيبةِ لأَجْلِ أنَّها مِنَ المحبوبِ، فإنَّ كُلَّ ما مِنَ المَحْبوبِ مَحْبوبٌ، قال ابن القيم: «فإنَّ المُحِبَّ يَتَسَلَّىٰ بمحبوبِه عنْ كلِّ مُصيبةٍ يُصابُ بِها دونَه، فإذا سَلِم لَهُ محبوبُه؛ لم يُبَالِ بما فاتَه؛ فلا يَجْزَعُ علىٰ ما نالَه، فإنَّه يرَىٰ في محبوبِه عِوَضًا عنْ كلِّ شيءٍ، ولا يرىٰ في شيءٍ غَيْرِه عِوَضًا منه أَصْلًا، فَكُلُّ مصيبةٍ عندهُ هَيِّنَةٌ إذا أَبْقَتْ عليهِ محبوبَهُ.

ولهذا لمَّا خَرجتْ تلكَ المرأةُ الأنصاريَّةُ يومَ أُحُدٍ تَنْظُرُ ما فُعِلَ برسولِ الله ﷺ، مَرَّتْ بأبيها وأخيها مَقْتُولَيْن، فلمْ تَقِفْ عندهما، وجَاوَزَتْهُما تقولُ: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقيلَ لها: ها هو ذا حَيٌّ، فلمَّا نظرتْ إليهِ قالتْ: ما أُبَالِي إذا سَلِمْتَ هَلَكَ مَنْ هَلَكَ.

* ولو لمْ يكُنْ في المحبةِ من الفَوَائِدِ إلا هذهِ الفائدة وحدَها لَكَفَىٰ بها شَرَفًا، فإنَّ المصائبَ لازمةٌ للعبدِ، لا مَحِيدَ له عنها، ولا يُمْكِنُ دَفْعَهَا بمثلِ المَحَبَّةِ، وهكذا مصائبُ المَوْتِ وما بعدَها إنما تَسْهُلُ وتَهُونُ بالمحبةِ، وكذلك مصائبُ القيامةِ، وأعظمُ المصائبِ مصيبةُ النَّارِ، ولا يدفعُها إلا محبةُ اللهِ وحدَه، ومتابعةُ رسولِه ﷺ، فالمحبةُ أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ.

كما قالَ سَمْنُون: ذهبَ المُحِبُّونَ للهِ بِشَرَفِ الدنيا والآخرةِ، إنَّ النبي ﷺ قالَ: «المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ» فَهُمْ معَ اللهِ في الدنيا والآخرة»[1].

❊ وهذا واللهِ هو الشَّرَفُ العظيمُ والعِزُّ الكَبِير، وليسَ بعده سعادةٌ تُطْلَبُ، ولا نعيمٌ يُنْشَدُ؛ نَسْأَلُ اللهَ بِكَرَمِهِ أن يُبَلِّغَنَاهَا.

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 322.

حقيقة المحبة

حرامٌ علىٰ قَلْبٍ لم يَنْزِلْ منزلةَ المَحَبَّةِ، ولم يبلغْ رُتْبَتَها، ولم يتذوَّقْ حلاوتَها، ولم يَجِدْ لَذَاذَتَها، أنْ يَصِفَ حقيقَتَها، وأنْ يُصِيبَ عَيْنَها، فإنَّ من قَصُرَ فهمُه عن إِدْراكِها، وقَصُرَ عَمَلُه عن بلوغِها، فَمَهْمَا وَصَفَ؛ فإنه يَبْقىٰ وَصْفُهُ قَاصرًا كَلِيلًا، ويكونُ كَأَعْمَىٰ يَصِفُ نُجومَ السماءِ ونورَ الصَّباحِ؛ لذلكَ رَأَيْنَا أنْ نُورِدَ أقوالَ أَرْبابِ هذا العِلْمِ، فَهُمْ أَقْدَرُ علىٰ الوَصف، وأبلغُ في أَداءِ العِبارَة، والكَشْفِ عن مَكْنُونِ الإشارةِ؛ فليسَ مَنْ ذاقَ كَمَنْ حُرِمَ، وليسَ الغائبُ كالمُعاينِ.

أَرْبَابُ الْمَحَبَّةِ يَصِفُون

- قال ابنُ القيم في مَعْنَىٰ الْمَحَبَّةِ: «قيلَ: المحبةُ: ميلُ القلبِ إلىٰ مَحْبوبِه.
- وقيلَ: المحبةُ: تَعَلُّقُ القَلْبِ بالمحبوبِ.
- وقيل: انصبابُ القلبِ إلىٰ المحبوبِ.
- وقيل: سُكُونُ القَلْبِ إليهِ.
- وقيلَ: اشتغالُ القلبِ بالمحبوبِ، بحيثُ لا يَتَفَرَّغُ قَلْبُه لغيرِه.
- وقيل: المحبةُ: بَذْلُ المَجْهودِ في مَعْرفةِ محبوبِهِ، وبذلُ المجهودِ في مَرْضَاتِه.
- وقيلَ: هَيَجَانُ القلبِ عندَ ذِكْرِ المحبوبِ.
- وقيلَ: المحبةُ: حِفْظُ الحدودِ، فليسَ بِصادِقٍ مَنِ ادَّعَىٰ محبةَ اللهِ ولمْ يحفظْ حدودَه.
- وقيلَ: المحبة: هي السَّخَاءُ بالنفسِ للمحبوبِ.
- وقيل: المحبة: ألَّا يزالَ عليكَ رقيبٌ منَ المحبوبِ لا يُمكنكَ منَ الانصرافِ عنهُ أبدًا.
- وقيلَ: المحبةُ: سقوطُ كلِّ محبةٍ منَ القَلبِ سِوَىٰ محبةِ حبيبِكَ.
- وقيل: المحبةُ: صِدْقُ المُجاهدةِ في أوامرِ اللهِ، وتجريدُ المتابعةِ لسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ.
- وقيلَ: المحبةُ: أنْ لا يَفْتُرَ مِنْ ذِكْرِهِ، ولا يأنسَ بغيرِه.
- وقيل: المحبةُ: استقلالُ الكثيرِ من نفسِكَ واستكثارُ القليلِ من حبيبِكَ.
- وقيل: أنْ تَهَبَ كُلَّكَ لِمَنْ أَحْبَبْتَ، فلا يَبْقَىٰ لكَ مِنْكَ شَيءٌ.

- وقيلَ: أنْ تَمْحُوَ مِنْ قَلْبِكَ ما سِوَىٰ المحبوبِ.
- وقيلَ: المحبةُ: نسيانُ حَظِّكَ من محبوبِك، وفَقْرِكَ بِكُلِّكَ إليهِ.
- وقيل: مَيْلُكَ إلىٰ المحبوبِ بِكُلِّيَّتِكَ، ثمَّ إيثارُكَ لهُ علَىٰ نفسِكَ وروحِكَ ومالِكَ، ثم موافقتُكَ لهُ سِرًّا وجَهْرًا، ثمَّ عِلْمُك بتقصيرِكَ في حُبِّهِ.
- وقيلَ: المحبةُ: إقامتُكَ بالبابِ علىٰ الدوامِ.
- وقيلَ: المحبةُ: حَرْفَانِ: حاءٌ، وباءٌ، فالحاءُ الخروجُ عن الرُّوحِ، وبذلُها للمحبوبِ، والباءُ الخروجُ عن البَدَنِ وصَرْفُه في طاعةِ المحبوبِ.
- وقيل: المحبة: مَعِيَّةُ القلبِ والروحِ معَ المحبوبِ مَعِيَّةً لا تُفَارِقُه، فإنَّ المَرْءَ معَ مَنْ أَحَبَّ»[1].
- «وقيل: هيَ الميلُ الدائمُ بالقلبِ الهائِمِ.
- وقيلَ: هيَ إيثارُ المحبوبِ علَىٰ جَمِيعِ المصحوبِ.
- وقيلَ: هيَ استيلاءُ ذِكْرِ المحبوبِ علىٰ قلبِ المُحِبِّ.
- وقيلَ: هيَ قيامُك لمحبوبِك بِكُلِّ ما يُحِبُّهُ منكَ. وقيلَ: هيَ نارٌ تَحْرِقُ منَ القَلْبِ ما سِوَىٰ مُرادِ المحبوبِ.
- وقِيلَ: هيَ ذِكْرُ المحبوبِ علىٰ عَدَدِ الأنْفاسِ.
- وقالَ يَحْيَىٰ بنُ معاذٍ: مِثْقالُ خَرْدَلَةٍ مِنَ الحُبِّ أَحَبُّ إليَّ من عِبَادةِ سبعينَ سنةٍ بِلَا حُبٍّ.

---

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 309.

وقال أبو بكر الكتانِيُّ: جَرَتْ مَسْأَلَةٌ في المَحَبَّةِ بِمَكَّةَ أيَّامَ المَوْسِمِ[1]، فتكَلَّمَ الشيوخُ فيها، وكانَ الجُنَيْدُ أصغرَهم سِنًّا، فقالوا: هاتِ ما عندَك يا عِرَاقِيُّ، فَأَطْرَقَ رأسهُ، ودَمَعَتْ عَيْناهُ، ثمَّ قالَ: عَبْدٌ ذاهبٌ عنْ نَفْسِهِ، مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ ربِّهِ، قائمٌ بأداءِ حقوقِهِ، ناظرٌ إليهِ بِقَلْبِه، أَحْرَقَتْ قلبَه أنوارُ هَيْبَتِهِ، وَصَفَا شُرْبُهُ منْ كَأْسِ وُدِّهِ، فإنْ تَكَلَّمَ فباللهِ، وإنْ نَطَقَ فَمِنَ اللهِ، وإنْ تَحَرَّكَ فَبِأَمْرِ اللهِ، وإنْ سَكَتَ فمعَ اللهِ؛ فهوَ باللهِ، وللهِ، ومعَ اللهِ، فَبَكَىٰ الشيوخُ، وقالُوا: ما علَىٰ هذا مزيدٌ، جَبَرَكَ اللهُ يا تاجَ العارفينَ»[2].

(1) يُقْصَدُ بالمَوْسِمِ هنا موسم الحجِّ.

(2) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية: 1/ 19.

إِعْذَارٌ وتَصْدِيقٌ

وقد صدقوا أجمَعُون؛ فَكُلُّهم طَعِمُوا طَعْمَ المحبةِ، وكُلُّهم وصفَ المحبةَ مِنْ ذَوْقِه هوَ، إذِ المحبةُ مَناهِلُ واسعةٌ، وَوجْدانَاتٍ مُتَوارِدةٌ، وأذواقٌ مُتَنَوِّعةٌ، فليسَ بالضرورةِ من ذاقتْ طَعمًا أنْ تذوقَ كلُّ أُهَيْلاتِ[1] المحبةِ الذوقَ نفسَهُ، وهذا مُجَرَّبٌ في الأذواقِ المألوفةِ، والأطعمةِ المعهودةِ، حتَّىٰ إنَّه لتَتَذَوَّقُ المادَّةَ نفسها ذَوَّاقتانِ ثِنْتَانِ، فَتَصِفُ كلٌّ مِنْهُما غيرَ ما وَصَفَتْ صاحِبَتُها، بل لَرُبَّما ذاقتْ ذاتُ المرأةِ مذاقًا؛ فَوَصَفَتْهُ، ثمَّ ذاقتِ المذاقَ نَفْسَهُ مرةً أخرَىٰ فَوصفتْ وصفًا غير الأوَّلِ، ونَعَتَتْ لذةً أُخْرَىٰ، فكيفَ بهذا الخِضَمِّ الكبيرِ، والبحرِ الزخَّارِ؟! فإنه لا يكادُ يتفق لاثنتين وصفُ المحبةِ نفسِه، نسألُ اللهَ بعظيمِ مَنِّه وجزيلِ هِبَاتِه أنْ يُذِيقَنا منها ما تَقَرُّ به عُيُونُنَا، وتَأْنَسُ به نفوسُنا، وتَلْتَذُّ به قلوبُنا؛ إنه كريمٌ وهَّابٌ.

(1) أهيلات: تصغير كلمة (أهل)، والمقصود من تَأَهَّلْنَ للمحبة، وأصبحْنَ أهلًا لها.

نماذجُ لِلْمُحِبَّاتِ الصالحاتِ

ولقد جرىٰ مِنْ وجداناتِ المحبةِ الكثيرُ لنساءٍ صالحاتٍ، فاقَ وَصْفُهُ الخيالَ، ومن لطيف ما رُوِيَ في مَحَبَّةِ النساءِ لربهنَّ ما روىٰ ابنُ الجوزي -رحمه الله- في صِفَةِ الصَّفْوَةِ عن بعضِ المُحِبَّاتِ للهِ، مِنْهُنَّ:

فاطمةُ بنتُ مُحَمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ

«عنْ إبراهيمَ بنِ مُسْلِمٍ القُرَشِيِّ، قالَ: كانتْ فاطمةُ بنتُ مُحَمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ تكونُ نهارَها صائمةً، فإذا جَنَّها الليلُ؛ تنادِي بصوتٍ حزينٍ: هَدَأَ الليلُ، واختلَطَ الظلامُ، وأَوَىٰ كلُّ حبيبٍ إلىٰ حبيبِه، وخلْوَتِي بكَ أيها المحبوبُ أن تُعْتِقَنِي مِنَ النارِ»[1].

خَنْساءُ بنتُ خدامٍ

«عنْ حَفْصِ بنِ عمرٍو الجُعْفِيِّ، قال: كانتْ باليَمَنِ امرأةٌ منَ العربِ جليلةً جهوريةً حُسْنًا وجَمَالًا، يُقال لها: خَنْساءُ بنتُ خدامٍ، فصامتْ أربعينَ عامًا حتَّىٰ لَصَقَ جِلْدُها بِعَظْمِها، وبَكَتْ حتَّىٰ ذهبتْ عيناها، وقامتْ حتَّىٰ أُقْعِدَتْ منْ رِجْلَيْها، وكان طاووسٌ، وَوَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ يُعَظِّمَان قَدْرَهَا، وكانتْ إذا جَنَّ عليها الليلُ، وهَدَأَتِ العيونُ، وسَكَنَتِ الحركاتُ؛ تُنَادِي بِصَوْتٍ لها حزينٍ: يا حبيبَ المُطِيعِينَ، إلَىٰ كَمْ تحْبِسُ خدودَ المُطيعينَ

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 409.

فِي التُّرابِ؟ ابعثهُمْ حتَّىٰ يُنْجَزُوا مَوْعِدَك الصادقَ الذي أَتْعَبُوا له أنفُسَهُم، ثمَّ أَنْصَبُوها، قال: فَيُسْمَعُ البكاءُ مِنَ الدُّورِ حولَها»[1].

حَبِيبَةُ العَدَوِيَّةُ

«عنْ عبدِ اللهِ المَكِّيِّ أَبِي مُحَمَّدٍ، قالَ: كانتْ حبيبةُ العَدَوِيَّةُ إذا صَلَّتِ العَتَمَةَ؛ قامتْ علىٰ سُطْحٍ، فَشَدَّتْ عَلَيْها دِرْعَها وخِمَارَها؛ فقالتْ: إِلَهِي غَارِتِ النجومُ، ونامتِ العيونُ، وغَلَّقَتِ الملوكُ أبوابَها، وبابُكَ مَفْتوحٌ، وخَلَا كلُّ حبيبٍ بِحبيبِهِ، وهذا مقامِي بينَ يديكَ، فإذا كانَ السَّحَرُ؛ قالتْ: اللهمَّ هذا الليلُ قَدْ أَدْبَرَ، وهذا النهارُ قدْ أَسْفَرَ؛ فليتَ شِعْرِي هلْ قَبِلْتَ مِنِّي لَيْلَتِي، فأُهَنَّىٰ، أمْ رَدَدْتَها عليَّ فأُعَزَّىٰ؟ فَوَعِزَّتِكَ، لَهَذا دَأْبِي ودَأْبُكَ أبدًا ما أَبْقَيْتَنِي، وعزتكَ، لو انْتَهَرْتَنِي ما بَرِحْتُ من بابِكَ، ولا وقَعَ فِي قلبِي غيرُ جُودِكَ وكَرَمِكَ»[2].

---

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 461.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 246.

وِقْفَةٌ لازِمَةٌ

وبعدما رأيتِ مِنْ شَرَف محبةِ اللهِ ما رأيتِ، وبعدمَا قرأتِ عن أحوالِ المُحِبَّاتِ ما قرأتِ، فهلْ بَقِيَ بعد محبةِ اللهِ مطلوبٌ؟ وهلْ يَعْدِلُ الخلوةَ بِهِ والقربَ منْهُ الخلوةُ بأزواجِ الدنيا ورِجَالِها؟ ألا فَلْتَهْنأْ مُحِبَّاتُ الرحمنِ، اللاتِي طالَ شَوْقُهُنَّ ومَحَبَّتُهُنَّ إلىٰ اللهِ أشَدَّ من اشتياقِ نساءِ الدنيا لأزواجِهنَّ طالتْ غَيْبَتُهم عَنْهُنَّ؛ قال ابنُ القَيِّمِ في رَوْضَةِ المُحِبِّينَ: «طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقاءِ ربِّهمْ، وقد قالَ اللهُ -تعالىٰ-: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[1].

قالَ بعضُ العارفينَ: لَمَّا عَلِمَ اللهُ شَوقَ المُحِبِّين إلىٰ لقائِه؛ ضَرَبَ لهمْ مَوْعِدًا لِلِّقَاء؛ تَسْكُنُ به قُلوبُهم»[2].

(1) العنكبوت: 5.

(2) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية: 1/ 30.

السَّبِيلُ إِلَى تَحْقِيقِ مَحَبَّةِ اللهِ

ولِتحقُّقِ محبةِ اللهِ في قلبِ الأمةِ المسلمةِ سُبُلٌ ثلاثةٌ:

الأول: التَّحَبُّبُ إلى الله -تعالى- بالصبرِ على مِحْنَةِ التَّأَيُّمِ

أَمَّا السبيلُ إلىٰ أنْ تُحَقِّقَ المرأةُ الأيِّمُ مَحَبَّةَ اللهِ -تَعالَىٰ-، فَقَدْ بَيَّنَها اللهُ -تعالَىٰ- بقولِه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[1].

- قال الفَخْرُ الرازي: «وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ تَحَمُّلِ الشَّدَائِدِ فِي طَرِيقِ اللهِ، وَلَمْ يُظْهِرِ الْجَزَعَ وَالْعَجْزَ وَالْهَلَعَ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّهُ، وَمَحَبَّةُ اللهِ -تَعَالَىٰ- لِلْعَبْدِ تقتضي إِكْرَامَه وَإِعْزَازَه وَتَعْظِيمه، وَالْحُكْمِ لَهُ بِالثَّوَابِ وَالْجَنَّةِ، وَذَلِكَ نِهَايَةُ الْمَطْلُوبِ»[2].

* فما علىٰ المرأةِ الأيِّمِ إنْ هيَ أرادتْ بلوغَ منزلةِ مَحَبَّةِ الرحمنِ إلا أنْ تَتَحَبَّبَ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- بالصبرِ علىٰ ما قَدَّرَ اللهُ لها مِنْ عَدَمِ الزواجِ؛ فإنَّ للهِ -تعالىٰ- إماءً صالحاتٍ، لا يَعْلَمْنَ شيئًا يُحِبُّهُ اللهُ -تعالىٰ- من عبادِه حتَّىٰ يُسَارِعْنَ إليهِ، ويَبْذُلْنَ المَجْهُودَ مِنْ أنفُسِهِنَّ في بلوغِه وتحصيله، لِعِلْمِهِنَّ أنَّ ذلكَ مِمَّا يُرْضِي اللهَ -تعالىٰ- ويُحَبِّبُه فيهِنَّ؛ ولَمَّا سَمِعْنَ خِطَابَ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، وعَلِمْنَ أنَّ اللهَ -تعالىٰ- يحبُّ الصابراتِ؛ اسْتَطَبْنَ الصَبْرَ واسْتَعْذَبْنَهُ؛ لِعِلْمِهِنَّ أنهُ محبوبٌ إلَىٰ اللهِ -تعالىٰ- فإنَّ حقيقةَ

---

(1) آل عمران: 146.

(2) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة آل عمران: 9/ 381.

المحبةِ كما ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ: «إيثارُ المَحْبوبِ علىٰ جميعِ المصحوبِ، ومُوافَقَةُ الحبيبِ في المَشْهَدِ والمغيبِ، وإيثارُ مُرادِ المحبوبِ علىٰ مُرادِ المُحِبِّ، وأنْ تَهَبَ كُلَّكَ لِمَنْ أَحْبَبْتَهُ، فلا يَبْقَىٰ لكَ مِنْكَ شيءٌ»[1].

الثاني: الصبرُ على التّأيُّمِ أحَبُّ للعاقلةِ مِنْ كُلِّ مَفْقُودٍ

فلا تَتِمُّ محبةُ المُحِبِّ لمحبوبِه حتَّىٰ يُوافِقَهُ في كلِّ ما يحبُّ، حتَّىٰ لوْ خالفَ مَحْبُوبَ نَفْسِهِ هُوَ؛ فإذا كانَ تَأَيُّمُ المرأةِ قضاءٌ من اللهِ -تعالىٰ- أحبَّ وُجُودَه فِي أَمَتِهِ؛ فليسَ لِلْأَمَةِ التِي تَنْشُدُ محبةَ اللهِ إلا أنْ تُحبَّ ما أحبَ اللهُ؛ فيكونُ تأيُّمُهَا الذي قضاهُ اللهُ -تعالىٰ- أحبَّ إليها من الزَّواجِ. عِلَمت هذا المُوَفَّقات فَتَحَبَّبْنَ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- بالصبرِ، بل صارَ الصبرُ علىٰ البلايا عِنْدَهنَّ أحبَّ منَ العافيةِ.

ذَكَرَ ابنُ الجَوْزِيِّ: «عنْ يَحْيَىٰ بنِ بُسْطامٍ، قالَ: دخلتُ معَ نَفَرٍ منْ أَصْحَابِنا علىٰ عفيرةَ، وكانتْ قد تَعَبَّدَتْ، وبَكتْ حتَّىٰ عَمِيَتْ، فقالَ بعضُ أصحابِنا لرجلٍ إلىٰ جَنْبِهِ: ما أشدَّ العَمَىٰ علىٰ مَنْ كانَ بصيرًا! فَسَمِعَتْهُ عفيرةُ؛ فقالتْ لهُ: يا عبدَ اللهِ، عَمَىٰ القلبِ -واللهِ- عنِ اللهِ أشدُّ منْ عَمَىٰ العينِ عن الدنيا، واللهِ وَدِدْتُ أنَّ اللهَ وَهَبَ لِي كُنْهَ محبَّتِه، وأنَّه لم تَبْقَ مِنِّي جارِحةٌ إلا أَخَذَها»[2].

* وهذه منزلةٌ لا تبلغُها كلُّ امرأةٍ، وإنَّما هيَ منزلةُ اللاتِي وفَّقَهُنَّ اللهُ -تعالىٰ- لبلوغِ أَسْمَىٰ مَراتِبِ الإيمانِ؛ فإنَّ محبةَ ربِّ العالمينَ مُنْتَهَىٰ غاياتِ المُقَرَّبِينَ؛ أَنْزَلَنَا اللهُ هذهِ المَنْزِلَةَ بِجُودِه وكَرَمِه؛ إنَّهُ أكرمُ مَرْجُوٍّ وخيرُ مأمولٍ.

---

(1) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية: 1/ 19.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 247.

الثالث: التَّحَبُّبُ إلى اللهِ -تعالى- بِدَوامِ طَاعَتِهِ

إذا تَحَبَّبَتْ نساءُ الدنيا إلىٰ أزواجِهنَّ مِنْ أهلِ الأرضِ بطاعتِهِمْ، وطَلَبْنَ القُرْب منهم بدوامِ خِدْمَتِهِمْ؛ فجديرٌ بالمسلمةِ الأيِّمِ أنْ تَتَحَبَّبَ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- بدوامِ طاعتِهِ، وتَتَقَرَّبَ إليهِ بالقيامِ علىٰ ساقِ العُبُودِيَّةِ بالمحافظةِ علىٰ الفرائضِ علىٰ وَجْهِهَا الذِي يحبُّهُ اللهُ، ثمَّ بالإكثارِ منَ النوافلِ التِي يحبُّها اللهُ -تعالىٰ- آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، فإنه مَنْ أحبَّ أحدًا سَعَىٰ في خِدْمَتِهِ ومَرْضاتِهِ، واستَعذَبَ طاعتَه؛ وإنَّ أحبَّ عُمَّالِ ملوكِ الأرضِ إليهمْ أكثرُهُم لهم طاعةً، وأسرَعُهُم لهم استجابةً، فإذا كانَ هذا حالَ العبدِ مع أخيه العبدِ، فما الظنُّ بطاعةِ الملكِ الأعظمِ -سبحانَه وتعالىٰ-.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ؛ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

ففي هذا الحديثِ بيانٌ لِمَا يُحَبِّبُ الربَّ الجليلَ بعبادِه وإمائِه، وسَيَأْتِي بعدُ القولُ في العبادةِ التِي يحبُّها اللهُ منْ إمائِهِ وعبيدِهِ تحتَ عُنْوانِ: (التَأَيُّمُ فرصةٌ للعبادةِ).

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: التواضع: 8/ 105.

عَجْرَدَةُ العَمِيةُ مَثَلٌ حَسَنٌ

عَلِمَتْ هذا المُوَفَّقاتُ فبذَلْنَ المَجْهودَ مِنْ أنفسهنَّ لبلوغِ محبةَ اللهِ -تعالىٰ- والقربِ منه، ذَكَرَ ابنُ الجَوْزيِّ، عن رجاءِ بنِ مُسْلِمٍ العَبْدِيِّ، قال: «كُنَّا نكونُ عندَ عَجْرَدَةَ العَمِيةِ في الدارِ، قال: فكانتْ تُحْيِي الليلَ صلاةً، تقومُ مِنْ أوَّلِ الليلِ إلىٰ السَّحَرِ، فإذا كانَ السَّحَرُ نادتْ بصوتٍ لها محزونٍ: إليكَ قَطَعَ العابدون دُجَىٰ الليالي بِتَبْكِيرِ الدُّلَجِ[1] إلىٰ ظُلَمِ الأَسْحَارِ، يَسْتَبِقُونَ إلىٰ رَحْمَتِكَ وفَضْلِ مغفرتِكَ؛ فَبِكَ إلهي، لا بِغَيْرِكَ أَسْأَلُكَ أن تَجْعلَنِي في أوَّلِ زُمْرَةِ السَّابقين إليكَ، وأنْ تَرْفَعَنِي إليكَ فِي دَرَجَةِ المُقَرَّبينَ، وأنْ تُلْحِقَنِي بعبادِكَ الصالحينَ، فأنتَ أكرمُ الكُرَمَاءُ، وأرحمُ الرُّحَماءِ، وأعظمُ العُظَماءِ، يا كريمُ؛ ثمَّ تَخِرُّ ساجدةً، فلا تزالُ تبكِي وتدعو في سُجُودِها حتىٰ يَطْلُعَ الفجرُ، فكانَ ذلكَ دَأْبُها ثلاثينَ سنةً»[2].

* فإنِ استطاعتِ المسلمةُ ألَّا يسبقَها إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- أحدٌ فَلْتَفْعلْ؛ فإنَّ السابقةَ هنا، سابقةٌ هناك؛ إنْ شاءَ اللهُ -تعالَىٰ-.

(1) الدلج: يدل علىٰ سير ومجيء وذهاب. ولعل ذلك أكثر ما كان في خفية. فالدلج: سير الليل، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 2/ 294.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 246.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

لا أَسَفَ عَلَى دارِ الدُّنْيا

إنما تهونُ همومُ الدنيا وأحزانُها علىٰ المسلمةِ الأيِّمِ المُبْتَلاة إذا عَلِمَت حقيقةَ الدنيا، وسَبَرَتْ أَغْوَارَها[1]، وخَبَرَتْ أسرارَها، وليسَ ذلكَ إلا لمؤمنةٍ قرأتْ كتابَ الله ﷻ، وفهمتْ عن ربِّها مُرادَهُ، وأصغَتِ القلبَ إلىٰ بلاغِ رسولِ اللهِ ﷺ، ففيهِمَا بيانُ حقيقةِ هذهِ الدارِ، وكشفُ أستارِها.

(1) السبر: التجربة، وسبر الشيء سبرًا: حَزَرَه وخبره. والسبر: استخراج كنه الأمر، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 430.

جلاءُ صورةِ الدُّنْيَا

فإنَّ اللهَ ﷻ لمَّا خَلَقَها زينَها للناسِ بكلِّ زينةٍ، وحلَّاها بكل حِلْيةٍ؛ فتنةً لهمْ واختبارًا، ثمَّ لمْ يَتْركْ عبادَه لها صَيْدًا، ولم يُملِّكها مِنْهُم قَيْدًا؛ فجلَّاها في كتابِه لعبادِه وأوليائِه، وكشفِ حقيقتِها لصفوتِه وأحبابِه؛ فَبَدَت لهم علىٰ حقيقَتِها شَوْهاءَ هَتْمَاءَ عَوْراءَ عَرْجَاء، عليها مِنْ كلِّ ثيابِ القُبْحِ لونٌ؛ فتَّاكةً غَدَّارةً، غَرَّارةً، كمْ لها من أبنائِها مِنْ قتيلٍ، ومِنْ عُشَّاقِها مِنْ صَريعٍ؟! إذا أفرحتْ ساعةً، أحزنتْ دهْرًا، وإذا أضحكتْ دقيقةً، أبكت زَمَنًا؛ مَنْ صَحَّ فيها سَقِمَ، ومَنِ اغْتَنَىٰ بها افْتَقَر، ومَنْ شَبَّ فيها هَرِمَ، ومنْ عاشَ فيها قُبِرَ؛ مَنْ أقبل عليها وَلَّتْ عنهُ، ومَنْ أدبرَ عنها طَلَبَتْه، ومن أَحَبَّهَا ظَفِرَت به واسْتَرَقَّتْه، ومَنْ أبغضَها حَرَّرَتْه؛ كثيرُها قليلٌ، حلْوُها مَريرٌ، طَعامُها غَصَيص[1]؛ حَلَالُها حِسَابٌ، حرامُها عذابٌ، ومنْ أرادتْ بُرْهانَ ذلكَ فلتنظرْ في أحوالِ أهلِها، لِتَزُرِ المستشفياتِ لا سيما أقسام: الأورام، والحروقِ، والكُلَىٰ، ولْتَشْهَدِ المُحْتَضِرِينَ، وهم يُوَدِّعون الدنيا، ويعالجون غُصَصَ الموتِ وكُرُباتِه، أرواحُهم تَتَفَلَّتُ منهم، وحولَهمْ مَنْ لا يَمْلكُ لهم نفعًا، ولا يُرجَىٰ مِنْهُ شفاعةً، قد عَظُمَتْ حسرتُهم علىٰ ما فاتَ مِنْ أيامِ الدنيا، ولسان حالهم: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾[2]، ثمَّ لِتَتَتَبَّعْ أخبارَ أمواتِ بنات زمانِها من صغيرةٍ وكبيرةٍ، وغَنِيّةٍ وفقيرةٍ، ولْتَجْلِس علىٰ أبوابِ محاكمِ القضاءِ الشرعيةِ، ولْتَنْظُرْ كمْ هيَ الخلافاتُ الزوجيَّةُ؟! .... والبرهان كل البرهان في كلام الرحمن!

---

(1) الْغُصَّةَ عَارِضٌ فِي الْحَلْقِ سَبَبُهُ الطَّعَامُ أَوِ الشُّرْبُ الَّذِي لَا يُسْتَسَاغُ لِبَشَاعَةٍ أَوْ يُبُوسَةٍ، انظر: تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، سورة المزمل: 29/ 271.

(2) المؤمنون: 99، 100.

إِطْلالَةٌ علَى الدُّنْيا مِنْ نافذةِ القرآنِ

المشهدُ الأول: للدنيا منْ سورةِ آل عمران

قالَ -تعالىٰ- واصفًا زينةَ الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1]، بَيَّنَ اللهُ -سبحانه- لعبادِه وأوليائِه هذهِ المُزَيَّناتِ المُحَبَّباتِ العاجلاتِ الفانياتِ حتَّىٰ لا ينخدِعُوا بَجَذْبَتِها وشهوتِها، وكَيْلَا يَغْتَرُّوا بظاهرِ زينتِها؛ ثمَ أعقبَها بما يُقابِلُها؛ بصورةٍ لزينةٍ أخرَىٰ، هي أرفعُ منها وأعزُّ، بلْ لا مقارنةَ بينهما إلا في الأسماءِ والكلماتِ والحروفِ، أمَّا في الحقائقِ، فلا مقارنةَ بين ما هو زينةٌ عاجلةٌ مُنْقَضِيةٌ فانيةٌ، وبينَ ما هو مُتْعَةٌ حقيقيةٌ خالدةٌ مُؤَبَّدةٌ سَرْمَدِيَّةٌ[2]، بينَ ما هو فتنةٌ واختبارٌ، وبينَ ما هوَ مُكافأةٌ وإكرامٌ، بينَ ما تَتولَّدُ آلامُها من نفس لَذَّاتِها، وبين لَذَّةٍ خالصةٍ، لا تشُوبُها شائبةٌ، ولا يُعَكِّرُ صفْوَها كَدَرٌ، فقال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[3]، وعند إمْعانِ النظرِ في الآيتينِ، والمقارنةِ بين الزِّيَنَتَيْنِ ينْجلِي الغبارُ، ويَظْهَرُ البَوْنُ العظيمُ، والفَرْقُ

---

(1) آل عمران: 14.

(2) السَّرْمَدُ: الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ، مِنَ السَّرْدِ وَهُوَ الْمُتَابَعَةُ، انظر: تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، سورة القصص: 20/ 169.

(3) آل عمران: 15.

الكبيرُ بينَ الدارَيْنِ، وبينَ الزِّينَتَيْنِ، ويَتَكَشَّفُ منَ الحقائقِ ما لمْ يكنْ بالحُسْبانِ، ولمْ يَخْطُرْ لإنسٍ ولا جِنٍّ علىٰ بالٍ.

تفسيرُ الشيخِ السَّعْدِيِّ للآيةِ

قال السَّعْدِيُّ: «يخبرُ -تعالىٰ- أنه زيَّنَ للناسِ حبَّ الشهواتِ الدنيويةِ، وخَصَّ هذه الأمورَ المذكورةَ لأنها أعظمُ شهواتِ الدنيا، وغيرُها تَبَعٌ لها، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾[1]، فلما زُيِّنتْ لهم هذه المذكوراتُ بما فيها من الدَّواعِي المثيراتِ، تعلَّقتْ بها نفوسُهم، ومالتْ إليها قلوبُهم، وانقسموا بحسبِ الواقعِ إلىٰ قسمين: قسمٍ: جعلوها هي المقصودَ، فصارتْ أفكارُهم وخواطرُهم وأعمالُهم الظاهرةُ والباطنةُ لها، فشغلَتْهُمْ عما خُلِقُوا لأجلِهِ، وصَحِبوها صُحبةَ البهائمِ السائمةِ، يتمتَّعونَ بلذاتِها ويتناولون شهواتِها، ولا يبالون علىٰ أيِّ: وَجْهٍ حَصَّلُوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاءِ كانتْ زادًا لهم إلىٰ دارِ الشقاءِ والعناءِ والعذابِ، والقسمِ الثانِي: عَرَفُوا المقصودَ منها، وأنَّ اللهَ جعلَهَا ابتلاءً وامتحانًا لعبادِه، لِيَعْلَمَ مَنْ يُقَدِّمُ طاعتَه ومرضاتَه علىٰ لذاتِه وشهواتِه، فجعلوها وسيلةً لهم وطريقًا يَتَزَوَّدون منها لآخرتِهم، ويَتَمَتَّعونَ بما يتمتَّعون به علىٰ وجهِ الاستعانةِ به علىٰ مرضاتِه، قد صَحِبُوها بأبدانِهم، وفارقوها بقلوبِهم، وعَلِموا أنها كما قال اللهُ فيها: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ فجعلوها معبرًا إلىٰ الدار الآخرة، ومَتْجَرًا يَرْجُونَ بها الفوائدَ الفاخِرَةَ، فهؤلاءِ صارتْ لهم زادًا إلىٰ ربِّهم. وفي هذه الآية تَسْلِيةٌ للفقراءِ الذين لا قُدْرَةَ لهم علىٰ هذه الشهواتِ التي يَقْدِرُ عليها الأغنياءُ، وتَحْذيرٌ للمُغْتَرِّينَ بها وتزهيدٌ لأهلِ العُقُولِ النيِّرَةِ بها، وتمامُ ذلك أنَّ اللهَ -تعالىٰ- أخبرَ بعدها عنْ دارِ القرارِ ومصيرِ المُتقينَ

---

(1) الكهف: 7.

الأبرارِ، وأخبرَ أنها خيرٌ من ذلكمُ المذكورِ، ألا وهيَ الجناتُ العالياتُ ذاتُ المنازلِ الأَنِيقَةِ والغُرَفِ العاليةِ، والأشجارِ المُتَنَوِّعةِ المُثْمرةِ بأنواعِ الثمارِ، والأنهارِ الجاريةِ علىٰ حسبِ مُرادِهم، والأزواجِ المُطَهَّرَةِ من كلِّ قَذَرٍ ودَنَسٍ وعَيْبٍ ظاهرٍ وباطنٍ، مع الخلودِ الدائمِ الذي به تمامُ النعيمِ، مع الرضوانِ منَ اللهِ، الذي هو أكبرُ نعيمٍ، فَقِسْ هذه الدارَ الجليلةَ بتلكَ الدارِ الحقيرةِ، ثمَّ اخترْ لنفسِكَ أَحْسَنَهما، واعْرِضْ علىٰ قَلْبِكَ المفاضلةَ بينهما»[1].

المشهدُ الثاني: للدنيا منْ سورةِ القَصَصِ

وأخبر -سبحانه- عن صفتها بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

تفسيرُ الطَّبَرِيِّ للآيةِ

قال الطبريُّ: «القول في تأويلِ قولِهِ -تعالىٰ-: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقولُ -تعالىٰ ذِكْرُه-: وما أُعْطِيتُمْ أيها الناسُ من شَيْءٍ من الأموالِ والأولادِ، فإنَّما هوَ متاعٌ تَتَمتَّعونَ بِهِ في هذهِ الحياةِ الدنيا، وهو مِنْ زينتِها التِي يُتَزَيَّنُ بِهِ فيها، لا يُغْنِي عنكمْ عندَ اللهِ شيئًا، ولا ينفعُكُمْ شيءٌ منه في معادِكُمْ، وما عندَ اللهِ لأهلِ طاعتِهِ وولايَتِهِ خيرٌ ممَّا أُوتيتُموهُ أنتُمْ في هذه الدنيا من متاعِها وزينتِها وأَبْقَىٰ، يقولُ: وأَبْقَىٰ لأَهْلِهِ؛ لأَنَّهُ دائمٌ لا نفادَ لهُ»[3].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي، سورة آل عمران: 1/ 123.

(2) القصص: 60.

(3) جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، سورة القصص: 19/ 604.

تفسيرُ ابنُ كثيرٍ للآيةِ

قال ابنُ كثيرٍ: «يقولُ -تعالَىٰ- مُخْبِرًا عنْ حقارَةِ الدنيا، وما فيها منَ الزينةِ الدنيئَةِ والزهرةِ الفانيةِ بالنسبةِ إلىٰ ما أَعَدَّهُ اللهُ لعبادِهِ الصالحينَ في الدارِ الآخرةِ من النعيمِ العظيمِ المُقيمِ، كما قال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [1]، وقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾» [2].

المشهدُ الثالث: للدنيا منْ سورةِ الحديدِ

أما صفة الدنيا في سورة الحديد فكما قال -تعالىٰ-: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [3].

تفسيرُ البيضاويِّ للآيةِ

قال البيضاوي: «لمَّا ذَكَرَ حالَ الفَرِيقَيْنِ في الآخرةِ حَقَّرَ أمورَ الدنيا، أَعْنِي ما لا يُتَوَصَّلُ به إلىٰ الفوزِ الآجلِ؛ بأنْ بيَّنَ أنها أمورٌ خَيَالِيَّةٌ قليلةُ النَفْعِ، سريعةُ الزوال؛ لأنَّها لَعِبٌ يُتْعِبُ الناسُ فيه أنفُسَهمْ جِدًّا إتعابَ الصبيانِ في الملاعبِ منْ غيرِ فائدةٍ، ولهوٌ يُلْهُونَ به أنفُسَهم عمَّا يَهُمُّهُم، وزينةٌ كالملابسِ الحَسَنَةِ، والمواكبِ البَهِيَّةِ، والمنازلِ الرفيعةِ، وتفاخرٌ بالأنسابِ، أو تكاثرٌ بالعَدَدِ والعُدَدِ ثمَّ قَرَّرَ ذلكَ بقولِه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ وهو تمثيلٌ لها في سرعةِ تَقَضِّيهَا، وقِلَّةِ جَدْوَاها بحالِ نباتٍ أَنْبَتَهُ الغيثُ، فاسْتَوَىٰ وأُعْجِبَ بِهِ الحُرَّاثُ أو الكافرون باللهِ؛ لأنَّهُم أشدُّ إعجابًا بزينةِ

---

(1) النحل: 96.

(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة القصص: 6/ 244.

(3) الحديد: 20.

الدنيا، ولأنَّ المؤمنَ إذا رأىٰ مُعْجِبًا انتقلَ فكرُه إلىٰ قدرةِ صانِعِهِ؛ فأُعْجِبَ بها، والكافرُ لا يَتَخَطَّىٰ فِكْرُهُ عمَّا أَحَسَّ به، فيستغرقُ فيه إعجابًا، ثُمَّ هاجَ أَيْ: يَبَسَ بِعَاهةٍ فاصْفَرَّ، ثم صارَ حُطامًا، ثم عظَّم أمورَ الآخرةِ الأَبَدِيَّةِ بقولِه: ﴿وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ تنفيرًا عن الانهماكِ في الدنيا، وحَثًّا علَىٰ ما يوجِبُ كرامةَ العُقْبَىٰ، ثم أَكَّدَ ذلك بقولِه:

﴿ومغفرةٌ منَ اللهِ ورضوان﴾، أَيْ: لِمَنْ أَقْبَلَ عليها، ولمْ يطلبْ إلا الآخرةَ ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾، أَيْ: لِمَنْ أقبلَ عَلَيْها، ولَمْ يَطْلُبْ بها الآخرةَ»[1].

تفسيرُ الشيخ السَّعْدِيِّ للآيةِ

وقال السعدي: «يخبرُ -تعالىٰ- عن حقيقةِ الدنيا وما هيَ عليه، ويبينُ غايتَها وغايةَ أهلِها، بأنها لَعِبٌ ولهوٌ، تلعبُ بها الأبدانُ، وتلهو بها القلوبُ، وهذا مِصْداقُه ما هو موجودٌ وواقعٌ من أبناءِ الدنيا، فإنك تَجِدُهم قد قَطَعُوا أوقاتَ أعمارِهم بلهوِ القلوبِ، والغفلةِ عن ذِكْرِ اللهِ وعمَّا أمامَهم من الوعدِ والوعيدِ، وتراهُم قدِ اتَّخذوا دينَهم لَعِبًا ولهوًا، بخلافِ أهلِ اليَقَظَةِ وعُمَّالِ الآخرةِ، فإنَّ قلوبَهم معمورةٌ بذكرِ اللهِ، ومعرفتِهِ ومحبَّتِه، وقد أَشْغلُوا أوقاتَهم بالأعمالِ التِي تُقَرِّبُهم إلىٰ اللهِ، منَ النَّفْعِ القاصرِ والمُتَعَدِّي. وقوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أَيْ: تُزَيَّنُ في اللباسِ والطعامِ والشرابِ، والمراكبِ والدورِ والقصورِ والجاهِ، وغير ذلك ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾، أَيْ: كلُّ واحدٍ من أهلِها يريدُ مُفاخَرةَ الآخَرِ، وأنْ يكونَ هو الغالبَ في أمورِها، والذي له الشُّهْرةُ في أحوالِها، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ﴾، أَيْ: كلٌّ يريدُ أنْ يكونَ هو الكاثِرَ لغيرِه في المالِ والوَلَدِ، وهذا مِصداقُه وقوعُه مِنْ مُحِبِّي الدنيا، والمُطْمَئِنِّينَ

(1) تفسير: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، سورة الحديد: 5/ 189.

إليها. بخلافِ مَنْ عَرَفَ الدنيا وحقيقَتَها؛ فَجَعلَها معبرًا، ولم يجعَلْها مُستقرًا، فنافسَ فيما يُقَرِبُه إلىٰ اللهِ، واتَّخذَ الوسائلَ التي توصِلُه إلىٰ اللهِ، وإذا رأَىٰ من يُكاثِرُه وينافِسُهُ بالأموالِ والأولادِ، نافَسَهُ بالأعمالِ الصالحةِ. ثم ضربَ للدنيا مثلًا بغيثٍ نزلَ علىٰ الأرضِ، فاختلَطَ به نباتُ الأرضِ مِمَّا يأكلُ الناسُ والأنعامُ، حتىٰ إذا أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها، وأَعْجَبَ نباتَه الكفارُ، الذينَ قَصَرُوا هَمَّهُمْ ونَظَرَهُمْ إلىٰ الدنيا؛ جاءَها منْ أَمْرِ الله ما أَتْلَفَها؛ فهاجَتْ ويَبَسَتْ، فَعادَتْ علىٰ حالِها الأُولَىٰ، كأَنَّه لمْ يَنْبُتْ فيها خضراءُ، ولا رُؤِيَ لها مَرْأَىٰ أَنِيقٌ، كذلكَ الدنيا، بينما هيَ زاهيةٌ لصاحبِها زاهرةٌ، مهما أرادَ من مَطالِبِها حَصَلَ، ومهما تَوَجَّهَ لأمرٍ من أمورِها وَجَد أبوابَهُ مُفَتَّحَةً، إذْ أصابَها القَدَرُ بما أَذْهَبَها منْ يَدِهِ، وأزالَ تَسَلُّطَهُ عليها، أوْ ذَهَبَ بِهِ عَنْها، فَرَحل منْها صِفْرَ اليَدَيْنِ، لم يتزودْ منها سِوىٰ الكَفَنِ، فَتبًا لمن أَضْحَتْ هيَ غايةَ أُمْنِيَّتِه، ولها عَمَلُه وسَعْيُهُ»[1].

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي، سورة آل عمران: 1/ 841.

إِطْلالةٌ عَلَى الدُّنيا منْ نافذةِ السُّنَّةِ

المثل الأول: مَثَلٌ لِقِلَّةِ الدنيا مُقابِلَ الآخرةِ

عن المُسْتَوْرِد بن شَدَّاد ﷺ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي اليَمِّ[1]، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ! »[2].

➢ شَرْحُ ابنِ حَجَرٍ العَسْقَلَانيِّ للحديثِ

قالَ ابنُ حَجَرٍ: «وإنما أَوْرَدَ ذلكَ علىٰ سبيلِ التمثيلِ والتقريبِ، وإلا فَلا نِسْبَةَ بينَ المُتناهِي وبينَ ما لا يَتَنَاهَىٰ، وإلىٰ ذلكَ الإشارةُ بقولِه: «فلينظرْ بِمَ يرجعُ» وَوَجْهُهُ أنَّ القَدْرَ الذي يتعلقُ بالإصبعِ من ماءِ البحرِ لا قَدْرَ له ولا خَطَر[3]، وكذلكَ الدنيا بالنسبةِ إلىٰ الآخرةِ. والحاصلُ أن الدنيا كالماءِ الذي يَعْلَقُ في الأصبعِ منَ البحرِ، والآخرةُ كسائرِ البحرِ»[4].

➢ شَرْحُ ابنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةَ

وقال ابنُ القَيِّمِ: «فالذِي يرجعُ به أصبعُهُ منَ البحرِ هو مثلُ الدنيا بالنسبةِ إلىٰ الآخرةِ، وهذا مِنْ أحسنِ الأمثالِ، فإنَّ الدنيا مُنْقَطِعةٌ فانيةٌ، والآخرةُ أَبَدِيَّةٌ لا انقطاعَ لها، ولا نِسْبَةَ للمَحْصورِ إلىٰ غيرِ المحصورِ، بل لو فرضَ أنَّ السمواتِ والأرضَ مملوءَتانِ خَرْدَلًا،

---

(1) اليم: هو البحر، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 42.

(2) رواه مسلم، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة: 4/ 2193.

(3) خطر: قيمة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 251.

(4) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 11/ 232.

وبعدَ كُلِّ ألفِ سنةٍ طائرٌ ينقُلُ خَرْدَلَةً؛ لَفَنِيَ الخَرْدَلُ والآخرةُ لا تَفْنَىٰ، فَنِسْبَةُ الدنيا إلىٰ الآخرةِ في التمثيلِ كنسبَةِ خَرْدَلَةٍ[1] واحدةٍ إلىٰ ذلكَ الخَرْدَلِ، ولهذا لو أنَّ البحرَ يَمُدُّهُ مِنْ بعدِهِ سبعةُ أبحُرٍ، وأشجارُ الأرضِ كلُّها أقلامٌ يُكْتَبُ بها كلامُ اللهِ؛ لَنَفِدَتِ الأبْحُرُ والأقلامُ، ولمْ تَنْفَدْ كلماتُ اللهِ؛ لأنها لا بِدَايةَ لها ولا نهايةَ لها، والأبْحُر والأقلام متناهيةٌ»[2].

وقال -رحمه الله-: «فَشَبَّهَ الدُّنْيَا فِي جَنْبِ الْآخِرَةِ بِمَا يَعْلَقُ عَلَىٰ الْإِصْبَعِ مِنَ الْبَلَلِ حِينَ تُغْمَسُ فِي الْبَحْرِ. قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا أُوتِيهَا رَجُلٌ، ثُمَّ جَاءَهُ الْمَوْتُ: لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَىٰ فِي مَنَامِهِ مَا يَسُرُّهُ. ثُمَّ اسْتَيْقَظَ فَإِذَا لَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ. وَقَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ -أَوْ غَيْرُهُ-: نَعِيمُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهِ فِي جَنْبِ نَعِيمِ الْآخِرَةِ أَقَلُّ مِنْ ذَرَّةٍ فِي جَنْبِ جِبَالِ الدُّنْيَا، وَمَنْ حَدَّقَ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ عَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِصَحِيحِ الْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ أَنْ يَقْطَعَهُ أَمَلٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْحَقِيرِ عَنْ نَعِيمٍ لَا يَزُولُ، وَلَا يَضْمَحِلُّ؟ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَقْطَعَهُ عَنْ طَلَبِ مَنْ نِسْبَةُ هَذَا النَّعِيمِ الدَّائِمِ إِلَىٰ نَعِيمِ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالْأُنْسِ بِهِ، وَالْفَرَحِ بِقُرْبِهِ، كَنِسْبَةِ نَعِيمِ الدُّنْيَا إِلَىٰ نَعِيمِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ

---

(1) الخَرْدَلَةُ: واحِدَةُ الخَرْدَلِ، وهو نبات له حب صغيرٌ أسودُ، يُسْتَعْمَلُ في التوابِلِ والطِّبِّ، زِنَةُ الخردلة ربع سمسمة، انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 8/ 250، ومعجم لغة الفقهاء، لقلعجي: 1/ 184.

(2) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية: 1/ 232.

اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾[1]»[2].

وقال -رحمه الله-: «فإيثارُ هذا النَقْدِ علَىٰ هذهِ النَّسِيئَةِ[3] مِنْ أعظمِ الغُبْنِ[4] وأقبحِ الجَهْلِ، وإذا كانَ هذا نسبةَ الدنيا بمجموعِها إلىٰ الآخرةِ؛ فما مقدارُ عمرِ الإنسانِ بالنسبةِ إلىٰ الآخرةِ، فأيُّمَا أَوْلَىٰ بالعاقلِ: إيثارُ العاجلِ في هذهِ المُدَّةِ اليسيرةِ، وحرمانُ الخيرِ الدائمِ في الآخرةِ، أَمْ تركُ شيءٍ حقيرٍ صغيرٍ مُنْقَطِعٍ عنْ قُرْبٍ؛ ليأخذَ ما لا قِيمةَ لهُ ولانهايةَ لِعَدَدِهِ، ولا غَايةَ لِأَمَدِهِ؟»[5].

المثل الثاني: مَثَلٌ لِخِسَّةِ الدنيا وحَقَارَتِها

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا، وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَا يَصِيرُ»[6].

---

(1) التوبة: 72.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 92.

(3) النقد: العاجل، والنسيئة: المؤخر، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 1/ 166.

(4) يُطْلَقُ الْغَبْنُ عَلَىٰ مُطْلَقِ الْخُسْرَانِ، انظر: تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، سورة التغابن: 28/ 275.

(5) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية: 1/ 36.

(6) رواه أحمد في مسنده، حديث عتي بن ضمرة السعدي عن أبي بن كعب: 35/ 161، وحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

شَرْحُ الْمُناويِّ

قال الْمُنَاويُّ: «(إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ) كَنَّىٰ به عن الشرابِ والطعامِ الذي يستحيلُ بَوْلًا وغائِطًا، (جُعِلَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا)، أَيْ: لِحَقَارتِها وقَذَارَتِها، (وَإِنْ قَزَّحَهُ): تَوْبَلَه، وبالَغَ فِي تَحْسينِه، (ومَلَّحَهُ)، أَيْ: صَيَّرَه ألوانًا مَليحَةً، وروىٰ بالتخفيفِ، أي: جُعِلَ فيه الملحُ بَقدرِ الإصلاحِ، (فانظر) تَأَمَّلْ أيُّها العاقلُ المُتَبَصِّرُ، (إِلَىٰ مَا يصيرُ) مِنْ خروجِه غائطًا نَتِنًا نَجِسًا في غايةِ القَذَارةِ، معَ كَوْنِهِ كانَ قَبْلَ ذلكَ ألوانًا طيبةً ناعمةً»[1].

شَرْحُ ابنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةَ

قال ابن القيم: «معناهُ أنَّ اللهَ جَعَلَ طعامَ ابنِ آدمَ، وما يخرجُ مِنْهُ مَثَلًا للدنيا، فإنَّهَ وإنْ قَزَّحَهُ ومَلَّحَهُ فلينظُرْ إلىٰ ماذا يصيرُ فما اغْتَرَّ بها، ولا سَكَنَ إليها إلا ذو هِمَّةٍ دَنِيَّةٍ، وعَقْلٍ حقيرٍ، وقَدْرٍ خسيسٍ»[2].

وقال -رحمه الله-: «إذا فَكَّر في آخرِ الأَطْعِمَةِ المُفْتَخَرَةِ التي تَفانَتْ عليها نفوسُ أشباهِ الأنعامِ، وما يصيرُ أمرُها إليهِ عند خروجها؛ ارْتَفَعتْ هِمَّتُه عن صَرْفِها الىٰ الاعتناءِ بها، وجَعْلِهَا معبودَ قلبِه الذِي إليهِ يتوجَّهُ، وله يَرْضَىٰ، ويَغْضَبُ، ويَسْعَىٰ، ويَكْدَحُ، ويُوالِي، ويُعادِي، كما جاء في الحديث، فإذا وَقَعَ فِكْرُهُ علَىٰ عاقبةِ ذلكَ، وآخِرِ أَمْرِهِ، وكانتْ نَفْسُه حُرَّةً أَبِيَّةً رَبَأَ بِها أنْ يجعلَها عبدًا لِمَا آخِرُهُ أَنْتَنُ شَيْءٍ وأَخْبَثِهِ وأَفْحَشِهِ»[3].

---

(1) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي: 1/ 344.

(2) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 253.

(3) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن قيم الجوزية: 1/ 181.

* أكثرُ الخَلْقِ بِبُطُونِهِمْ مُشْتَغِلونَ

فالمتأملُ في هذا المثلِ للدنيا بعينِ البصيرةِ، يَرَىٰ فيهِ حقيقةَ الدنيا، فإنَّ ما يقضيهِ الناسُ من ساعاتٍ طوالٍ في العملِ لأجلِ كسبِ مادَّةِ الطعامِ، ثمَّ في الأوقاتِ التي تُقضىٰ في إعدادِهِ علىٰ أَشْهَىٰ الوُجُوهِ وأَطْيَبِها، لا سيِّمَا في هذا الزمنِ، الذي أصبحَ الطعامُ والشرابُ هو شُغْلَ الناسِ الشاغل، في لَيْلِهم ونهارِهم، إنْ عَمِلُوا عَمِلُوا لأجلِ الطعامِ والشَّرَابِ، وإنْ تَحَدَّثوا يتحدثونَ في ذِكْرِ الطعامِ والشرابِ وأنواعِها وأذواقِها، فيعودُ الرجلُ إلىٰ بيتِه، وقد أحضرَ معه وصفةً لصنفٍ من الطعامِ، كانَ تَذاكَرَها مع زملائِهِ في العملِ، ولئنِ الْتَقَتِ المرأةُ مع صُوَيْحِباتِها، تَذَاكَرْنَ في وَصْفاتِ الطعامِ والشرابِ، بل أُلِّفتْ كثيرُ من الكُتبِ في تَشْهِيَةِ الطعامِ والشرابِ، واشتغلتِ الإذاعاتُ والمرئياتُ في تخصيصِ برامجَ خاصةٍ بألوانِ الطعامِ والشرابِ حتَّىٰ أصبحَ ما يُنْفَقُ علىٰ تَشْهِيَةِ الطعامِ من تَقْزِيحٍ وتَتْبِيلٍ وتَمْليحٍ أكثرَ وأغلَىٰ ثمنًا مِنْ مادةِ الطعامِ نفسِها.

* شَهْوَةٌ مُنْقَضِيةٌ وأَلَمٌ حاضِرٌ

ثمَّ إنَّ هذا الطعامَ الْمُشَهَّىٰ اللذيذَ ما إن يستقرّ في المَعِدَةِ والبطنِ حتىٰ يبدأَ آكِلُه يَجْتَرُّ الآلامَ والأوجاعَ، لا سيما إذا زاد عن الحدِّ ثم نامَ، فتجدُه ليلَتَه يتقلبُ، من حرارة الطعامِ والتهابِ المَعِدةِ والأمعاءِ، يطلبُ الماءَ والشرابَ والمُسَهِّلاتِ، فتكونُ أسعدُ ساعاتِه ساعةَ يُخْرِجُه من بَطْنِه أهونَ ما يكونُ، وأقذرَ ما يكونُ، يتقزز هو من رائحةِ نَفْسِهِ، ويستحيي أن يُرَىٰ علىٰ هذه الحال، وأن يشمَّ أحدٌ رائحته؛ ويا حَسْرةً علىٰ ما بُذِلَ في سبيل هذه العذرة وأُنْفِقَ مِنْ وقتٍ وجُهْدٍ ومالٍ. فلو تأمل العبدُ هذا المثلَ حَقَّ تَأَمُّلِه؛ لَعَلِمَ أنَّ ما يكفِيهِ من الطعامِ والشرابِ القليلُ، وأن الوقتَ والمالَ والجُهْدَ أكثره سَرَفٌ ذهب سُدًى،

ولو أنه أُنْفِقَ في غيرِ فضولِ الطعامِ والشرابِ؛ وَوُجِّهَ لِمَا ينفعُ في الآخرةِ؛ لكانَ أنفعَ للعبدِ في دنياه وآخرته وأَرْجَىٰ.

* تَشَابُهُ الدنيا بالطعامِ

ثمَّ إنَّ الناظرَ إلىٰ هذا المَثَلَ للدنيا يَرَي التشابُهَ والتطابُقَ بينَ الدنيا والطعامِ من أوجهٍ: فالطعامُ منْه ما لا بُدَّ للإنسانِ منه، ما يقيمُ صُلْبَهُ ويُعينُ علىٰ طاعةِ اللهِ، ومِنْهُ ما هو زيادةٌ وسَرَفٌ، وهو أكثرُ من الذي لا بُدَّ منه بكثيرٍ، واهتمامُ الناسِ بفضولِ الطعامِ أكثرُ من اشتغالِهم بما لا بُدَّ منه، وكذلكَ الدنيا، مِنْها ما لا بُدَّ منه، ولا غِنَىٰ للإنسانِ عنْهُ، بل لا قِوامَ لحياتِه إلا بِهِ من مَطْعَمٍ ومَلْبَسٍ ومَسْكَنٍ، ومنها بل أكثرُها زيادةٌ عنْ حدِّ الإنسانِ بكثيرٍ. كما أنَّ الوقتَ الذي يُنْفِقُه الإنسانُ علىٰ الطعامِ ما بين كَسْبٍ وصناعةٍ وإخراجٍ يستغرقُ أكثرَ حياتِه، كذلك ما ينفقُه الإنسانُ في فُضُولِ الدنيا وملاذِّها، وفيما يُسْتَغْنَىٰ عنه، مما لا ينفعُه في آخرتِه كثيرٌ. كما أنَّ الإنسانَ إذا أكثرَ من الطعامِ والشرابِ إلىٰ حَدِّ الزيادةِ تُصيبُهُ التُّخْمةُ والأمراضُ مما يؤذِي البَدَنِ، ويحرمُ العينَ النومَ، وكذلكَ الدنيا، مَنْ أكثرَ منها أصابتْ قَلْبَهُ الأمراضُ، مِنْ كِبْرٍ وعُجْبٍ، وحَسَدٍ وأَشَرَةٍ، واشتغالٍ بخصومةِ الخَلْقِ مما يحرمُ عينيَهِ النومَ الليالِيَ الطِّوالَ، ثمَّ إنَّ خاصةَ الشَّبَه ما بينَ الدُّنْيا والطعامِ أنَّ مآلَ الطعامِ عَذِرةٌ قَذِرةٌ نجسةٌ يَتَقَزَّزُ منها الناسُ، ويأْنَفُونَ رائِحتَها ومنظرَها، وكذلكَ الدنيا – لمنْ أبصرَ – مآلها، في نهايةِ القَذَارةِ والخِسَّةِ والدناءَةِ والحقارةِ والزهادة، وكَفَىٰ بها زَهَادَةً، أَنَّها تُلقيك أحوجَ ما تكونُ إليها في جَوْفِ حفرةٍ، وما هي إلا أيام حتَّىٰ تَجِيفَ وتَتْنَنَ، ولو ظَهَرْتَ للناسِ لتَقَذَّرُوك، وفَرُّوا من رائِحَتِكَ ومَرْآكَ، فسبحانَ مَنْ أكرمَ الرسولَ ﷺ بالحُجَّةِ والبيانِ، وآتاهُ جوامِعَ الكَلِمِ، وحُسْنَ الأَمْثالِ.

المثل الثالث: مَثَلُ العابدِ السالكِ إلى اللهِ في الدنيا

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبَيَّ، فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَو عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، يقول: «إِذَا أَمْسَيتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[1].

➢ شَرْحُ النَّوَوِيِّ

قال ابنُ حَجَرٍ: قال النووي: «معنَىٰ الحديثِ لا تَرْكَنْ إلىٰ الدنيا، ولا تَتَّخِذْها وَطَنًا، ولا تُحَدِّثْ نفسَك بالبقاءِ فيها، ولا تَتَعَلَّقْ منها بما لا يَتَعَلَّقُ به الغريبُ في غيرِ وَطَنِهِ. وقالَ غيرُه: عابرُ السبيلِ هو المارُّ علىٰ الطريقِ طالبًا وَطَنَهُ، فالمرءُ في الدنيا كَعَبْدٍ أَرْسَلَهُ سَيِّدُهُ في حاجةٍ إلىٰ غيرِ بَلَدِهِ، فشأنُه أنْ يبادِرَ بِفِعلِ ما أُرْسِلَ فيه، ثمَّ يعودَ إلىٰ وَطنِه، ولا يَتَعَلَّقَ بِشَيْءٍ غيرِ ما هو فِيهِ، وقالَ غيرُه: المرادُ أنْ يُنْزِلَ المؤمنُ نفسَه في الدنيا منزلةَ الغريبِ؛ فَلَا يَعْلَقُ قلبُه بِشَيْءٍ، من بَلَدِ الغُرْبَةِ، بل قَلْبُه مُتَعَلِّقٌ بوطنِهِ الذي يرجِع إليهِ، ويجعلُ إقامَتَه في الدنيا؛ ليقضيَ حاجَتَه وجَهَازَهُ للرجوعِ إلىٰ وطنِه، وهذا شأنُ الغريبِ. أو يكونُ كالمسافرِ لا يستقِرُّ في مكانٍ بِعَيْنِهِ، بل هو دائمُ السَّيْرِ إلىٰ بَلَدِ الإقامةِ»[2].

➢ شَرْحُ ابنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِيِّ

قال ابنُ رَجَبٍ: «فينبغِي للمؤمنِ أنْ يكونَ حالُه فيها علَىٰ أَحَدِ حالَيْن إمَّا أنْ يكونَ كأنه غريبٌ مُقِيمٌ في بلدِ غُرْبةٍ، هَمُّهُ التَّزودُ للرجوعِ إلىٰ وَطَنِه، أو يكونَ كأنَّهُ مسافرٌ غيرُ

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: باب قول النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»: 8/ 89.

(2) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 11/ 234.

مُقيمٍ أَلْبَتَّة، بلْ هو ليلُه ونهارُه يسيرُ إلىٰ بلدِ الإقامةِ فلهذا وَصَّىٰ النبيُّ ﷺ ابنَ عُمَرَ أنْ يكونَ في الدنيا علىٰ أَحَدِ هذينِ الحالَيْنِ: فأحدُهُمَا أنْ يتركَ المؤمنُ نفسَه كأنَّه غريبٌ في الدنيا، يَتَخَيَّلُ الإقامةَ، لكنْ في بَلَدِ غربةٍ، فهوَ غيرُ مُتَعَلِّقِ القلبِ بِبَلَدِ الغربةِ، بل قلبُه مُتَعَلِّقٌ بوطنِهِ الذي يرجعُ إليهِ، وإنَّما هوَ مُقيمٌ في الدنيا ليقضي جَهَازِهِ إلىٰ الرجوعِ إلىٰ وطنِه، قالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: المؤمنُ فِي الدنيا مهمومٌ حزينٌ، هَمُّه مَرَمَّةُ جَهَازِه، ومَنْ كانَ في الدنيا كذلكَ؛ فلا هَمَّ لهُ إلا التَّزودُ بما يَنْفَعُهُ عندَ العَوْدِ إلىٰ وطنِه، فلا يُنَافسُ أهلَ البلدِ -الذي هوَ غريبٌ بَيْنَهم- في عِزِّهِم، ولا يَجْزَعُ مِنَ الذُّلِّ عندهَمْ، قالَ الحَسَنُ: المؤمنُ كالغريبِ، لا يَجْزعُ منْ ذُلِّها، ولا ينافسُ في عِزِّها، له شأنٌ وللناسِ شأنٌ. لمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ عليه السلام أَسْكِنَ هو وزوجتُه الجَنَّةَ، ثمَّ أُهْبِطَ منها، وَوُعِدَ بالرجوعِ إليها وصالحو ذُرِّيَتِهِمَا، فالمؤمنُ أبدًا يَحِنُّ إلىٰ وطنِه الأوَّلِ، وَحُبُّ الوطنِ من الإيمانِ، كما قيلَ: ولبعضِ شُيُوخِنا[1]:

كَـمْ مَنْـزِلٍ للمرءِ يَأْلَفُهُ الفَتَىٰ *** وَحَنِينُـه أبـدًا لأولِ مَنْـزِلِ[2]

فَحَـيَّ علىٰ جَنَّـاتِ عَدْنٍ فإنَّها *** مَنازِلُـكَ الأولَىٰ وفيها المُخَيَّمُ

ولكِنَّنَـا سَبْيُ العدوِّ فهلْ تُرَىٰ *** نَعُودُ إلىٰ أوطـانِنَا ونُسَلَّـمُ؟»[3].

---

(1) يقصد به: شيخه ابن قيم الجوزية -رحمه الله-، حيث ذكر هذه القصيدة في أكثر من كتاب من كتبه، وهي من نظمه -رحمه الله-.

(2) البيت لأبي تمام، انظر: كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري: 1/ 481، والبيتين الأخيرين لابن قيم الجوزية، انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 51.

(3) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي: 2/ 378.

الدنيا في عيونِ الصالحينَ

كان الصالحونَ في الزمانِ الأَوَّلِ يكتُبُ بعضُهم إلىٰ بعضٍ، يتذاكرونَ ما يُقَرِّبُهم من ربِّهم، وما يباعدهم من عَدُوِّهم وعدوِّ أبيهم؛ وما يُرَغِّبُهم في آخرتِهِمْ ويُزَهِّدُهمْ في دُنْياهُم. يَحْذرون الدُّنْيا، ويكشفون زَيْفَها، وَيُجَلُّونَ حَقِيقَتَها، ويُزَهِّدُونَ في زَهْرَتِها، ويُرَغِّبُونَ في تَرْكِها؛ فَطابَتْ بذلكَ حياتُهم، وطابَ مماتُهم؛ فعاشُوا كَمَنْ عَايَنَ الآخرةَ، وهمْ بَعْدُ علىٰ الأرضِ

الدنيا كما رآها ابْنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما

ذكر ابن قُدَامَةَ في مختصر منهاج القاصدين: «عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: يُؤْتَىٰ بالدنيا يومَ القيامَةِ في صورَةِ عجوزٍ شَمْطاءَ زرقاءَ، أنيابُها باديةٌ، مُشَوَّهٌ خَلْقها، فتُشْرفُ علىٰ الخلقِ، فيقالُ: هلْ تعرفون هذه؟ فيقولونَ: نعوذُ باللهِ من معرفةِ هذهِ، فَيُقالُ: هذه الدنيا التي تَشاجرتُمْ عليها، وبها تقاطعتُمُ الأرحامَ، وبها تحاسدتمْ وتباغضتمْ واغْتَرَرْتُمْ، ثم تُقْذَفُ في جهنَّمَ، فتنادِي: يا ربُّ أينَ أتباعِي وأشياعِي؟ فيقول: أَلْحِقُوا بها أتباعَها وأشياعَها. وعن أبىٰ العلاء، قال: رأيتُ في النومِ عجوزًا كبيرةً عليها من كل زينةٍ، والناسُ عُكُوفٌ عليها مُتَعَجِّبُونَ، ينظرونَ إليها، فقلتُ: أعوذُ باللهِ من شرِّكِ، قالتْ: إنْ أَحْبَبْتَ أن تُعَاذَ من شَرِّي؛ فَأَبْغِضِ الدرهمَ»[1].

(1) مختصر منهاج القاصدين، لابن قُدامة المقدسي، ربع المهلكات: 3/ 65.

الدنيا كما رآها الحَسَنُ البَصْرِيُّ

روىٰ ابنُ أبي الدنيا، عن إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ، قال: «كتبَ الحسنُ البصريُّ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أمَّا بعدُ: فإنَّ الدنيا دارُ ظَعْنٍ[1]، ليستْ بدار إقامةٍ، إنما أُنزِلَ إليها آدمُ عليه السلام عقوبةً؛ فاحذرْها يا أميرَ المؤمنينَ، فإنَّ الزادَ منها تَرْكُها، والغِنَىٰ فيها فَقْرُها، لها في كل حين قتيلٌ، تُذِلُّ مَنْ أعزَّها، وتُفْقِرُ من جَمَعَها، هي كالسُّمِّ يأكلُه مَنْ لا يعرفُه، وهو حَتْفُه[2]؛ فكُنْ فيها كالمداوِي جراحَه، يَحْتَمِي قليلًا مخافةَ ما يكرهُ طويلًا، ويصبرُ علىٰ شِدَّةِ الدواءِ مخافةَ طولِ البلاءِ، فاحذرْ هذهِ الدارَ الغَرَّارَةَ الخدَّاعة الخَتَّالةَ[3]، التي قد تَزَيَّنتْ بِخُدَعِها، وفَتنَتْ بغرورِها، وخَتَلَتْ بآمالها، وتَشَوَّفَتْ لخُطَّابِها، فأصبحتْ كالعروسِ المَجْلُوَّةِ، فالعيونُ إليها ناظرةٌ، والقلوبُ عليها وَالِهةٌ[4]، والنفوسُ لها عاشقةٌ، وهي لأزواجها كلِّهم قاتلةٌ، فعاشِقٌ لها قد ظَفِرَ منها بحاجَتِهِ، فاغترَّ وطَغَىٰ، ونَسِي المعادَ، فَشَغَلَ بها لُبَّه حتىٰ زَلَّت عنها قدمُه؛ فعظُمتْ عليها ندامَتُه، وكثُرتْ حَسْرَتُه، واجتمعتْ عليه سَكَراتُ الموتِ وأَلَمُه، وحَسَراتُ الفَوْتِ؛ وعاشِقٌ لم يَنَلْ منها بُغْيَتَه؛ فعاشَ بِغُصَّتِه، وذهبَ بِكَمَدِه، ولم يدركْ منها ما طلبَ، ولم تَسْتَرِحْ نفسُه من التعبِ؛ فخرجَ بغيرِ زادٍ، وقَدِمَ علىٰ غيرِ معادٍ؛ فَكُنْ أسرَّ ما تكونُ فيها أَحْذَرَ ما تكونُ لها، فإنَّ صاحبَ الدنيا كلَّما

---

(1) الظعن: السير والرحيل، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 13/ 270.

(2) الحتف: الهلاك، انظر: مقاييس اللغة: 2/ 135.

(3) الختل: الختل الخداع عن غفلة. وخاتله: خدعه عن غفلة، والتخاتل: التخادع، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 199.

(4) الوله: الحزن، وقيل: هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف. والوله: ذهاب العقل لفقدان الحبيب، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 13/ 561.

اطمأنَّ منها إلىٰ سرور أَشْخَصَتْهُ إلىٰ مكروهٍ، وَصَلَ الرَّخاءَ منها بالبلاءِ، وَجَعلَ البقاءَ فيها إلىٰ فناءٍ، سرورُها مَشُوبٌ[1] بالحزنِ، أمانيها كاذبةٌ، وآمالُها باطلةٌ، وصَفْوُها كَدَرٌ، وعَيْشُها نَكَدٌ، فلو كانَ رَبُّنَا لم يُخْبِر عنها خَبرًا، ولم يضربْ لها مثلًا؛ لكانتْ قد أيقظتِ النائمَ، ونَبَّهَتِ الغافلَ، فكيفَ وقد جاءَ منَ اللهِ فيها واعظٌ وعنها زاجرٌ؟ فمالها عندَ اللهِ قَدْرٌ، ولا وزنٌ، ولا نَظَرَ إليها منذُ خلقَها، ولقدْ عُرِضتْ علىٰ نبينا ﷺ بمفاتِيحها وخَزَائِنِها، لا يُنْقِصُها عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ؛ فأَبَىٰ أن يَقْبَلَها؛ كَرِهَ أنْ يُحِبَّ ما أبغضَ خالِقُه، أو يَرْفعَ ما وَضَعَ مليكُه؛ فزَوَاها عنِ الصالحينَ اختيارًا، وبَسَطَها لأعدائِه اغترارًا، فيظنُّ المغرورُ بها المقتدرُ عليها أنَّه أُكْرِمَ بها، ونَسِيَ ما صنعَ اللهُ ﷻ برسولِه ﷺ حين شَدَّ الحَجَرَ علىٰ بطنِه»[2].

الدنيا كما رآها أبو جعفرٍ، مُحَمَّدُ بنُ عليِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه

روىٰ ابنُ أبي الدنيا عن جابرٍ الجُعْفِيِّ، قال: «قال محمدُ بنُ عليٍّ: يا جابرُ إنِّي لمحزونٌ، وإني لمشتغلُ القلبِ، قلتُ: وما حزنُك وشُغْلُ قلبِك؟ قالَ: يا جابرُ، إنَّه مَنْ دَخَلَ قلبَه صافِي خالصِ دينِ اللهِ؛ شَغَلَه عما سِواهُ، يا جابرُ ما الدنيا؟ وما عَسَىٰ أن تكونُ؟ هلْ هوَ إلا مركبٌ رَكِبْتَه، أو ثوبٌ لَبِسْتَهُ، أو امرأةٌ أَصَبْتَها؟ يا جابرُ، إنَّ المؤمنين لم يطمَئِنُّوا إلىٰ الدنيا لبقاءٍ فيها، ولم يأمنوا قُدومَ الآخرةِ، لم يُصِمَّهُم عنْ ذِكْرِ اللهِ ما سمعوا بآذانِهم من الفِتْنَةِ، ولم يُعْمِهِم عن نورِ اللهِ ﷻ ما رَأَوْا بأعينِهم من الزِّينةِ، ففازوا بثوابِ الأبرارِ.

---

(1) مشوب: مخلوط، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 1/ 510.

(2) انظر: كتاب الزهد، للحافظ ابن أبي الدنيا: 1/ 40.

إنَّ أهلَ التَّقْوَىٰ أيسرُ أهلِ الدنيا مَؤُونةً، وأكثرُهُم لك معونةً، إنْ نَسِيتَ ذكَّرُوكَ، وإن ذكرتَ أعانُوكَ، قَوَّالِينَ بحقِّ اللهِ، قَوَّامِينَ بأمرِ اللهِ -سبحانه-، قطعوا محبَّتَهم لمحبةِ ربِّهم، ونظروا إلىٰ اللهِ وإلىٰ محبَّتِه بقلوبِهم، وأَوْحشوا من الدنيا لطاعةِ مليكِهم، وعَلِموا أن ذلكَ مَنْظورٌ إليهِ من شأنِهم؛ فَأَنْزِلِ الدُّنيا بِمَنْزِلَةِ مَنْزِلٍ نَزَلْتَ به، وارتحلتَ عنه، أو كَمَالٍ أَصَبْتَه في منامِكَ، فاستيقظتَ، وليسَ منه شيءٌ، واحفظِ اللهَ ﷻ ما استرعاكَ من دِينِه وحِكْمَتِهِ»[1].

(1) انظر: كتاب الزهد، للحافظ ابن أبي الدنيا: 1/ 202.

إنما يُحْمدُ من الدنيا ما يُقَرِّبُ منَ اللّهِ -تعالى-

قد اجتمعتْ كلمةُ الأنبياءِ وَوَرَثَتُهم من العلماءِ الصالحين علىٰ ذمِّ الدنيا، وأنها ليستْ بدارِ إقامةٍ، وأنها أكبرُ القواطعِ للعبدِ عن ربِّه، فبينما يكونُ العبدُ أقربَ ما يكونُ من ربِّه؛ إذْ فُتِحَ له بابٌ من أبوابها، فآثَرَها واشتَغَلَ بها، فأَبْطَأ علىٰ ربِّه وسيِّدِه، وكلما مَرَّ يومٌ علىٰ تعلُّقه بها، ازدادَ عن ربِّه وَوَلِيِّه بها بُعدًا. وإنما يُحْمَد من الدنيا ما يُقَرِّبُ من اللهِ -تعالىٰ-، وما يُقْضَىٰ منها في طاعتِه ومرضاتِه؛ فإنها وإن ذُمَّتْ لقد مُدِحَتْ، ولئن أَبْكَتْ، لقد أَفْرَحَتْ، فلربما يُجْتَنَىٰ من الشوك الثمر، وأكثرُ المسراتِ إنما تتولد من الأحزانِ، وإنما يُسْتَمْتَعُ بالولد، بعد معالجة الحَمْلِ ومراحِلِه، والوَضْعِ وآلامِه، وإنا يُحْمدُ الحَمْلُ -علىٰ ثِقَلِه وآلامِه- لأجْلِ ما يَعْقُبُهُ من ترقُّبِ الولدِ، ولو لمْ يكنْ للدنيا من مَحْمَدةٍ إلا أنها طريقٌ إلىٰ اللهِ، وسبيلٌ إلىٰ الدارِ الآخرةِ لكفىٰ بها، فمن ذَمَّها مَدَحَ بعض ما فيها لأجلِ أنها تُفْضِي إلىٰ حبِّ اللهِ ورضوانِه لمن أطاعت ربَّها فيها، وبلوغِ منازلِ الجنانِ لمن أحسنت العمل. فعن أَبي هريرة ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقول: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَمَا وَالاهُ، وَعالِمًا وَمُتَعَلِّمًا»[1]. وفي رواية للبيهقي: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا للهِ ﷻ»[2].

---

(1) رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في هوان الدنيا علىٰ الله ﷻ: 4/ 561، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وحَسَّنَهُ الألباني.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: الزهد وقصر الأمل: 13/ 109، وله شاهد من حديث أبي هريرة السابق.

وِقْفَةٌ لازِمَةٌ

وبعدما عَلِمْتِ منْ أحوالِ الدنيا وأخبارِها الخبرَ اليقين؛ مِمَّنِ خَبرها وعَلِمَ أحوالَها؛ فهلْ بَقِيَ لها فِي قَلْبِكِ مكانٌ، وهلْ لمْ يَزَلْ لها في نفسِكِ مَحِلٌّ؛ إذنْ فَلَا تَفْرَحِي يا أمةَ اللهِ بِشَيْءٍ من الدنيا أقبلَ، ولا تَحْزَنِي علىٰ شيْءٍ منها أدبرَ، لا زوجَ، ولا ولدَ، ولا مالَ، ولا سلطانَ؛ فمَنْ خَبرتْ حقيقَتَها؛ هانتْ عليها أحزانُها وفَوَاجِعُهَا[1]، وصغُرت عندها مِنَحُها وأُعطيَّاتُها، ودامَ فيها حزنها، وطال همُّها! واعْلَمِي أنه عَمَّا قليلٍ المنقلبُ إلىٰ دارِ الرضوانِ، وأزواجٍ مُخَلَّدِين، وإنما الأمرُ صَبْرُ أيام ويَنْجَلِي الغبارُ.

(1) الفواجع: المصائب المؤلمة التي تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 8/ 245.

الفَصْلُ الخَامِسُ

والدارُ الآخرةِ خيرٌ للذينَ يَتَّقُون

اقتضتْ حكمةُ اللهِ -تعالىٰ- ألَّا يَجْمعَ علىٰ عبادِهِ حُزْنَيْن: حُزنَ الدنيا، وحُزنَ الآخرةِ، فإنَّه -سبحانه- ما ابتلاكِ في الدنيا، وحَرمَكِ الزوجَ إلا ليرفَعكِ في الآخرة، وما أحزنَكِ هنا إلا ليفرحَكِ هناكَ، وإنَّما جُعِلتْ دارُ الابتلاءِ قصيرةً محدودةً، وجُعِلتْ دارُ الكرامةِ طويلةً مَمْدودةً، فما هيَ إلا أيامٌ وكأنَّه ما أكلَتْ فيها مَنْ أكلَتْ ولا شَرِبَتْ مَنْ شربَتْ، ولا لَبِستْ من لبستْ، ولا تَزَوَّجتْ من تَزَوَّجتْ، ولا أنجبتْ مَنْ أنجبتْ؛ ما هي إلا قليلٌ حتَّىٰ يُؤَذَّنَ بالرحيلِ، ويا فَرْحَةَ المُحِبِّينَ حين ينزلون منازلَ الأحبابِ، ساعَتَها تُنسَىٰ الهمومُ والأحزانُ، والكروبُ والأوجاعُ، بل تَسْتَحيلُ الآلامُ راحةً، والأحزانُ فرحةً، والبُعْدُ قُرْبًا، وإنما هو صَبْرُ ساعةٍ، وقدْ اسْتَرَحْتِ راحةَ الأَبَدِ، وكأنَّه ما حَزِنَ في هذه الدارِ من حَزِنَ، ولا شَقِيَ من شَقِي.

هَلِ الدَّهْرُ إلا ساعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضي *** بما كانَ فيها مِن بَلاءٍ ومِنْ خَفْضِ[1]

ويا فَرْحةَ الصالحاتِ حين الوُفُودِ علىٰ الرحيمِ الوَدُودِ، يا سعادةَ الصابراتِ حينَ يَتَوَلَّىٰ المَلِكُ الكريمُ كرامةَ الوافِدينَ عليه في جَنَّتِه ودارِ كرامَتِه، جَلَّاها ربُّها لأهلها، وزينها لِنُزَلَائها.

---

(1) الذخائر والعبقريات، لعبد الرحمن البرقوقي: 1/ 256.

إِطْلالةٌ على الجَنَّةِ مِنْ نافذةِ القُرْآنِ

مشهدٌ للجنةِ مِنْ سُورةِ السَّجْدَةِ

قال الله -تعالىٰ- في وصفها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

➢ تفسيرُ الطَّبَرِيِّ لِلْآيةِ

قال ابنُ جريرٍ: «يقولُ -تعالَىٰ ذِكْرُه-: فلا تعلمُ نَفْسُ ذِي نَفْسٍ ما أَخْفَىٰ اللهُ لهؤلاءِ الذينَ وصفَ -جلّ ثناؤه- صِفَتَهم في، مِمَّا تقرّ بهِ أعْيُنُهم في جِنَانِهِ يوم القيامة ﴿جَزَاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يقولُ: ثوابًا لهمْ علىٰ أعمالِهِمُ التِي كانوا في الدنيا يعملون»[2].

➢ تفسير ابن كثير للآية

قال ابنُ كثيرٍ: «قَوْلُه -تَعَالَىٰ-: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أَيْ: فَلَا يَعْلَم أَحَد عَظَمَة مَا أَخْفَىٰ الله لَهُمْ فِي الْجَنَّات مِنَ النَّعِيم الْمُقِيم وَاللَّذَّات، الَّتِي لَمْ يَطَّلِع عَلَىٰ مِثْلهَا أَحَد، لَمَّا أَخْفَوْا أَعْمَالهمْ كَذَلِكَ؛ أَخْفَىٰ الله لَهُمْ مِنَ الثَّوَاب؛ جَزَاء وِفَاقًا، فَإِنَّ الْجَزَاء مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، قَالَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ: أَخْفَىٰ قَوْم، عَمَلهمْ فَأَخْفَىٰ الله لَهُمْ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ يَخْطُر عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»[3].

---

(1) السجدة: 17.

(2) تفسير جامع البيان في تأول القرآن، لابن جرير الطبري، سورة السجدة: 20/ 181.

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة السجدة: 6/ 326.

روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما: عن أبي هريرة ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ اللهُ -تَعَالَىٰ-: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ ذُخْرًا بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]»[2].

قال السيوطي: «قَوْله: «مَا لَا عين رَأَت... إلخ» أَي: لم يُبْصرْ ذَاته عينٌ وَلَا سَمِعتْ وَصْفَهُ أُذُنٌ وَلَا خَطَرَ ماهيتُه علىٰ قَلْبٍ، وقوله: (بله): اسْم فعل بِمَعْنىٰ دع واترك، وَالْمعْنَىٰ: دعْ مَا اطَّلَعْتُم عَلَيْهِ من نعيم الْجنَّة، وعَرَفتموها مِنْ لذاتها؛ فَإِنَّهُ يسيرٌ فِي جَنْبِ مَا ادُّخِرَ لَهُم، أَي: الَّذِي لم يُطْلِعْكمْ عَلَيْهِ من النَّعيم أعظم»[3].

تفسيرُ الطاهرِ بنِ عاشورٍ لِلْآيةِ

قال الطاهرُ بنُ عاشورٍ: أَيْ: لَا تَبْلُغُ نَفْسٌ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مَعرِفَةَ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِـ(نَفْسٌ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَصْحَابُ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَإِنَّ مُدْرَكَاتِ الْعُقُولِ مُنْتَهِيَةٌ إِلَىٰ مَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ مِنَ الْمَرْئِيَّاتِ مِنَ الْجَمَالِ وَالزِّينَةِ، وَمَا تُدْرِكُهُ الْأَسْمَاعُ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَقْوَالِ وَمَحَامِدِهَا وَمَحَاسِنِ النَّغَمَاتِ، وَإِلَىٰ مَا تَبْلُغُ إِلَيْهِ الْمُتَخَيَّلَاتُ مِنْ هَيْئَاتٍ يَرْكَبُهَا الْخَيَالُ مِنْ مَجْمُوعِ مَا يَعْهَدُهُ مِنَ الْمَرْئِيَّاتِ

---

(1) السجدة: 17.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: قوله: فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين: 6/ 116، ومسلم، باب: كتاب الجنة وصفة نعيمها: 4/ 2174، وابن ماجه في سننه، باب: صفة الجنة: 2/ 1447.

(3) شرح سنن ابن ماجه، للسيوطي: 1/ 321.

وَالْمَسْمُوعَاتِ مِثْلَ: الْأَنْهَارِ مِنْ عَسَلٍ أَوْ خَمْرٍ أَوْ لَبَنٍ، وَمِثْلَ الْقُصُورِ وَالْقِبَابِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ، وَمِثْلَ الْأَشْجَارِ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَالْأَزْهَارِ مِنْ يَاقُوتٍ، وَتُرَابٍ مِنْ مِسْكٍ وَعَنْبَرٍ، فَكُلُّ ذَلِكَ قَلِيلٌ فِي جَانِبِ مَا أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ هَذِهِ الْمَوْصُوفَاتِ وَلَا تَبْلُغُهُ صِفَاتُ الْوَاصِفِينَ؛ لِأَنَّ مُنْتَهَىٰ الصِّفَةِ مَحْصُورٌ فِيمَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ دَلَالَاتُ اللُّغَاتِ مِمَّا يَخْطُرُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْبَشَرِ فَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»[1].

(1) تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، سورة السجدة: 21/ 230.

ولَنَا كَلِمَةٌ

فهذا أعظمُ ما وُصِفَتْ به الجنةُ؛ فكلُّ ما خطرَ بالبالِ منَ النعيمِ والمُتَعِ والَمَسرَّاتِ؛ فإنَّ ما أَعَدَّهُ اللهُ -تعالىٰ- فوقَه؛ وذلكَ أنَّ فُهومَ البَشَرِ قاصرةٌ عنْ إدراكِ ما أَعدَّهُ اللهُ -تعالىٰ- منَ الكرامةِ لأوليائِه؛ إذْ عقولُ البَشَرِ المحدودةِ مُهَيَّئةٌ لإدراكِ الدنيا المَحْدودةِ، أما الآخرةُ فلا مَطْمَعَ لعقولِ أهلِ الأرضِ من إدراكِ كُنْهِهَا؛ وبلوغِ حقيقتها، فإذا كانتِ الآخرةُ وأُدْخِلوا الجنةَ أَنْشأَهَم اللهُ نشأةً أُخْرَىٰ، وهَيَّأَهُمُ اللهُ لإدراكِ نعيمِ الجنة الذي قَصُرَتْ عقُولُهم عن إدراكِه في الدنيا، علىٰ وَجْهِهِ، والله أعلم.

مشاهدُ لرجالِ الجَنَّةِ

مَشْهَدٌ لِرِجالِ الجَنَّةِ مِنْ سُورَةِ الحِجْرِ

قال -تعالىٰ-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[1].

➢ تفسيرُ الفَخْرِ الرَّازِي لِلْآيَةِ

قال الفخر الرازي: «قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، معناهُ أنَّ تلكَ النفوسُ لمَّا صارتْ صافيةً عنْ كَدُورَاتِ عالمِ الأجسامِ ونَوَازِعِ الخيالِ والأوهامِ، ووقع عليها أنوارُ عالمِ الكِبْرياءِ والجَلَالِ؛ فأشرقتْ بتلكَ الأنوارِ الإلهيةِ، وتَلَأْلَأَتْ بتلكَ الأضواءِ الصَّمَدِيةِ، فكلُّ نورٍ فاضَ علىٰ واحدٍ منها؛ انعكسَ منهُ علىٰ الآخرِ مثل المَرَايا المتقابِلَةِ المُتحاذيةِ؛ فَلِكَوْنِها بهذهِ الصِّفَةِ وقعَ التعبيرُ عنها بقولِهِ: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ واللهُ أعلمُ»[2].

➢ تفسيرُ الغَزَالِيِّ مِنَ الإِحْيَاءِ

قال الغزالي: «قال فيهم ربُّ العالمين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ فهذا حالُهم، وهم بَعْدُ في الدنيا، فماذا يُظَنُّ بِهِمْ عندَ انكشافِ الغِطَاءِ، ومشاهدةِ المَحْبوبِ في العُقْبَىٰ؟ فإذنْ لا يُتَصَوَّرُ أنْ يكونَ في الجنة مُحَاسدةٌ، ولا أنْ يكونَ بينَ أهل الدنيا في الجنةِ محاسدةٌ؛ لأنَّ الجنةَ لا مُضايقةَ فيها ولا مُزَاحمةَ، ولا تُنَال إلا بمعرفة الله

---

(1) الحِجْر: 47.

(2) تفسير مفاتيح الغيب، المسمىٰ بالتفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، سورة الحجر: 19/ 149.

-تعالىٰ-، التي لا مُزَاحمةَ فيها في الدنيا أيضًا، فأهلُ الجنةِ بالضرورةِ بُرَءَاءُ من الحَسَدِ في الدنيا والآخرةِ جميعًا، بل الحَسَدُ من صفاتِ المُبْعَدِين عن سعة عِلْيِّين إلىٰ مَضِيقِ سِجِّين... فعليك إنْ كنتَ بصيرًا، وعلىٰ نفسِكَ مُشْفِقًا أنْ تطلبَ نعمةً لا زَحْمةَ فيها، ولذةً لا كَدَرَ لها، ولا يوجدُ ذلك في الدنيا إلا في معرفةِ الله ﷻ ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ، وعجائبِ ملكوتِ السمواتِ والأرضِ، ولا يُنالُ ذلكَ في الآخرةِ إلا بهذهِ المعرفةِ أيضًا»[1].

(1) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: 3/ 195.

مشهد لرجال الجنة من نافذة السُّنَّة

أَمَّا مَشْهَدُ رجالِ الجنةِ فَكَمَا وَصَفَهُمُ الصَّادِقُ الْمَصْدوقُ ﷺ فيما رواه البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَىٰ إِثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، لَا يَسْقَمُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَبْصُقُونَ، آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلُوَّةُ»[1].

أقوال الشُّرَّاحِ

- قال النَّوَوِيُّ: «الاستجمار هنا استعمالُ الطِّيبِ والتَّبَخُّرِ به مأخوذٌ من المجمرِ وهو البخُّورِ، وأما (الْأَلُوَّةُ) فقال الأصمعيُّ وسائرُ أهلِ اللُّغةِ والغريبِ: هي العودُ يتبخَّرُ به»[2].
- قال القاضي عياض: «(مَجَامِرِهِمُ الْأَلُوَّةُ) أَيْ: بخورُهم العودُ الهِنْديِّ، ويكونُ جمعُ مجمرٍ للآلة»[3].

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة: 4/ 118، ومسلم، باب: أول زمرة تدخل الجنة: 4/ 2178.

(2) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 15/ 10.

(3) مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار، للقاضي عياض: 1/ 152.

- قال المباركفوري: «قال القُرْطُبِيُّ: قدْ يُقَالُ أَيُّ حاجةٍ لهم إلىٰ المشْطِ وهم مُرْدٌ، وشعورُهم لا تَتَّسِخُ؟ وأَيُّ حاجةٍ لهُم إلىٰ البخورِ، وريحُهُم أطيبُ منَ المِسْكِ؟ قال: ويُجَابُ بأنَّ نعيمَ أهلِ الجنةِ من أَكْلٍ وشُرْبٍ وكسوةٍ وطيبٍ ليسَ عنْ أَلَمِ جوعٍ أوْ ظَمَأٍ أوْ عُرِيٍّ أوْ نَتَنٍ، وإنما هي لذاتٌ متتاليةٌ، ونِعَمٌ متواليةٌ، والحِكْمَةُ في ذلك أنَّهُم يَنْعُمُون بنوعِ ما كانوا يتنعَّمُون به في الدنيا»[1].
- قال عَلِيٌّ القاري: «والتوفيقُ بينَه وبينَ خَبرِ: «أَدْنَىٰ أهلِ الجَنَّةِ مَنْ لَهُ ثِنْتانِ وسَبْعونَ زَوْجَةً»[2] بأن يُقَالَ: يكونُ لكلٍّ منهُم زوجتانِ موصوفتانِ بأنْ يُرَىٰ مُخُّ ساقِها مِنْ ورائِها، وهذا لا يُنَافِي أنْ يحصلَ لكلٍّ منهم كثيرٌ منَ الحورِ العِيْنِ غير البالِغَةِ إلىٰ هذهِ الغايةِ، والأظهرُ أنَّ لكلٍّ منهم زوجتينِ من نساءِ الدُّنيا، وأنَّ أدنَىٰ أهلِ الجنَّة من له ثنتان وسبعون زوجةً في الجملة، يعني: ثنتين من نساءِ الدنيا، وسبعين من الحور العين والله -سبحانه وتعالىٰ- أعلم»[3].

---

(1) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري: 7/ 206.

(2) هذا الخبر رواه أبو نعيم في وصف الجنة بلفظ: «وَإِنَّ لَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لَاثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً، سِوَىٰ أَزْوَاجِهِ مِنَ الدُّنْيَا»: 2/ 290.

(3) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 9/ 3589.

روايات الحديثِ ودِلَالَاتُها

وفي روايةٍ: «اخْتَصَمَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ أَيُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ»[1]؛ فذكر أبو هريرة الحديث مُسْتَدِلًّا علىٰ أنَّ النساءَ أكثرُ أهلِ الجَنَّةِ، فإذا كانَ لكلِّ رجلٍ في الجنةِ زوجتانِ، وزيادةٌ كما في روايةِ الشهيدِ، فَدَلَّ هذا بالضرورةِ علىٰ كونِ النساءِ أكثرَ أهلِ الجنةِ، ألا فهنيئا لنساء الأمة؛ إن اتقين الله.

وفي روايةٍ: «لكلِّ امرئٍ منهم زوجتانِ، يُرَىٰ مُخُّ سُوقِهما مِنْ وراءِ اللَّحْمِ، وما في الجنَّةِ أعزبُ»[2].

* يؤخذُ مِنْ هذه الروايةِ أنَّ كلَّ أهلِ الجنةِ مُتَزَوِّجٌ، رجالًا كانوا أم إناثًا، لأنَّ العُزوبَةَ نوعُ نَقْصٍ، وما في الجنَّةِ نقصٌ، بل هي دارُ كَمَالِ النعيمِ المُقِيم. إذنْ؛ لَكُنَّ البُشْرَىٰ أيتها الأيَامَىٰ؛ فَصَبْرٌ جميلٌ حتَّىٰ إذا نَزَلْتُنَّ منازلَ الجنَّةِ؛ فستَتَزَوَّجْنَ هناكَ من خير الرجال، وسَتَكُنَّ مِنَ جُمْلةِ الثِّنْتَيْنِ المَوْصُوفتَيْنِ بِغَايَةِ الجمالِ والكَمَالِ، وسَتَفُقْنَ الحورَ العِيْنَ جمالًا وحُسْنًا وكَمالًا-إن شاء الله تعالىٰ- والله أعلم.

---

(1) انظر: صحيح مسلم، باب: أول زمرة تدخل الجنة: 4/ 2179.

(2) انظر: صحيح مسلم، باب: أول زمرة تدخل الجنة: 4/ 2178، ومسند أحمد، مسند أبي هريرة: 12/ 64، وصحيح ابن حبان، باب: ذكر الإخبار عن وصف صور الزمرة التي تدخل الجنة أول الناس في القيامة: 16/ 437.

كيف للأيِّمِ أن تختارَ زوجَها في الجَنَّةِ

فما عَلَىٰ مَنْ تَأَيَّمَت، ولم تَتَزَوَّجْ، أو طُلِّقَتْ من زوجِها، إلا النظرُ إلىٰ ما أَعَدَّ اللهُ لها مِنْ زوجٍ، وحَسْبُها أنَّ اللهَ -تعالىٰ- هو وَلِيُّ زواجِها، وهو الذي يُمْهِرُها، ويُزَفُّها إلىٰ عروسِها، وبِوُسْعِ المرأةِ الأيِّمِ أنْ تُحَدِّدَ زوجَها وهيَ بعدُ علىٰ الأرضِ، فَمَنْ أَحَبَّتِ العبادةَ، وعَمِلَتْ بعملِ العُبّادِ يُرْجَىٰ أن تُزَوَّجَ في الجنة عابدًا، ومَنْ أَحَبَّتِ الجهادَ، وعَمِلَتْ بعمل المجاهدين يُرْجَىٰ أن تُزَوَّجَ هنالك مجاهدًا، ومَنْ أَحَبَّتِ العلمَ، وعَمِلَتْ بعمل العُلَماء، يُرْجَىٰ أن تُزَوَّجَ عالمًا، ومَنْ أَحَبَّتِ الصِّدقَ، وعَمِلَتْ بعمل الصديقين؛ يُرْجَىٰ أن تُزَوَّجَ هناك صِدِّيقًا؛ فمن عَمِلَتْ بعمل قوم، وأحبتْ أن تكون منهم، وَسَعَتْ إلىٰ ذلك؛ يُرْجَىٰ أن تُزَوَّجَ منهم، والله -تعالىٰ- أعلمُ، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا، وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1]، وذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2].

* أَمَا وَقَدْ رأَيْتِ مشاهدَ لرجالِ الجنةِ الذينَ مِنْهُم مَنْ هوَ زوجُكِ هناك -إنْ شاءَ اللهُ-، فَآنَ أنْ تَرَيْ مشاهدَ لنساءِ الجنَّةِ اللاتِي أنتِ واحدةٌ منهنَّ إنْ شاءَ اللهُ -تعالَىٰ-؛ ولتَتَعَرَّفِي علَىٰ صِفَتِكِ في الجَنَّةِ؛ فاستمعِي الآنَ إلىٰ ما أخبرَ اللهُ -تعالىٰ- عن وَصْفِ نساءِ أهلِ الجنَّةِ.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: علامة حب الله ﷻ: 8/ 39، ومسلم، باب: المرء مع من أحب: 4/ 2034.

(2) الأحقاف: 19.

مشاهدٌ لنساءِ الجنَّةِ من نافذةِ القرآنِ

المشهد الأول: مشهدٌ لنساءِ الجنةِ من سورةِ البقرة

قالَ -تعالىٰ-: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

تفسيرُ ابنِ كَثِيرٍ لِلْآيةِ

قال ابنُ كثيرٍ: «قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾، أي: مُطَهَّرات منَ الحيضِ والنُّفاسِ والأَذَىٰ، والأخلاقِ الرَّذيلةِ، والصفاتِ الناقصةِ، كما قالَ ابنُ عباس: مطهرةٌ منَ الأقذارِ والأَذَىٰ. وقال مجاهدٌ: مُطَهَّرةٌ من البَوْلِ والحيضِ والنُّخامِ والبُزاقِ والمَنِيِّ والوَلَدِ. وقال قتادةُ: مطهرةٌ من الأَذَىٰ والمَأْثَمِ ولا حيضَ ولا كَلَفَ»[2].

تفسيرُ الفَخْرِ الرَّازِي لِلْآيةِ

قال الفخر الرازي: «أما قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فالمرادُ طهارةُ أبدانِهن من الحيضِ والاستحاضةِ وجميعِ الأقذارِ، وطهارةِ أزواجِهنَّ من جميعِ الخصالِ الذميمةِ، وقال في مَوْضِعٍ آلِ عمرانَ: قال: ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، وتَحْقيقُ القَوْلِ فيه أن النِّعمة -وإن عَظُمَتْ- فَلَنْ تَتكامَلَ إلا بالأزواجِ اللواتِي لا يحصُلُ

الأنسُ إلا بِهِنَّ، ثم وصفَ الأزواجَ بصفةٍ واحدةٍ جامعةٍ لكلِّ مطلوبٍ فقالَ: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾، ويدخلُ في ذلكَ الطهارةُ منَ الحيضِ والنفاسِ وسائرِ الأحوالِ التي تَظْهَرُ علىٰ

---

(1) البقرة: 25.

(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة النساء: 2/ 298.

النساءِ في الدنيا، مما يَنْفِرُ عنه الطَبْعُ، ويدخلُ فيهِ كَوْنهنَّ مطهراتٍ من الأخلاقِ الذميمةِ، ومن القُبْحِ وتشويهِ الخِلْقةِ، ويدخلُ فيه كونُهنَّ مطهراتٍ منْ سوءِ العِشْرَةِ»[1].

المشهد الثاني: مشهدٌ لنساءِ الجنةِ من سورةِ الصافات

قال -تعالىٰ-: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[2].

تفسيرُ ابنِ كَثِيرٍ لِلْآيةِ

قال ابنُ كثيرٍ: «قوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، أَيْ: عفيفاتٍ لا يَنْظُرْنَ إلىٰ غيرِ أزواجهنَّ، وقوله ﴿عِينٌ﴾، أَيْ: حِسَانُ الأَعْيُنِ. وقيل: ضِخَامُ الأعينِ. وهي النَّجْلاءُ العَيْنَاءُ، فوصفَ عُيُونَهُنَّ بالحُسْنِ والعِفَّةِ، وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ وَصَفَهُنَّ بِتَرافَةِ الأبدانِ بِأَحسنِ الألوانِ. عن ابنِ عباسٍ، رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقولُ: اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ. وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني: مَصُونٌ، لَمْ تَمَسَّهُ الأَيْدِي»[3].

المشهد الثالث: مشهدٌ لنساءِ الجنةِ من سورةِ الرحمنِ

وَوَصَفَ اللهُ -تعالىٰ- نساءَ الجَنَّةِ في سورةِ الرحمنِ بقولِهِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾[4].

---

(1) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة آل عمران: 7/ 165.

(2) الصافات: 48،49.

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الصافات: 7/ 11.

(4) الرحمن: 58.

تفسيرُ الفَخْرِ الرَّازِي لِلْآيةِ

قال الفخر الرازي: «﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وهذا التشبيهُ فيه وجهانِ: أَحَدُهُما: تشبيهٌ بصفائِهما، وثانيهما: بِحُسْنِ بياضِ اللُّؤْلُؤِ وحُمْرَةِ الياقوتِ، والمَرْجانُ: صغارُ اللُّؤْلُؤِ، وهيَ أَشَدُّ بياضًا وضياءً منَ الكِبَارِ بكثيرٍ، فإنْ قُلْنَا: إنَّ التشبيهَ لبيانِ صفائِهِنَّ، فنقول: فيهِ لَطيفةٌ هي: أنَّ قولَهُ -تعالىٰ-: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ إشارةٌ إلىٰ خُلُوصِهِنَّ عنِ القَبَائِحِ، وقولُه: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ إشارةٌ إلىٰ صفائِهِنَّ في الجنةِ، فأولُ ما بَدَأ بالعَقْلِيَّات، وخَتَمَ بالحِسِّيَّات، كما قلنا: إن التشبيهَ لبيانِ مُشابَهةِ جِسْمِهِنَّ بالياقوتِ والمُرْجانِ في الحُمْرةِ والبياضِ، فكذلكَ القولُ فيه حيثُ قَدَّمَ بيانَ العِفَّةِ علىٰ بيانِ الحُسْنِ»[1].

الشهد الرابع: مشهدٌ لنساءِ الجنةِ مِنْ سُورَةِ الواقِعَةِ

ووصفهن في سورةِ الواقعةِ، فقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[2].

تفسيرُ الشَّنْقِيطِيِّ لِلْآيةِ

قال الشيخُ محمدُ الأمينُ الشَّنْقِيطيُّ: «أَيْ: خَلَقْناهُنَّ خَلْقًا جَديدًا. وقولُه -تعالىٰ-: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ﴾، أَيْ: فَصَيَّرْناهُنَّ أبكارًا، وهو جَمْعُ بِكْرٍ، وهو ضِدُّ الثَّيِّبُ. وقوله: ﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوبٍ، وهي المُتَحَبِّبَةُ إلىٰ زوجِها، الحَسَنَةُ التَّبَعُّلِ. وقولُه -تعالىٰ-: ﴿أَتْرَابًا﴾ جَمْع

---

(1) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة الرحمن: 29/ 376.

(2) سورة الواقعة: 35-38.

تِرْب، وإيضاحُه أنَّ تِرْبَ الإنسانِ ما وُلِدَ معهُ في وقتٍ واحدٍ، ومعناه في الآية: أنَّ نساءَ أهلِ الجَنَّةِ علىٰ سِنٍّ واحدةٍ، ليسَ فيهنَّ شابةٌ وعجوزٌ، ولكنَّهُنَّ كلُّهُنَّ علىٰ سِنٍّ واحدةٍ في غايةِ الشبابِ. وبعضُ العلماءِ يقولُ: إنهنَّ ينشأنَ مُستوياتٍ في السِنِّ علىٰ قَدْرِ بناتِ ثلاثةٍ وثلاثينَ سنةً، وجاءتْ بذلك آثارٌ مَرْوِيَّةٌ عن النبيِّ ﷺ»[1].

(1) تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، سورة الواقعة: 7/ 519.

مَشْاهَدُ لنساءِ الجنةِ من نافذةِ السُّنَّةِ

المشهد الأول: وصْفُ نساءِ الجنةِ

ولقد وصفهن الصادق المصدوق فيما رُوِيَ عن أَنَسِ بن مالكٍ ﷺ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «والذي نَفْسِي بِيَدِه لو اطَّلعتِ امرأةٌ من نساءِ أهلِ الجنةِ علىٰ أهلِ الأرضِ لأضاءتْ ما بينَهُما، ولَمَلأَتْ ما بينهما رِيحًا، وَلَنَصِيفُها علىٰ رأسِها خيرٌ من الدنيا وما فيها»[1].

- قال ابن حجر في فتح الباري: «فُسِّر النَّصيفُ في الحديث بالخمارِ، وحكىٰ أبو عبيد الهروي أنَّ النصيفَ هو ما تَلْويهِ المرأةُ علىٰ رأسِها، وقال الأزهريُّ: هو كالعصابةِ تَلُفُّها المرأةُ علىٰ استدارةِ رأسِها»[2].
- قال الْمُنَاوي: «(لو اطَّلعتِ امرأةٌ من نساءِ أهلِ الجنةِ علىٰ أهلِ الأرضِ) أَيْ: نظرتْ إليها وأَشْرَفَتْ عليها (لَمَلأَتْ ما بينهما رِيحًا) طَيِّبَةً (ولأضاءتْ ما بينَهُما) من نورِ بهائِها (ولَنَصِيفُها): الخمار (علىٰ رأسِها خيرٌ منَ الدنيا وما فيها) لأنَّ الجنةَ وما فيها باقٍ، والدنيا مع ما فيها فانٍ»[3].

---

(1) رواه ابن حِبَّان في صحيحه، باب: ذكر الإخبار عن بعض وصف نساء الجنة اللاتي أعدهن الله لأوليائه: 16/ 413، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 11/ 442.

(3) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمُنَاوي: 2/ 295.

المشهد الثاني: وصْفُ غِنَائِهِنَّ

ووصف رسول الله ﷺ غناءهن فعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أزواجَ أهلِ الجنةِ لَيُغَنِّينَ أزواجَهُنَّ بأحسنِ أصواتٍ سَمِعَها أحدٌ قطُّ، إنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ: نحنُ الخيراتُ الحسانُ، أزواجُ قومٍ كرامٍ، ينظرونَ بِقُرَّةِ أَعْيانٍ، وإنَّ مما يُغَنِّينَ بِهِ: نحنُ الخالداتُ؛ فلا نَمُتْنَه، نحنُ الآمِنَاتُ؛ فلا نَخَفْنَه، نحنُ المُقِيماتُ، فلا نَظْعَنَّه»[1].

وفي سنن الترمذي: عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَمُجْتَمَعًا لِلْحُورِ الْعِينِ، يُرَفِّعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ يَسْمَعِ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا، قَالَ: يَقُلْنَ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيدُ، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْؤُسُ، وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ، طُوبَىٰ لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ»[2].

- قالَ عليٌّ القَارِي: «(يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ) أَرَادَ بِالْأَصْوَاتِ النَّغَمَاتِ، وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ، أَيْ: يَرْفَعْنَ أَصْوَاتَهُنَّ بِأَنْغَامٍ لَمْ تَسْمَعِ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا، يَقُلْنَ: «نَحْنُ الْخَالِدَاتُ»، أَيِ: الدَّائِمَاتُ فِي الْغِنَىٰ وَالْمَغْنَىٰ، (فَلَا نَبِيدُ) مِنْ بَادَ هَلَكَ وَفَنِيَ، أَيْ: فَلَا نَفْنَىٰ «وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ»، أَيِ: الْمُتَنَعِّمَاتُ، «فَلَا نَبْأَسُ»، أَيْ: فَلَا نَصِيرُ فَقِيرَاتٍ وَمُحْتَاجَاتٍ إِلَىٰ غَيْرِ الْمَوْلَىٰ، «وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ»، أَيْ: عَنْ رَبِّنَا، أَوْ عَنْ أَصْحَابِنَا،

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه عمارة: 5/ 149، والمعجم الصغير، مَنِ اسْمُهُ عُمَارَةُ: 2/ 35، وأبو نعيم في صفة الجنة، ذِكْرُ نَهْرٍ مِنَ الْأَنْهَارِ يُنْبِتُ الْجَوَارِي الْأَبْكَارَ: 2/ 166، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في كلام الحور العين: 4/ 696، وقال: «حديث غريب»، وضعفه الألباني.

«فَلَا نَسْخَطُ» فِي حَالٍ مِنَ الْحَالَاتِ، (طُوبَىٰ)، أَيِ: الْحَالَةُ الطَّيِّبَةُ (لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ)، أَيْ: فِي الْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ»[1].

المشهد الثالث: وَصْفُ فَرْحَةِ لُقْيا الأزواجِ في الجَنَّةِ

وأما عن فرحةِ لقاءِ رجالِ الجنةِ بنسائِها، فَما أَحْسنَ ما ذَكَرَ ابنُ رَجَبٍ في لطائِفِ المعارفِ:

➢ قال عَلِيٌّ رضي الله عنه: تَتَلقاهُم الملائكةُ علىٰ أبوابِ الجنةِ: ﴿سلامٌ عليكُم طِبْتُم فَادْخُلُوهَا خالِدِينَ﴾ يَتَلَقَّىٰ كلُّ غِلمانٍ صاحبَهم، يُطِيفُونَ به فِعْلَ الولدانِ بالحَمِيمِ[2] جاءَ مِنَ الغَيْبَةِ: أَبْشِر فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لكَ من الكرامةِ كذا وكذا، قدْ أَعدَّ اللهُ لكَ من الكرامةِ كذا وكذا، ويَنْطَلِقُ غلامٌ من غِلْمانِهِ إلىٰ أزواجِه من الحورِ العين فيقولُ: هذا فلانٌ باسمه في الدنيا؛ فَيَقُلْنَ: أنتَ رَأَيْتَهُ؟ فيقولُ: نَعَم، فَيَسْتَخِفُّهُنَّ الفَرَحُ، حتىٰ يَخْرُجْنَ إلىٰ أُسْكُفّة الباب[3]»[4].

ثُمَّ إنَّ الشوقَ إلىٰ الأزواجِ يَتَجَدَّدُ عندَ كلِّ لقاءٍ في الجنة، كما في حديثِ سوقِ الجنةِ، عن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجَنَّةِ سُوقًا، يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ؛ فَتَهُبُّ رِيحُ

---

(1) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 9/ 3589.

(2) الحميم القرابة، يقال: مُحمّ مُقَرَّب. وقال الفراء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: 10]؛ لا يسأل ذو قرابة عن قرابته. الجوهري: حميمك قريبك الذي تهتم لأمره، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 12/ 153.

(3) أسكفة الباب: العتبة التي يوطأ عليها، انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: 3/ 90.

(4) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: 12/ 441، وابن أبي حاتم في تفسيره: 4/ 1480، وابن أبي شيبة في مصنفه: 7/ 34، وقال أحمد شاكر: «في الأثر (عاصم بن ضمرة السلولي)، وثقه ابن سعد وابن المديني، والعجلي»، وقال النسائي: «ليس به بأس».

الشَّمَالِ، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِم وَثِيَابِهِمْ، فَيَزدَادُونَ حُسنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ، وَقَد ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لقدِ ازْدَدْتُمْ حُسْنًا وَجَمَالًا! فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمالًا!»[1].

(1) رواه مسلم، باب في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم والجمال: 4/ 2178.

طيبُ مآلِ الصالحونَ والصالحاتِ

طيِّبون عند لقاءِ مَلَكِ الموتِ

فما بين الأَمَةِ الصالحةِ وبينَ الفوزِ بما عندَ اللهِ إلا الموتُ، فَيُقْبِلْنَ علىٰ اللهِ طيباتٍ علىٰ كلِّ حالٍ وعندَ كلِّ مُنْقلبٍ

طيباتٌ عندما تَتَنَزَّلُ عليهنَّ الملائكةُ لقبضِ أرواحِهِنَّ لقوله -تعالىٰ-: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

قال أبو السُّعودِ: «قيلَ: فرحينَ طَيِّبِي النفوسِ بِبِشارةِ الملائكةِ إيَّاهُم بالجنةِ، أو طيبينَ بِقَبْضِ أرواحِهم لِتَوَجُّهِ نُفُوسِهِمْ بالكُلِّيَّةِ إلىٰ جِنَابِ القُدُسِ، تقولُ الملائكةُ لهم: سلامٌ عليكُمْ، قال القُرَظِيُّ -رحمه اللهُ-: إذا اُسْتُدْعِيَتْ نفسُ المؤمنِ؛ جاءَه مَلَكُ الموتِ عليه السلام فقالَ: السلامُ عليكَ يا وَلِيَّ اللهِ، اللهُ -تعالىٰ- يَقْرَأُ عليكَ السلامَ، وبَشَّرَهُ بالجنةِ، ادخلوا الجنة»[2].

وقال الفَخْرُ الرَّازِي: «قوله: ﴿طَيِّبِينَ﴾ كلمةٌ مختصرةٌ جامعةٌ للمعاني الكثيرةِ، وذلكَ لأنَّه يدخلُ فيه إِتْيانُهم بكلِّ ما أُمِرُوا به، واجتنابُهم عنْ كلِّ ما نُهُوا عنه، ويَدْخُلُ فيه كَوْنُهم مَوْصُوفينَ بالأخلاقِ الفاضلةِ، مُبَرَّئِينَ عن الأخلاقِ المذمومةِ، مُتَوَجِّهِينَ إلىٰ

---

(1) النحل: 32.

(2) تفسير أبي السعود المُسَمَّىٰ: إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، سورة النحل: 5/ 111.

حَضْرَةِ القُدُسِ والطَّهارةِ، ويدخلُ فيه أنهُ طابَ لهم قَبْضُ الأرواحِ، وأنها لم تُقْبَضْ إلا معَ البِشَارةِ بالجنةِ، حتىٰ صاروا كأنهم مُشاهدونَ لها، ومَنْ هذا حالُه؛ لا يَتَأَلَّمُ بالموتِ، وأكثرُ المفسرين علىٰ أنَّ هذا التَّوَفِّي هو قبضُ الأرواحِ»[1].

طيِّبُونَ عندَما تَتَلَقَّاهُمُ الملائكةُ على أبوابِ الجنانِ

أخبر عن ذلك الله -تعالىٰ- في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[2].

روىٰ ابن جرير الطبري، عن عاصمِ بن ضمرةٍ، عن عليٍّ، قال: «ذكر عمر -لشيءٍ لا أحفظُه-، ثم ذكرَ الجنةَ، فقال: يدخلونَ، فإذا شجرةٌ يخرجُ من تحتِ ساقِها عينانِ، قال: فَيَغْتَسِلونَ من إحداهما، فتجري عليهمْ نَضْرةُ النعيمِ، فلا تشعَثُ أشعارُهم، ولا تَغْبَرُّ أبشارُهم، ويشربُون من الأُخْرَىٰ، فيخرجُ كلُّ قَذًىٰ وقَذَرٍ وبَأْسٍ في بُطُونِهم. قال: ثمَّ يُفْتَحُ لهمْ بابُ الجنةِ، فيقالُ لهمْ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، قال: فتستَقْبِلُهمُ الوِلدانُ، فيَحفُّونَ بهمْ كما تَحفُّ الولدان بالحميمِ إذا جاءَ من غَيْبَتِه. ثُمَّ يأتونَ، فيُبَشِّرُونَ أزواجَهم، فيُسَمُّونَهُم بأسمائِهم وأسماءِ آبائِهم. فَيَقُلْنَ: أنتَ رأيْتَه! قال: فيستخفهنَّ الفرَحُ، قال: فَيَجِئْنَ حتىٰ يَقِفْنَ علىٰ أُسْكُفَّةِ البابِ. قال: فيجيئُونَ فيدخلونَ، فإذا أُسُّ[3] بيوتِهم بِجَندلِ[4] اللُّؤْلُؤِ، وإذا صُرُوحٌ صُفْرٌ وخُضْرٌ وحُمْرٌ، ومنْ كُلِّ لَوْنٍ، وسُرُرٌ مرفوعةٌ،

---

(1) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة النحل: 20/ 102.

(2) الزمر: 73.

(3) الأس: أصل البناء، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 1/ 14.

(4) الجندل: الحجارة، الواحدة: جندلة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 128.

وأكوابٌ موضوعةٌ، ونمارقُ مصفوفةٌ، وزرابيُّ مَبْثُوثةٌ[1]. فلولا أنّ اللهَ قدَّرها، لالْتُمِعَتْ أبصارُهم مِمَّا يرَوْنَ فيها. فُيعانِقُونَ الأزواجَ، ويَقْعُدُونَ علىٰ السُّرُرِ، ويقولونَ: ﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]»[3].

طيبونَ عندَ لقاءِ ربِّهمْ يومَ القيامةِ

قال -تعالىٰ- مخبرًا عن تحية الله لهم يوم يلقون: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[4].

---

(1) النَّمَارِقُ: جَمْعُ نُمْرُقَةٍ، وَهِيَ الوسادة الَّتِي يتكِئ عَلَيْهَا الْجَالِسُ وَالْمُضْطَجِعُ. ومَصْفُوفَةٌ، أَيْ: جُعِلَ بَعْضُهَا قَرِيبًا مِنْ بَعْضٍ صَفًّا، أَيْ: أَيْنَمَا أَرَادَ الْجَالِسُ أَنْ يَجْلِسَ وَجَدَهَا. وزَرَابِيُّ: جَمْعُ زَرْبِيَّةٍ، وَهِيَ الْبِسَاطُ الْمَنْسُوجُ مِنَ الصُّوفِ الْمُلَوَّنِ النَّاعِمِ يُفْرَشُ فِي الْأَرْضِ لِلزِّينَةِ وَالْجُلُوسِ عَلَيْهِ لِأَهْلِ التَّرَفِ وَالْيَسَارِ. وَالْمَبْثُوثَةُ: الْمُنْتَشِرَةُ عَلَىٰ الْأَرْضِ بِكَثْرَةٍ وَذَلِكَ يُفِيدُ كِنَايَةً عَنِ الْكَثْرَةِ، انظر: تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، سورة الغاشية: 30/ 301.

(2) الأعراف: 43.

(3) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: 12/ 441، وابن أبي حاتم في تفسيره: 4/ 1480، وابن أبي شيبة في مصنفه: 7/ 34، وقال أحمد شاكر: «في الأثر (عاصم بن ضمرة السلولي)، وثقه ابن سعد وابن المديني، والعجلي»، وقال النسائي: «ليس به بأس».

(4) الأحزاب: 44.

* قال ابن كثير: «قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الظاهرُ أنَّ المرادَ -والله أعلم- ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾، أَيْ: مِنَ اللهِ -تعالىٰ- يومَ يلْقَوْنَه ﴿سَلَامٌ﴾، أَيْ: يومَ يُسَلِّم عليهم، كما قالَ -تعالىٰ-: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[1]»[2].

ثم إنَّ رضوانَ اللهِ لعبادِهِ زيادةٌ علىٰ مُجَرَّدِ المُتْعةِ المُجَرَّدَةِ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3].

* قال ابنُ جرير: «فإنَّ معناهُ: ورِضَىٰ اللهِ عنهمْ أكْبَرُ منْ ذلكَ كلِّه، وبذلكَ جاءَ الخَبَرُ عن رسولِ اللهِ ﷺ. كما روىٰ البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟! أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي؛ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[4]»[5].

* قال الفخرُ الرازي: «قَوْلُهُ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الْمَعْنَىٰ: أَنَّ رِضْوَانَ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ مَا سَلَفَ ذِكْرُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا هُوَ الْبُرْهَانُ الْقَاطِعُ عَلَىٰ أَنَّ السَّعَادَاتِ الرُّوحَانِيَّةَ أَشْرَفُ

---

(1) يس: 58.

(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الأحزاب: 6/ 387.

(3) التوبة: 72.

(4) رواه البخاري في صحيحه، باب: كلام الرب مع أهل الجنة: 9/ 151، ومسلم، باب: إحلال الرضوان علىٰ أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا: 4/ 2176.

(5) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، سورة التوبة: 14/ 355.

وَأَعْلَىٰ مِنَ السَّعَادَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ... لِأَنَّهُ -تَعَالَىٰ- نَصَّ عَلَىٰ أَنَّ الْفَوْزَ بِالرِّضْوَانِ أَعْلَىٰ وَأَعْظَمُ وَأَجَلُّ وَأَكْبَرُ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَىٰ أَنَّ السَّعَادَاتِ الرُّوحَانِيَّةَ أَكْمَلُ وَأَشْرَفُ مِنَ السَّعَادَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ»[1].

❋ قال الآلوسي في روحِ المعاني: «أيْ: الرضوانُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لكرامةِ أهلِه عندَ اللهِ -تعالىٰ- وشدةِ قُرْبِهم ... فإنَّ المُحِبَّ لا تَطِيبُ له الدارُ من غيرِ رؤيةِ محبوبِه؛ ولكونِ الرضوانَ هو المدارُ لكلِّ خيرٍ وسعادةٍ، والمناطُ لكلِّ شَرَفٍ وسيادةٍ؛ كانَ أكبرَ من هاتِيكَ الجَنَّاتِ والمساكنِ»[2].

(1) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة التوبة: 16/ 102.

(2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين الألوسي، سورة التوبة: 5/ 332.

زِيادةُ الكَرِيمِ الوَهَّابِ

ثم زيادةُ ربنا لأهلِ الجنةِ فوقَ كلِّ لذةٍ، وأكبرُ منْ كلِّ نعيمٍ، وأشرفُ مِنْ كل مُتْعَةٍ، يوم يَتَجَلَّىٰ لهم في أَبْهَىٰ صورةٍ؛ فينظرون إليه، عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ، عَنِ النبي ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﷻ»[1].

وفي رواية لابن حبان: «قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ؛ نَادَىٰ مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ؛ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ يَعْنِي إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ»[2].

فيا مُتْعَةَ الأسماعِ وهيَ تَسْمَعُ ربَّها يُسَلِّمُ عليها، ويُحاضِرُها محاضرةً، ويا لَذَّةَ الأبصارِ والأرواحِ، ويا فرحةَ القلوبِ، وهيَ تَرَىٰ ربَّها تَجَلَّىٰ لها في أَبْهَىٰ صورةٍ، وأيُّ لذةٍ تَعْدِلُ هذهِ اللذةَ، وأيُّ فرحةٍ تُدَانِي هذهِ اللذةِ، يومَ تَلْقَىٰ الأَمَةُ الصغيرةُ الربَّ الكبيرَ، يومَ

---

(1) رواه مسلم، باب: باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالىٰ-: 1/ 163.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، باب: ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ رُؤْيَةَ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ فِي الْمَعَادِ مِنَ الزِّيَادَةِ الَّتِي وَعَدَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عِبَادَهُ عَلَىٰ الْحُسْنَىٰ الَّتِي يُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا: 16/ 471، وصَحَّحَهُ الألباني.

يُسَلِّمُ الإلهُ العظيمُ علىٰ إمائِهِ الصالحاتِ الصابراتِ علىٰ قَضَائِهِ فيهنَّ، دُونَها كلُّ مُتَعِ الدنيا وملاذِّها، ودُونُها الأزواجُ والأولادُ والخلانُ؛ فيا فَوْزَ المُكْرَمَاتِ، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

فلا يجدُ أهلُ الجنةِ أفضلَ منْ أنْ يَحْمَدوا ربَّهمُ الذي وَفَّقَهُمْ للإيمانِ، وأكرمَهُمْ بالجنانِ، وزادَهُم بالرضوانِ ورؤيةِ وجْهِ الرحمنِ. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[2].

---

(1) فصلت: 35.

(2) فاطر: 34.

آخرُ دُعاءِ أهلِ الجَنَّةِ

ثم آخر دعاء أهل الجنة: الحمد لله رب العالمين؛ فلا يجدُ أهلُ الجنةِ أفضلَ منْ أنْ يَحْمَدوا ربَّهمُ الذي وَفَّقَهُمْ للإيمانِ، وأكرمَهُمْ بالجنانِ، وزادَهُم بالرضوانِ ورؤيةِ وجْهِ الرحمنِ.

قال -تعالىٰ- واصفًا حَمْدَ أهلِ الجنةِ بما رُزِقُوا مِنْ كَرَامَةٍ وحُسْنِ مآلٍ ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

قال البيضاوي: «وآخرُ دعائِهم ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أيْ: أنْ يقولوا ذلكَ ولعلَّ المَعْنَىٰ: أنهمْ إذا دَخَلُوا الجنةَ وعايَنُوا عَظَمَةَ اللهِ وكبرياءَه؛ مَجَّدُوهُ، ونَعَتُوه بنعوتِ الجلالِ، ثم حَيَّاهُم الملائكةُ بالسلامةِ عن الآفاتِ، والفوزِ بأصنافِ الكراماتِ أو حَيَّاهُم اللهُ -تعالىٰ- فَحَمِدُوه وأثنَوا عليهِ بصفاتِ الإكرامِ»[2].

قال ابن القيم: «هذا أعظمُ فرحٍ يكونُ، وكذلكَ العبدُ لا فرحَ لهُ أعظمُ منْ فَرَحِهُ بوجُودِ رَبِّهِ وأُنْسِه به، وطاعتِهِ له، وإقبالِه عليه، وطمأنِينَتِه بِذِكْرِه، وعمارةِ قلبِه بمعرفتِه، والشوقِ إلىٰ لقائِه، فليسَ في الكائناتِ ما يَسْكُنُ العبدُ إليه، ويطْمَئِنُّ به، ويَتَنَعَّمُ بالتَّوَجُّهِ إليهِ إلا اللهَ -سبحانَه-»[3].

---

(1) يونس: 10.

(2) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، سورة يونس: 3/ 106.

(3) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 57.

وقال -رحمه الله-: «لا يُفْتَتَحُ أمرٌ إلا باسْمِهِ، ولا يَتِمُّ إلا بِحَمْدِهَ، ولا يُدْرَكُ مَأْمُولٌ إلا بِتَيْسِيرِهِ، ولا تُنَالُ سعادةٌ إلا بطاعَتِهِ، ولا حياةَ إلا بِذِكْرِهِ ومحبَّتِه ومَعْرِفَتِه، ولا طابتِ الجنةُ إلا بسماعِ خِطَابِه ورُؤْيَتِه الذي وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعِلْمًا، وأوسع كلَّ مخلوق فضلًا وبِرًا»[1].

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 3/ 263.

شَوْقٌ لِلِقَاءِ اللهِ واسْتِبَاقٌ

عَلِم كلَّ هذا الصالحات، فاشتدَّ اشتياقُهنَّ إلىٰ لُقْيا الرحمن، فَشَمَّرْنَ ساقَ الجَدِّ، وأسرعْنَ السيرَ، في طلبِ علالي الجنانِ، ومجاورةِ الرحمنِ، يَسْتَبِقْنَ الخيراتِ، ويسارعنَ في القُرُباتِ، تَتَراءَىٰ إحداهُنَّ لسيدِها في أَبْهَىٰ حُلَلِ الإيمان، وأقشب أزياءِ الإحسانِ، لا تَرْضَىٰ بأقلَّ من النزولِ في منزلِ القُرْب، ومجاورةِ الرَّبِّ، كما قال الغزاليُّ: «وأمَّا إرادتُه، فيُنَزِّهُها عنْ أنْ تدورَ حولَ الحظوظِ البشريةِ، التي ترجعُ إلىٰ لذةِ الشهوةِ والغَضَبِ، ومُتْعة المطعمِ والمشربِ والمنكحِ والملبسِ، والملمسِ والمنظرِ، بل لا يريدُ إلا اللهَ ﷻ، ولا يَبْقَىٰ له حظٌّ إلا فيه، ولا يكونُ له شوقٌ إلا إلىٰ لقائِه، ولا فرحَ إلا بالقربِ منهُ، ولو عُرِضَتْ عليه الجنةُ وما فيها من النعيمِ؛ لم تَلْتَفِتْ هِمَّتُه إليها، ولمْ يَقْنَعْ منَ الدارِ إلا بِرَبِّ الدارِ... فَجَلَالةُ المريدِ علىٰ قَدْرِ جلالةِ مُرَادِهِ، ومَنْ هِمَّتُه ما يدخُلُ في بَطْنِه؛ فَقِيمَتُه ما يخرجُ منْهُ، ومنْ لمْ يكنْ لهُ هِمَّةٌ سوىٰ اللهِ ﷻ، فَدَرَجَتُه علىٰ قدر هِمَّتِه، ومَنْ رَقَّىٰ هِمَّتَه عن درجَةِ المتخيلاتِ والمحسوساتِ، وقدَّسَ إرادتَهُ عن مُقْتَضَىٰ الشهواتِ، فقدْ نَزَلَ بحبوحةَ حظيرةِ القُدُسِ»[1]. ولهذا أخذ الرسول ﷺ يردد يوم الخندق ما روىٰ أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ»[2].

---

(1) المقصد الأسنىٰ في شرح معاني أسماء الله الحسنىٰ، لأبي حامد الغزالي: 1/ 69.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: لا عيش إلا عيش الآخرة: 8/ 88، ومسلم، باب: غزوة الأحزاب: 3/ 1431.

وِقْفَةٌ لازِمَةٌ

فما عليكِ أيتها المسلمةُ إلا أنْ تَقِفِي معَ نفسِكِ وِقْفةَ صدقٍ، ثمَّ تُحَدِّدِي، ماذا تريدين؟ وعَمَّ تبحثينَ؟ فَلَئِنْ كنتِ تريدينَ السعادةَ التي لا تَنْقَضِي، والفرحَ الذي لا يحولُ ولا يزولُ، فَقِفِي وِقْفةً أُخْرَىٰ، وأعيدِي النظرَ، وارجِعي البصرَ كَرَّةً أخرَىٰ، ثمَّ قارِنِي بين السعادتَيْنِ، وبين الفرحتَيْنِ وبينَ الزوجينِ وبين النَّعِيمَينِ، وبين الكرامَتَيْنِ، ثمَّ اختارِي... اختارِي لنفْسِكِ بِنَفْسِكِ، واعْمَلِي بِنَفْسِك لِنَفْسِكِ، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾[1].

* وما عَسَىٰ المسلمةُ الأَيِّمُ أنْ تقولَ بعدَ أنْ رأتْ ما رأتْ، وسَمِعَتْ ما سَمِعَتْ من جليلِ الكراماتِ، وعظيمِ الهباتِ من رَبِّ الأرضِ والسماواتِ. فأينَ أزواجُ الدنيا، الذينَ يُبولُونَ ويَتَغَوَّطُونَ ويَمْتَخِطونَ ويَتْفُلونَ ويَفْسُقُونَ ويَحْسُدونَ ويَضِجُّونَ ويُقَبِّحُونَ ويَمْرَضُونَ ويَهْرَمُون ويموتون، مِمَّنْ سَمِعْتِ أوصافَهُمْ مِنْ أزواجِ الجنةِ؟ وأينَ نساءُ الدنيا وما فِيهِنَّ منْ نَقْصٍ وضَعْفٍ وعَجْزٍ وضَيْعَةٍ، منْ نساءِ الجنةِ -واللاتِي أنتِ واحدةٌ منهنَّ إنْ شاءَ اللهُ- الخالداتِ فلا يَمُتْنَ، والآمناتِ فلا يَخَفْنَ، والمُقِيماتِ فلا يَظْعَنَّ، لا يَفْنَىٰ شبابُها، ولا تَبْلَىٰ ثيابُها، المُطَهَّراتِ منَ البَوْلِ والغائِطِ والنُّخامِ والبُزَاقِ والحَيْضِ والنفاسِ والأقْذَارِ والأذَىٰ، المطهراتِ منَ الأخلاقِ الرذيلةِ: الأذَىٰ والمَأْثَم والصفاتِ الناقصةِ؟ أينَ مُساكنةُ الناسِ، مِنَ القُرْبِ منْ رَبِّ الناسِ؟ فالأمرُ كما قالَ ابنُ القيِّمِ: «فَبَيْنَ العبدِ وبينَ

(1) الإسراء: 19.

السعادةِ والفلاحِ: قوةُ عزيمةٍ، وصَبْرُ ساعةٍ، وشَجَاعةُ نَفْسٍ، وثَبَاتُ قَلْبٍ؛ والفضلُ بِيَدِ اللهِ يؤتيه مَنْ يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ»[1].

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 210.

الفَصْلُ السَّادِسُ

ما عندَ اللّهِ لا يُدْرَكُ بِمَعْصِيَتِهِ

لِتَعْلَمْ أَيَامَىٰ النِّساءِ أَنَّ الزواجَ رزقٌ، وأَنَّ الجمالَ رزقٌ، كما أَنَّ المالَ رزقٌ، والعلمَ رزقٌ، والدينَ رزقٌ، واللهُ مُقَسِّمُ أرزاقِ العبادِ، روىٰ البيهقيُّ في شُعَبِ الإيمانِ بسند صحيح، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ وَأَنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِيَ[1] أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ[2]، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»[3].

---

(1) نَفَثَ: تفل بغير ريق، في روعي: أي ألقىٰ الوحي في خَلَدِي وبالي أو في نفسي أو قلبي أو عقلي من غير أن أسمعه ولا أراه، والنفث ما يلقيه الله إلىٰ نبيه ﷺ إلهامًا بمشاهدة عين اليقين، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمُنَاوي: 2/ 450.

(2) أجملوا في الطلب: بأن تطلبوه بالطرق الجميلة المحللة بغير كد ولا حرص ولا تهافت علىٰ الحرام والشبهات، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمُنَاوي: 2/ 450.

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: الزهد وقصر الأمل: 13/ 19، وحَسَّنَهُ الألباني.

وفي روايةٍ: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أيُّها الناسُ اتَّقُوا اللهَ، وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، فإنَّ نَفْسًا لنْ تموتَ حتىٰ تستوفيَ رِزْقَها؛ وإنْ أَبْطَأَ عنها، فَاتَّقُوا اللهَ وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، خُذُوا ما حَلَّ، ودَعُوا ما حَرُمَ»[1].

وفي روايةٍ: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، فإنَّهُ لنْ يموتَ العبدُ حتَّىٰ يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ هوَ لهُ، فَأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ: أَخْذُ الحلالِ، وتَرْكُ الحَرَامِ»[2].

* فَلَا ينبغِي لمؤمنةٍ تَرجُو اللهَ واليومَ الآخرَ أن يحمِلَها استبطاءُ الزواجِ علىٰ فِعْلِ ما لا يُرْضِي اللهَ -سبحانه وتعالىٰ-، وسلوكِ غيرِ سبيلِ المؤمنين، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون، فما أكثرَ جَزَعَ نساءِ هذا الزمانِ، وما أقلَّ يَقِينُهنَّ باللهِ -تعالىٰ-، فما إنْ يَتَأَخَّرْ زواجُ المرأةِ حتىٰ تأخذَ تبحثُ عن سَبَبِ تَأَخُّرِ الزواجِ، وقِلَّةِ الخُطَّابِ، ذاهبةً في ذلكَ كلَّ مذهبٍ، حتَّىٰ لوْ خالفَتْ أمرَ اللهِ -تعالىٰ- وأمرَ رسولِهِ ﷺ. ولو ذهبنا نَسْتَقْصِي مخالفاتِ النساءِ لربَّما عزَّتْ علىٰ الحَصْرِ، ولكِنَّنَا نُنَبِّهَ علىٰ أكثرِها شُيُوعًا، وفي ذِكْرِ البَعْضِ غُنْيَةٌ عن ذِكْرِ الكُلِّ لِمَنْ تَعْقِل:

الأول: الذهابُ إلى السَّحَرةِ والمُشَعْوِذِينَ الدَّجالِينَ

من النساءِ الأيامَىٰ مَنْ تذهبُ بها الوسوسةُ إلىٰ الظنِّ بأنَّها مسحورةٌ، وتبدأُ تَسْتَظْهِرُ أعراضَ السِّحْرِ، وتُعِينُها أمُّها علىٰ ذلكَ، حتىٰ يبلغَ الظنُّ درجةَ اليقينِ، وتبدأُ تطرقُ أبوابَ

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة: 2/ 725، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، باب: ذكر الزجر عن استبطاء المرء رزقه مع ترك الإجمال في طلبه: 8/ 32، وقال الألباني: «صحيح لغيره».

مَنْ يَدَّعُون العلاجَ من السحرِ، وأكثرُهُم من السَّحَرةِ الدَّجالينَ، أو المُرْتَزِقَةِ الكذَّابينَ، الذينَ يَقْتَاتُونَ علىٰ آلامِ الناسِ وأوجاعِهِمْ، وما إنْ يصلِ الصيدُ شِبَاكَ الدجالِ[1]، حتىٰ يَأْسِرَها بظاهرِ تَدَيُّنِهِ، وزَعْمِهِ معرفةَ العلاجِ بالقرآنِ،؛ فتُصَدِّقُ المسكينةُ كلَّ كَلِمةٍ من هذا المُدَّعِي، لا تَشُكُّ فيها، فيؤكد لها وجودَ عَمَلٍ أو سِحْرٍ، وأنَّهُ منَ النوعِ الصعبِ الذي يَتَجَدَّدُ، ثمَّ يُبَرْهِنُ علىٰ صِدْقِ فِرْيَتِهِ باتِّهامِ بعضِ البريئاتِ من المسلماتِ بصناعَتِهِ، فيصفُ لها أوصافَ مَنْ صنعتْ لها السِّحْرَ، فيقعُ الوصفُ علىٰ جارةٍ، أو قريبةٍ أو صاحبةٍ؛ فتكونُ القطيعةُ والبُغْضُ، والتُّهَمُ الباطلةُ والفُرْقةُ، ويَتَشَتَّتُ هَمُّ المسكينةِ، ويصيبُها منَ الهَمِّ والأَلَمِ أضعافَ ما بِها مِنْ تَأَخُّرِ الزواجِ.

استِغْلالُ السَّحَرَةِ لحاجةِ النساءِ

فإذا صَدَّقَتِ الأَيِّمُ السَّاحرَ، وقعتْ فريسةً لهذا الدجالِ؛ لتكونَ زبُونًا دائمًا لِمَتَجْرَهِ، كُلَّما تَأْتِيهِ يقولُ لها: استخرجْتُ السِّحْرَ، ولكَّنه سحرٌ صعبٌ مُتَجَدِّدٌ، وهذا يحتاجُ إلىٰ طُولِ علاجٍ، وجلساتٍ مُتَتَابعةٍ؛ ومُرَادُه التَّمادِي في خِدَاعِ المسكينةِ والتَّكَسُّبُ منها أكثرَ ما يستطيعُ. ولربما كانَ هذا الدجالُ من كبارِ المُجْرمينَ؛ فَيَفْتِكُ بِهَا، ويَنْتَهِكُ عِرْضَها، مِنْ حيثُ لا تستطيعُ فَكَاكًا، وهوَ في هذا كلِّهِ يبدُو لها فِي ثوبِ النَّاسكِ[2] الحريصِ، الذي لا يَأْخُذُ إلا تَكْلُفَةِ بعضِ الأعشابِ التَّي أعدَّها، وأنَّه يعالجُ بالقرآنِ وبالرُّقَىٰ المشروعةِ، وما عَلِمَتْ هذهِ أنَّها وقَعَتْ في كبائرِ الذنوبِ من حيثُ لا تشعُرُ، فعَنْ صَفِيَّةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ

---

(1) الدجال: من الدجل، وَهُوَ الْكَذِب والتمويه وخلط الْحق بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ كَذَّاب مموه خلاط، انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 2/ 94.

(2) النُّسُكُ: حَقِيقَتُهُ الْعِبَادَةُ وَمِنْهُ يُسَمَّىٰ الْعَابِدُ النَّاسِكُ، انظر: تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، سورة الأنعام: 8/ 201.

النَّبِي ﷺ، عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَىٰ عَـرَّافًا، فَسَـأَلَهُ عَـنْ شَيءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَالْحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا[2]، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ»[3].

في الرُّقَية الشَّرْعِيَةِ والدعاءِ غُنْيَةٌ

ولئِنْ أرادتِ الأيم أنْ تَبْحثَ عن علاجٍ -ولا بُدَّ-؛ ففِي الرُّقَىٰ الشرعِيَّة مَنْدوحةٌ[4] عنِ المناهِي الربَّانِيةِ، وفي الدعاءِ الصادقِ من قَلْبٍ مكسورٍ، من الأَمَةِ المُضْطَرَّةِ في أوقات الإجابةِ: في جَوْفِ الليلِ حين ينادِي الجليلُ: من يَدْعُوني؛ فأستجيبَ لهُ، من يسألُنِي؛ فَأُعْطيَه، ما هو خيرٌ وأَرْجَىٰ. ثمَّ إذا تَأَخَّرَ عنها حَظُّها منَ الزواجِ بعدَ ذلكَ؛ لِتَعْلَمْ، أَنَّهُ شرٌّ صرفَهُ اللهُ عنْهَا، وأنَّ اللهَ اختارَ لها ما هو خيرٌ لها، وأنَّ دعاءها لنْ يذهبَ سُدًىٰ، وأنّ اللهَ -تعالىٰ- ادَّخَرَ لها بركةَ الدعاءِ حتَّىٰ يُوَفِّيَها إياهُ أَحْوَجَ ما تكونُ له، أو يكتبُ لها بِهِ أجرًا، أوْ يصرفُ اللهُ -تعالىٰ- بهِ عنها ضُرًّا.

---

(1) رواه مسلم، باب: باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان: 4/ 1751.

(2) العرَّاف: الَّذِي يتعاطىٰ معرفَة الشَّيْء الْمَسْرُوق وَمَكَان الضَّالة وَنَحْو ذَلِك. والكاهن يتعاطىٰ علم مَا يكون فِي مُسْتَقْبل الزَّمَان، وَيَدعِي معرفَة الْأَسْرَار، انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 4/ 429.

(3) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة: 15/ 331، وحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

(4) مندوحة: سعة وفسحة، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 5/ 414.

التَّعَرُّضُ للخُطَّاب وإظهارُ زينتِها للناس

وربما ظَنَّتْ بعضُ النساءِ أنَّ قِلَّة الخُطَّابِ بسببِ ارتدائِها الحجابَ، ولأنها لا تَظْهَرُ للناسِ؛ فتجتهدُ أمُّها فِي تَكَلُّفِ الخروجِ بابنَتِها لسببٍ ولغير سببٍ كَيْ يراها الناسُ، فَتَخْطُرَ ببالِهم؛ فَتَقَع في مَحْظورٍ عظيمٍ برؤيةِ مَنْ لا يَحِلُّ لهُ رؤيَتَها، وربَّما أَدَّىٰ هذا إلىٰ علاقاتٍ غيرِ مشروعةٍ؛ أَفْضَتْ إلىٰ مُنْكَراتٍ عظيمةٍ، وفتحتْ أبوابًا مِنَ الشرِّ لا تَنْغَلِقُ؛ لأنَّ المسلمةَ خالفتْ بهذا قولَ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وقولَه -تعالىٰ-: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

* فَهَلَّا اطْمأَنَّتِ المسلمةُ إلىٰ قضاءِ اللهِ فيها؛ فصبرتْ واحتسبتْ، ورضيَتْ بحكمِ اللهِ فيها، أَوَمَا عَلِمَتِ المسلمةُ أنَّ اللهَ الذي نهاها عن هذا هو أعلمُ بما أنفعُ لها، وأنَّه أرحمُ بها من أمِّها وأبيها والناسِ أجمعين؟

---

(1) الأحزاب: 33.

(2) النور: 31.

الثاني: التَّجَمُّلُ بما لم يأذنْ به الله

وربما ظنتِ الأَيِّمُ أن قِلَّةَ حَظِّها من الجمال هي السببُ في تأخُّر زواجها؛ فيحملُها ذلك علىٰ التَّجَمُّلِ بزينةٍ غيرِ مشروعة من وضعِ الطلاءِ والمساحيقِ والأصباغِ علىٰ الوجهِ والشَّفَتَيْنِ، أو بالوَشْمِ والتَّنَمُّص والتَّفَلُّج، فتُعَرِّض نفسَها لِلَعْنةِ الجَبَّارِ -سبحانه-، ففي صحيح البخاري: عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ، قَالَ: «لَعَنَ اللهُ: الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ؛ فَقَالَ وَمَا لِي أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ، فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1]، قَالَتْ: بَلَىٰ، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَىٰ عَنْهُ؛ قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَىٰ أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ، قَالَ: فَاذْهَبِي، فَانْظُرِي؛ فَذَهَبَتْ، فَنَظَرَتْ؛ فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا»[2].

قال ابن الجوزي: في كَشْفِ المُشْكِل: «أما الوشمُ فَهُوَ غَرْزُ الْكَفّ أَو الذِّرَاع بالإبرة، ثمَّ يُحْشَىٰ بِكُحْل أَو نَحوه مِمَا يُخَضِّرُه، فالفاعلةُ واشمةٌ، وَالَّتِي تطلبُ أَن يُفْعلَ بهَا ذَلِك مُسْتَوْشِمةٌ. و(النامِصَةُ): الَّتِي تَنْتِفُ الشّعْرَ من الْوَجْهِ. و(المُتَنَمِّصةُ): هِيَ الَّتِي تطلبُ أَن

---

(1) الحشر: 7.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: قوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾: 6/ 147، ومسلم، باب: باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله: 3/ 1678.

يفعلَ بهَا ذَلِك، وَهُوَ مَأْخُوذ من المِنْماصِ، وَهُوَ المِنْقَاشِ، وَ(الْمُتَفَلِّجَات): هُنَّ اللواتي يتكلَّفْن تَفْرِيجَ مَا بَينَ الثنايا والرباعيات بِصِناعةٍ. والفلج فِي الْأَسْنَان: تَبَاعُدُ مَا بَين ذَلِك. يُقَال: رجل أفلج الْأَسْنَان، وَامْرَأَة فلجاء الْأَسْنَان. وَقد جَاءَ فِي حَدِيث آخر: أَنه لعن الواشرة والمؤتشرة. قَالَ أَبُو عبيد: الواشرة الَّتِي تَشِر أسنانها: أَي تُفَلِّجها وتُحَدِّدُها حَتَّىٰ يكون لَهَا أشر: وَهِي رِقَّة وتَحَدُّد فِي أَطْرَاف الأَسْنَان»[1].

احْذَرِي التَّسْنِيمَ

وربما لَبِستِ المسلمةُ الملابسَ غيرَ المشروعةِ، أو صَنَعَتْ في شَعْرِها الأهاويلَ، مِنْ رَفْعِهِ فوقَ رأسِها شِبْرًا، كأنَّهُ سنامةُ جَمَلٍ، مُخَالِفَةً أمر ربها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2]، وهي في هذا تتَبَوَّأُ لها مقعدًا من النارِ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَومٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»[3].

---

(1) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 1/ 273.

(2) الأحزاب: 59.

(3) رواه مسلم، باب: النساء الكاسيات العاريات: 3/ 1680.

وفي روايةٍ: «سيكونُ في آخرِ أُمَّتِي نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ علىٰ رؤُوسِهِنَّ كأسنِمَةِ البُخْتِ[1]؛ اِلْعَنُوهُنَّ، فإنَّهُنَّ ملعوناتٌ»[2].

قال النووي -رحمه الله-: «معنىٰ (كَاسِيَاتٌ)، أيْ: مِنْ نِعْمَةِ اللهِ، (عَارِيَاتٌ) مِنْ شُكْرِهَا. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: تَسْتُرُ بَعْضَ بَدَنِهَا وَتَكْشِفُ بَعْضَهُ إِظْهَارًا لِجَمَالِهَا وَنَحْوِهِ. وَقِيلَ: تَلْبَسُ ثَوبًا رَقِيقًا يَصِفُ لَوْنَ بَدَنِهَا. وَمَعْنَىٰ (مائِلَاتٌ)، قِيلَ: عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَمَا يَلْزَمُهُنَّ حِفْظُهُ، (مُمِيلَاتٌ)، أيْ: يُعَلِّمْنَ غَيْرَهُنَّ فِعْلَهُنَّ المَذْمُومَ. وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَمْشِينَ مُتَبَخْتِرَاتٍ، مُمِيلَاتٌ لأَكْتَافِهِنَّ، وقيلَ: مائلاتٌ يَمْتَشطنَ المِشْطَةَ المَيلاءَ، و(مُميلاتٌ) يُمَشِّطْنَ غَيْرَهُنَّ تِلْكَ المِشْطَةَ، ومعنىٰ: (رُؤوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ)، أيْ: يُكَبِّرْنَهَا وَيُعَظِّمْنَهَا بِلَفِّ عِمَامَةٍ أَوْ عِصَابَةٍ أَوْ نَحْوِهَا»[3].

نبوءةُ النبيِّ ﷺ تَتَحَقَّقُ في نِساءِ الأُمَّةِ

والمتأملُ قوله ﷺ: (رؤوسهن كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ) عَلَمٌ من أعلامِ النبوةِ، حيثُ أخبرَ النبي ﷺ بأمرٍ لم يَرَهُ، وها قدْ تَحَقَّقَ في نساءِ هذا الزمانِ؛ فرأيناه عيانًا، رأينا في نساءِ هذا الزمانِ مَنْ تُسَنِّم رأْسَها، فتضعُ عليه لُفَافةً ترفعُ به شعرها؛ فيبدو كأنَّه سنامةُ الجملِ،

---

(1) (رؤوسهنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ): الْبُخْتِيُّ مِنَ الْجِمَالِ، وَالْأُنْثَىٰ بُخْتِيَّةٌ جَمْعُ بُخْتٍ، وَبَخَاتِيٍّ جِمَالٌ طِوَالُ الْأَعْنَاقِ؛ أَيْ: يُعَظِّمْنَهَا وَيُكَبِّرْنَهَا بِلَفِّ عِصَابَةٍ وَنَحْوِهَا، انظر: مرقاة المفاتيح سرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 6/ 2302.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه هارون: 9/ 131، وقال الألباني: «إسناده صحيح».

(3) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 14/ 110.

ولقدْ أصبحَ هذا مُوضةَ العصرِ -كما يقالُ- وهو ما يُسَمُّونَه بتسريحةِ (البف)؛ فصدق رسول الله ﷺ.

الثالث: الاستعطارُ والتَطَيُّبُ للناسِ

وقد تخرجُ المسلمةُ من بيتها مُسْتَعْطِرةً تبتغِي أنْ تَسْتَميلَ الخُطَّابَ بِمَقْتِ ربِّ الأربابِ، وقد شَنَّعَ النبيُّ ﷺ فعلها، فعن أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ، فَمَرَّتْ بِقَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ»[1].

➢ قال المُنَاوِيُّ: «أَيْ: عليها مِثْلُ إثمِ الزانيةِ؛ لأنَّ فاعلَ السبَبِ كفاعلِ المُسَبَّبِ»[2].

❋ وقال -رحمه الله- في فيض القدير: «قال الطيبي: شَبَّهَ خروجَها من بيتِها مُتَطَيِّبَةً مُهَيِّجَةً لشهواتِ الرجالِ التي هي بمنزلةِ رائِدِ الزِّنَا بالزنا وحُكِمَ عليها بما يُحْكَمُ علَىٰ الزاني من الاغتسالِ منَ الجنابةِ مُبالَغَةً وتشديدًا عليها، وإذا كانَ هذا حُكْمَ تَطَيُّبِها للذهابِ إلىٰ المسجدِ؛ فما بالُك بِتَطَيُّبِها لِغَيْرِهِ؟ ...

وقدْ بالغَ بعضُ السَّلَفِ في ذلكَ حتَّىٰ كانَ ابنُ عُمَرَ -رضي الله عنهما- يَنْهَىٰ عن القعودِ بِمَحِلِّ امرأةٍ قامتْ عنه حتَّىٰ يَبْرُدَ»[3].

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي موسىٰ الأشعري: 32/ 532، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده جيد».

(2) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي: 1/ 412.

(3) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي: 3/ 147.

- وقال عليٌّ القاري: «هي زانيةٌ؛ لأنَّها قَدْ هَيَّجَتْ شهوةَ الرجالِ بِعِطْرِها، وحَمَلَتْهُم علىٰ النظرِ إليها، ومَنْ نظرَ إليها؛ فقدْ زَنَىٰ بعينِهِ، فإذا هيَ سَبَبُ زِنَاهُ بالعَيْنِ؛ فتكونُ آثمةً بإثْمِ الزِّنا»[1].
- قال الإمام الذهبي: «ومن الأفعالِ التِي تُلْعَنُ عليها المرأةُ إظهارُ الزينةِ والذَّهَبِ واللؤلؤِ، وتطيُّبُها بالمسكِ والعَنْبَرِ والطِّيبِ إذا خرجتْ، ولبسُها الصباغاتِ، وكلُّ ذلك من التَّبَرُّجِ الذي يَمْقُتُ الله عليه، ويمقُتُ فاعلَه في الدنيا والآخرةِ، ولهذه الأفعالُ التي قد غلبتْ علىٰ أكثرِ النساءِ قال عنهن النبي ﷺ: «اطلعتُ علىٰ النارِ فرأيتُ أكثرَ أهلِها النساءَ»[2].

* وقدْ عدَّها ابنُ حَجرِ الهيثميُّ -رحمه الله- من الكبائر، فقال: «الْكَبِيرَةُ التَّاسِعَةُ وَالسَّبْعُونَ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ: خُرُوجُ الْمَرْأَةِ مِنْ بَيْتِهَا مُتَعَطِّرَةً مُتَزَيِّنَةً وَلَوْ بِإِذْنِ الزَّوْجِ»[3].

الرابع: خلعُ ملابِسِها في غيرِ بَيْتِ أهلِها

كثيرٌ ما تخلعُ المسلمةُ ملابسها في حفلاتِ الأفراحِ والزواجِ الخاصةِ بالنساءِ، فَتَتَبَذَّلُ وتُظْهِرُ للنساءِ مِنْ عَوْرَتِها ما أمرَ اللهُ -تعالىٰ- بسترِه علىٰ النِّساءِ، وقد سَوَّلَ لها الشيطانُ أنها بهذا تَتَعَرَّضُ للخاطباتِ، وما عَلِمَتْ أنها في الحقيقة تَعَرَّضَتْ لغضبِ الجبارِ، وأنها حينَ هَتَكَتْ سِتْرَها أمامَ النساء، فقد هتكتْ سِتْر ما بينها وبين اللهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

---

(1) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3/ 508.

(2) الكبائر، للذهبي، الْكَبِيرَة الثَّالِثَة وَالثَّلَاثُونَ: تشبه النِّسَاء بِالرِّجَالِ وتشبه الرِّجَال بِالنسَاء: 1/ 135.

(3) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حَجرِ الهيثميّ: 2/ 71.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَزَعَتْ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا (فِي غَيْرِ بَيْتِهَا)، فَقَدْ هَتَكَتْ سِتْرَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا»[1].

وقد ابتُليتْ كثيرٌ منْ نساء المسلمين في هذا الزمان بهذه الآفةِ، فبعضُ النساءِ يخلعنَ ثيابهنَّ في معارضِ الأزياءِ لمُقَايسةِ الملابسِ، وكثيرٌ منهنَّ تخلعُ ثيابَها في صالاتِ الأفراحِ؛ ولربما الْتُقِطتْ لها صُورٌ وهي في حالِ التَّعَرِّي؛ فاستَغَلَّها بعضُ الفَسَقَةِ في مساومَتِها علىٰ الوقوعِ في الرَّذيلةِ، وقدْ وقعتْ في هذه الشِّباكِ كثيرٌ من النساءِ، وخَرِبَتْ بها بيوتٌ؛ ولو أنَّ المرأةَ التزمتْ أمرَ نبيها ﷺ لكانَ أسلمَ لها وأَنْجَىٰ؛ فإنَّا للهِ وإنا إليهِ راجعون.

* ثمَّ إنَّ المرأةَ إذا اعتادتْ خَلْعَ ثيابِها في غيرِ بيتِها؛ يسهلُ عليها خَلْعُه في أيِّ مكانٍ؛ إذا دعَتْهَا نَفْسها للوقوعِ في الفَتْنَةِ؛ لأنَّها اقْتَحَمَتْ حَدَّ الحياءِ الأَوَّلِ، وهُوَ خلعُ الثيابِ خارجَ بيتِها، ومَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهوانُ عليه.

مثلٌ للمُتَمَسِّكاتِ بالحجابِ على كِبَرِ سِنِّها

ولقد عَلِمَتِ الصالحاتُ هذا فتمسكنَ بحجابِهنَّ، وهُنَّ في سِنِّ القعودِ في بيوتهنَّ من ذلكَ ما ذَكَرَ ابنُ الجَوْزيِّ عن عاصمٍ الأحولِ قال: «كُنَّا ندخلُ علىٰ حَفْصةَ بنتِ سيرين، وقدْ جعلتِ الجلبابَ هكذا، وتَنَقَّبَتْ به، فنقولُ لها: رَحِمَكِ اللهُ، قالَ اللهُ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾[2]، وهو

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها: 40/ 168، وحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

(2) النور: 60.

الجلباب، قال: فتقولُ لنا: أَيُّ شَيْءٍ بعدَ ذلك؟ فنقولُ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فتقولُ: هو إِثْباتُ الجَلْبابِ»[2].

الخامس: حَسَدُ الأيِّمِ صاحبَتَها التي رَزَقَها اللهُ زوجًا وذُرِّيَّة

كثيرٌ ما يتضاعَفُ الأَلَمُ في صدرِ المرأةِ حينَ ترىٰ أَتْرابَها يُخْطَبْنَ واحدةً بعدَ الأُخرىٰ دُونَها، فَيتحوَّلُ الألمُ إلىٰ حَسَدٍ تَسْتَعِرُ نارُهُ في صَدْرِ الأيِّمِ، وتَتَّقِدُ جَذْوَتُهُ، وتَدُبُّ الغيرةُ والحسدُ في أَوْصالِها، وتَتَمَنَّىٰ لأُخْتِها أو صاحبتها التي رُزِقَتْ بزوجٍ عدمَ التوفيقِ في حياتِها، وتَتَمَنَّىٰ أنَّها لوْ كانتْ هيَ المخطوبةَ دونَ أُخْتها أو صاحبتها، فتقعُ في داءِ الحَسَدِ الخَطِيرِ، قال الماورديّ- رحمه الله- في أدب الدنيا والدين: «اعلمْ أنّ الحَسَدَ خُلُقٌ ذَميمٌ، معَ إضرارِهِ بالبَدَنِ، وإفسادِهِ للدِّينِ، حتّىٰ لَقَدْ أمرَ اللهُ بالاستعاذةِ منْ شَرِّهِ، فقال -تعالىٰ-: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾...

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ، يَعْنِي حَسَدَ إِبْلِيسَ لِآدَمَ عليه السلام وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، يَعْنِي حَسَدَ ابْنِ آدَمَ لِأَخِيهِ حَتَّىٰ قَتَلَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللهِ -تَعَالَىٰ-؛ لَمْ يَسْخَطْهُ أَحَدٌ، وَمَنْ قَنَعَ بِعَطَائِهِ لَمْ يَدْخُلْهُ حَسَدٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: النَّاسُ حَاسِدٌ وَمَحْسُودٌ، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ حَسُودٌ... وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَمِّ الْحَسَدِ إِلَّا أَنَّهُ خُلُقٌ دَنِيءٌ يَتَوَجَّهُ نَحْوَ الْأَكْفَاءِ وَالْأَقَارِبِ، وَيَخْتَصُّ بِالْمُخَالِطِ وَالْمُصَاحِبِ، لَكَانَتِ النَّزَاهَةُ عَنْهُ كَرَمًا، وَالسَّلَامَةُ مِنْهُ مَغْنَمًا؛ فَكَيْفَ وَهُوَ بِالنَّفْسِ مُضِرٌّ،

---

(1) النور: 60.

(2) صفة الصفوة، ابن الجوزي: 2/ 241.

وَعَلَىٰ الْهَمِّ مُصِرٌّ؟ حَتَّىٰ رُبَّمَا أَفْضَىٰ بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ التَّلَفِ مِنْ غَيْرِ نِكَايَةٍ فِي عَدُوٍّ وَلَا إِضْرَارٍ بِمَحْسُودٍ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ أَنَّهُ يَغْتَمُّ فِي وَقْتِ سُرُورِكَ.

وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ: عُقُوبَةُ الْحَاسِدِ مِنْ نَفْسِهِ.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ: مَا أَطْوَلَ عُمُرَكَ، قَالَ: تَرَكْتُ الْحَسَدَ؛ فَبَقِيتُ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِشُرَيْحٍ الْقَاضِي: إِنِّي لَأَحْسُدُكَ عَلَىٰ مَا أَرَىٰ مِنْ صَبْرِكَ عَلَىٰ الْخُصُومِ، وَوُقُوفِكَ عَلَىٰ غَامِضِ الْحُكْمِ. فَقَالَ: مَا نَفَعَكَ اللهُ بِذَلِكَ وَلَا ضَرَّنِي»[1].

نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ عنِ الحَسَدِ

وقد نهىٰ رسولُ اللهِ ﷺ عنِ الحَسَدِ، فيما روىٰ البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[2]، ذلكَ لأنَّ الحَسَدَ داءٌ عظيمٌ، يُفْسِدُ النفوسَ، ويَنْشُرُ البغضاءَ، وعَنْ يَعِيشَ بْنِ الْوَلِيدِ أَنَّ مَوْلَىٰ الزُّبَيْرِ حَدَّثَهُ، أَنَّ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ رضي الله عنه حَدَّثَهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ، الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[3].

---

(1) أدب الدنيا والدين، للماوردي: 1/ 370.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: ما ينهىٰ عن التحاسد والتدابر: 8/ 19، ومسلم، باب: باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها: 4/ 1985.

(3) رواه أحمد في مسنده، مسند الزبير بن العوام: 3/ 29، والترمذي في سننه: 4/ 664، وحَسَّنَهُ الألباني.

تَعَدِّي أَثَرِ الحَسَدِ إلى الأبدانِ

وقد يتعدَّىٰ أثرُ الحَسَدِ إلىٰ البدنِ فيؤذِي المحسودَ في بَدَنِه، روىٰ ابن ماجه في سننه بسند صحيح عَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ: مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ عَلَىٰ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ[1]، فَمَا لَبِثَ أَنْ لُبِطَ بِهِ[2]، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ فَقِيلَ لَهُ أَدْرِكْ سَهْلًا صَرِيعًا، فَقَالَ: «مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ؟». قَالُوا: عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ، فَقَالَ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ إِذَا رَأَىٰ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ»[3].

حَسَدُ المرأةِ مِنْ حيثُ لا تَقْصِدُ

هذا وقد تَحْسِدُ المؤمنةُ ولا تقصد الإضرار بالمحسودة، وهيَ لا تشعرُ، ولكنْ لِلْحَسَدِ سُكْرٌ تَغِيبُ به المسلمةُ عمَّا ينفَعُها ويَضُرُّها، إذ يَسْتَوْلي الحَسَدُ علىٰ نَفْسِها؛ فلا تُفَكِّرُ إلا فيما تَحْسُد لِأَجْلِه، ولو رُوجِعَتْ وذُكِّرَتْ بذلك لربما أَقْسَمَتْ أنَّها ليستْ بحاسدةٍ، وأنَّها تُحِبُّ الخيرَ لكلِّ الناسِ. وعلامةُ وجودِ الحسدِ في نَفْسِ المسلمةِ، أنها تَجِدُ أَلَمًا في نفسِها، واغْتِمامًا وحُزْنًا، عند رؤيةِ المحسودةِ، أو سماعِ ذِكْرِها، قيل للحَسَنِ

---

(1) ولا جلد مخبأة: هي المُغَيَّبَةُ التي لا تبرز للشمس فتغيرها، انظر: نوير الحوالك شرح موطأ مالك، لجلال الدين السيوطي: 2/ 228.

(2) لبط فلَان بفلان الأَرْض إِذا صرعه صرعًا عنيفًا، انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 15/ 256.

(3) رواه ابن ماجه في سننه، باب: العين: 2/ 1160، والنسائي في السنن الكبرىٰ، باب: وضوء العائن: 7/ 101، والبيهقي في الآداب، باب: الاستغسال من العين: 1/ 289، وصَحَّحَهُ الألباني.

البَصْرِيِّ أَيَحْسدُ المؤمنُ؟ قالَ: ما أنساكَ إخوةَ يوسفَ[1]! ولقد كانَ الصالحون أَحْرصَ ما يكونون علىٰ قَلْعِ أَصْلِ هذا الداءِ من قُلُوبِهم.

الحاسدُ عَدُوُّ نَفْسِهِ

فإنَّه مَنْ تَمَكَّن هذا الداءُ من قلبِها؛ أفسدَهُ؛ فلمْ تنتفعْ بطعامٍ ولا شرابٍ ولا نومٍ، ولا تكادُ تذوقُ طعمَ العافيةِ، فالحاسدةُ مُعَذِّبَةٌ نفسَها.

فقد قيل: للهِ دَرُّ الحَسَدِ بدأَ بصاحِبِه فَقَتَلَهُ[2].

وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ ﷺ: «لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِنَ الْحَسَدِ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ الْمَحْسُودِ»[3]. وعنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّهُ يَتَبَيَّنُ فِيكَ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنُ فِي عَدُوِّكَ»[4].

- قالَ ابنُ القيِّمِ: «فإنَّ الحسدَ في الحقيقةِ نَوْعٌ مِنْ معاداةِ اللهِ، فإنَّه يكرهُ نعمةَ اللهِ علىٰ عبدِهِ، وقدْ أحبَّها اللهُ، ويحبُّ زوالَها عنهُ، واللهُ يكرهُ ذلك. فهو مُضادٌّ للهِ في قضائِه وقَدَرِهِ ومَحَبَّتِهِ وكراهَتِهِ؛ ولذلكَ كانَ إبليسُ عَدُوَّهُ حقيقةً؛ لأنَّ ذنْبَهُ كانَ عَنْ كِبْرٍ وحَسَدٍ»[5].

وقال -رحمه الله-: «فالحاسدُ عدوُّ النِّعَمِ، وهذا الشرُّ هو مِنْ نَفْسِ الحاسدِ وطَبْعِها، ليس هو شيئًا اكْتَسَبَهُ من غيرِها، بلْ هُوَ مِنْ خُبْثِها وشَرِّها، والحاسدُ تُعينُه الشياطينُ بِلَا

---

(1) بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: 2/ 236.

(2) سوء الخلق، لمحمد بن إبراهيم الحمد: 1/ 35.

(3) أدب الدنيا والدين، للماوردي: 1/ 270.

(4) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، للسمرقندي، باب الحسد: 177.

(5) الفوائد، لابن قيم الجوزية: 1/ 158.

استدعاءٍ منهُ للشيطانِ؛ لأنَّ الحاسدَ شَبِيهٌ بإبليسَ، وهو في الحقيقةِ منْ أَتْباعِهِ؛ لأنه يطلبُ ما يُحِبُّه الشيطانُ مِنْ فَسَادِ الناسِ، وزَوَالِ نِعَمِ اللهِ عنهمْ، كما أنَّ إبليسَ حَسَدَ آدمَ عليه السلام لِشَرَفِه وفَضْلِهِ، وأَبَىٰ أنْ يَسْجُدَ له حسدًا، فالحاسِدُ مِنْ جُنْدِ إبليسَ»[1].

بماذا تَنْفِي الحاسدةُ الحَسَدَ من قَلْبِها

- **الدعاءُ لصاحبِ النِّعْمَةِ**

وإنَّ مِنْ أفضلِ ما تَدْفَعُ به المسلمة الحسدَ إذا هَجَمَ علىٰ قَلْبِها، وَصْفَةَ رسولِ الله ﷺ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، مَنْ رَأَىٰ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ»[2]. فعليها أن تدعوَ بالبركةِ للمسلمةِ التي اشْتَهَتْ أنْ يكونَ لها مثلُ حظِّها في زوجِها، وفي بَدَنِها، وفي ذُرِّيَّتِها، وبيتِها، وهيَ بهذا تُرْغِمُ الشيطانَ، وتَدْفَعُهُ وتَهْزِمُه، وهي في الحقيقةِ تدعو لنفسِها بالخيرِ، فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ صَفْوَانَ، قَالَ: -وَكَانَتْ تَحْتَهُ الدَّرْدَاءُ- قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَدَخَلْتُ عَلَىٰ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَلَمْ أَجِدْهُ، وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، فَقَالَتْ: تُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: فَادْعُ لَنَا بِخَيْرٍ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِ مُسْتَجَابَةٌ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ، فَخَرَجْتُ إِلَىٰ السُّوقِ، فَأَلْقَىٰ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ»[3].

---

(1) بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: 2/ 233.

(2) رواه ابن ماجه في سننه، باب: العين: 2/ 1160، والنسائي في السنن الكبرىٰ، باب: وضوء العائن: 7/ 101، والبيهقي في الآداب، باب: الاستغسال من العين: 1/ 289، وصَحَّحَهُ الألباني.

(3) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي الدرداء: 36/ 39، وصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

- **سَدُّ منافذ الحسَد**

وعليها أن تَجْتَنِبَ الحسدَ بِسَدِّ مَنَافِذِه ومبادِئِه، وهو عَدَمُ النَّظرِ إلىٰ من رُزِقتْ زينةً وجمالًا، أو زوجًا أو وَلَدًا؛ فإنَّ الوقايةَ خيرٌ وأيسرُ من العلاجِ، وعلاجُ الداءِ في مَبادِئِه أيسرُ مِنْهُ إذا اسْتَفْحَلَ، وتَمَكَّنَ من القلبِ، وفي هذا يقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].

- قال الألوسيُّ في روحِ المعاني: «أي لا تُطِل نَظَرَهُمَا بطريقِ الرَّغْبة والميلِ ﴿إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارفِ الدنيا كالبنين، والأموال والمنازل، والملابس، والمطاعم... وقيلَ: الخِطَابُ له ﷺ والمرادُ أُمَّتُه لأنه ﷺ كان أبعدَ شيءٍ عن إطالةِ النَّظرِ إلىٰ زينةِ الدينا وزخارِفِها، وأَعْلَقَ بما عندَ اللهِ ﷻ من كلِّ أَحَدٍ وهو ﷺ القائل: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»[2]، وكان ﷺ شديدَ النَّهْيِ عن الاغترارِ بالدنيا، والنظرِ إلىٰ زخرفِها»[3].

السادس: مُهَاتَفَةُ النِّساءِ الرجال

كما يحدُثُ أنْ تَبْحثَ المسلمةُ عن خاطِبٍ لها بالمُهاتفةِ بالجَوَّالِ أو التَّرَاسُلِ بواسطةِ المواقعِ الإلكترونيةِ، فتتعرفُ علىٰ رجلٍ، تُراسلُه وتُهَاتِفه وتُلينُ له الكلامَ، ويلينُ لها الكلامَ، ثمَّ يكون التواعدُ، فاللقاءُ، ثم الكذبُ والتواعدُ علىٰ الزواجِ؛ فتصبحُ البنتُ

---

(1) طه: 131.

(2) رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في هوان الدنيا علىٰ الله ﷻ: 4/ 561، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وحَسَّنَهُ الألباني.

(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين الألوسي، سورة التوبة: 8/ 590.

أسيرةَ مواعيدَ مكذوبةٍ، وأمانيَّ مَعْسُولةٍ مع شابٍّ فاجرٍ لا يملكُ من أمرِ الزواج شيئًا، هذا لو كان صادقًا في طَلَبِ الزواجِ، وفي أغلبِ الأحيانِ لا يَتَجَرَّأُ علىٰ هذا السلوكِ إلا طائشٌ فاسدٌ ليسَ له غايةٌ سِوَىٰ قضاء وَطَرِهِ[1] بما حرَّمَ اللهُ، فَيُخَادِعُ، ويَكْذِبُ، حتَّىٰ إذا قَضَىٰ حاجَتَهُ، ووقعتِ المسكينةُ في شِرَاكه، وهَتَكَ عِرْضَها، ورُبَّما سَلَبَهَا مَالَها؛ تَرَكَها للضياعِ والتِّيهِ والتَّخَبُّطِ والحِرْمانِ، تَتَجَرَّع مرارةَ إثمِها وَحْدَها، ويقاسِي أهلُها عاقبةَ معصيتِها من عارِ الفضيحةِ، وكَمَدِ الأحزانِ؛ ويبحثُ هوَ عن فريسةٍ أُخْرَىٰ. ولو ذَهَبْنَا نَتَتَبَّعُ قصصًا من هذا الضَرْب لَوَجَدْنا أنَّه لا يخلو بلدٌ من بلادِ المسلمينَ من أمثالِ هذه القصصِ المفجعةِ الأليمةِ، مع اختلافِ الأسماءِ والأشكالِ والبُلْدانِ؛ والخداعُ واحدٌ، ولو أَرَدْنَا تدوينها؛ لَسَوَّدْنا[2] أسفارًا[3] كبيرةً، والعَجَبُ أنَّ أكثرَ مَنْ يَقَعْنَ في هذه الأَحابيلِ سَمِعَتْ بعشراتِ القصصِ المُفْجِعةِ، ثمَّ تَغْلِبها العاطفةُ، وتَسْتَخِفُّها الأمانيُّ؛ فَتَعْمَىٰ عنِ الفَخِّ، وتَقَعُ في الشِّبَاكِ؛ فإنَّا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ، كمْ زَلَّتْ في هذا المُنْحَدَرِ مِنْ قَدَمٍ، ونُكستْ فيه منْ رأسٍ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ.

---

(1) قال الزجاج: «الوطر في اللغة والأرب بمعنىٰ واحد»، ثم قال: «قال الخليل الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة، فإذا بلغها البالغ قيل: قضىٰ وطره وأربه»، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 5/ 285.

(2) سودنا: جعلناه أسود، كناية عن الكتابة، وجعل الورق الأبيض أسود من كثرة الكتابة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 3/ 224.

(3) أَسْفَارًا: كتبًا. واحدها: سِفْر، انظر: غريب القرآن، لابن قتيبة، سورة الجمعة: 1/ 465.

السابع: الحَذَرُ مِنْ خَدِيعةِ الدَّجَّالِين

- **الخديعةُ بالعملِ**

تعيشُ كثيرٌ من الأيامَىٰ مُهْملاتٍ بِلَا رعايةٍ ولا تَوْجيهٍ، ويُنْظَرُ إليهنَّ في كثيرٍ من المجتماتِ نظرةً سَلْبيَةً؛ فَيَسْتَحْيِي منهنَّ أهلُهُنَّ، وتَسْتَحْيِي هيَ من نفسِها؛ فَيَتَلَهَّفْنَ علىٰ الزواجِ بأي طريقةٍ؛ للخلاصِ من واقعِها المريرِ، وللفرارِ من قَسْوةِ المجتمعِ، فَيَسْتَغِلُّهُنَّ تُجَّارُ البَشَرِ أخسَّ استغلالٍ؛ ففِي بعضِ البلادِ يُغَرَّر بِهِنَّ، ويُخَادَعْنَ: بأنَّه يوجَدُ لها عَقْدُ عَمَلٍ في بلَدٍ أجنبيٍّ؛ فَتُصَدِّقُ المسكينةُ، فَتُنْقَل بعقدٍ وجوازٍ مُزَوَّرَيْن، وما إنْ تصلْ إلىٰ البلدِ المقصودِ حتىٰ تُمَزَّقَ أوراقُها، فلا تَجِدُ سبيلًا للعودةِ، تَسْتَغِيثُ ولا مجيبَ، وتستنصرُ ولا نصيرَ؛ فَتَسْتَسْلم، فَتُسْتَرَقُّ، وتُبَاعُ لممارسةِ الفاحشةِ. وأكثرُ مَنْ يقوم بذلكَ هم اليهودُ الخُبَثاءُ، وقد وُجِد في بلدنا المُحْتَلَّةِ فلسطينَ مِنْ هؤلاءِ المسلماتِ المسكيناتِ مَنْ جِيءَ بهن من بَلَدٍ مُسْلمٍ بهذهِ الخديعةِ الماكرةِ اللَّعينةِ، وقَدْ حدَّثْتْ بنفسِها عن فاجِعَتِها.

- **الخديعةُ بالزواجِ**

وبعضُ الأيامَىٰ يُعْرَضُ عليها الزواجُ من رَجُلٍ في بلدٍ أُخْرَىٰ، فتَقْبلُ، فَيُزَوِّرُونَ عقدَ زواجٍ للرجلِ عليها، ويُعِدُّون جوازَ سَفَرٍ؛ إمعانًا في الخِدَاعِ والتَّضْليلِ، ثم يأخذُونَها إلىٰ بلدٍ أُخْرَىٰ، وهيَ في كلِّ هذا مصدقةٌ هذه الخديعةَ، وهناكَ يُمَزِّقُون جوازَ سَفَرِها، ويُخْبرونها أنها وقعتْ فريسةً، وعليها أن تستسلمَ، وتستجيبَ لهم في النَّيْلِ من عِرْضِها وعِفَّتِها، إذْ لا نصيرَ ولا مجيبَ، ولا حولَ لها ولا قُوَّةَ.

وتقعُ بعضُهُنَّ في خِدَاعِ زواجِ المُتْعَةِ؛ فيأتِيَها ماكرٌ، يزْعُمُ أنَّهُ يُحِبُّها، وأنَّه يرغبُ في الزواجِ منها، وأنَّ الذِي يمنعُهُ من إشهارِ الزواجِ منها عَدَمُ قَبُول زوجَتِه أو أهلِه لذلكَ،

فيعرضُ عليها زواجَ المُتْعَة، ويَعِدُها أن يُشْهِرَ الزواجَ بها حَالَ إقناعِ أهلِهِ؛ فَتُصَدِّق المسكينةُ، حتَّىٰ إذا نالَ منها ما يريدُ، وافْتَرَسَ طُهْرَها وشَرَفَها، تركَهَا واستغنَىٰ عنها، وأوقَعَ غيرها؛ ليفعلَ بالثانِيَةِ فِعْلَهُ بالأُولىٰ، وهكذا...

- **احذري نِساءَ السُّوءِ**

وقد يُوْقِعُها في هذهِ الحَبَائِل الخبيثةِ بعضُ النساءِ الفاجراتِ؛ إذ يَكُنَّ وسيطاتِ سُوءٍ وفسادٍ، فيَقُمْنَ بالتَّعَرُّف عليها، وحَبْكِ القِصَصِ المكذوبةِ الخبيثةِ للمسلمةِ العفيفةِ، ويُظْهِرْنَ الحرصَ عليها، والسَّعْيَ في سعادَتِها؛ وأنَّ هذا الرجلَ ثِقَةٌ وأنَّها تَعْرِفُه، وأنه لو كانَ لها بِنْتٌ أو أختٌ لزوجَتْها إياهُ، وغير ذلكَ منْ زُخْرِف القَوْلِ ومكذوبِ الحكاياتِ، فيكونُ هذا أَوْقَعَ لها في الخَدِيعَةِ، وأسرعَ في القَبُولِ؛ وغيرُ هذه من الحِيَلِ الكثيرُ، فَفِي كلِّ مُجْتَمَعٍ ما فيه من المُخَادعين والمخادعاتِ، وفي كلِّ بَلَدٍ ما يُغَايِر البلدَ الآخرَ من وسائل الخِدَاعِ والمَكْرِ التي لا تَخْطُرُ علىٰ بال، فالحذرَ... الحذرَ... الحذرَ.

الثامن: الحذرُ من تَطْوافِ أمِّ الأيتامِ على الجَمْعيَّاتِ الخَيْرِية

ومما ينبغِي التحذيرُ منهُ أنَّ كثيرًا مِنْ أُمَّهاتِ الأيتامِ يُمْضِينَ أوقاتَهُنَّ طَوَّافاتٍ مِنْ جَمْعيَّةٍ خَيْرِيةٍ إلىٰ أُخْرَىٰ، ومنْ مُؤَسَّسَةٍ إلىٰ أُخْتِها؛ بَحْثًا عن كفالةٍ ماليةٍ، أو مُساعدةٍ بسيطةٍ، ممَّا قَدْ يُعَرِّضُهُنَّ لِفِتَنٍ؛ تُفْضِي إِلَىٰ شَرٍّ مُسْتَطِيرٍ، وبلاءٍ عظيمٍ، وقدْ حَدَثَ أنْ وَقَعَتْ بعضُ النِّساءِ في فتنةِ مَرْضَىٰ القلوبِ منْ بعضِ العاملينَ في المؤسساتِ والجمعياتِ الخَيْرِيةِ، إذْ يكونُ خروجُها بريئًا أولَ الأَمْرِ بحثًا عن رزقٍ لأبنائِها؛ ثُمَّ معَ تَكْرارِ الخروجِ وَحْدَها، والخلوةِ بالعاملينَ؛ وتَحْتَ إغواءِ الشيطانِ، وغيابِ الرَّقيبِ؛ تَقَعُ فِي فتنةِ الرجالِ.

والذي علىٰ أمِّ الأيتامِ فعله؛ حفاظًا علىٰ شَرَفِها وعِفَّتِها أنْ تُوَكِّلَ أباها أو أخاها بأموالِ الأيتامِ، ولا تذهبُ وحدَها إلىٰ الجمعياتِ، فإنْ كانتْ مُضْطَرَّةً رافقتْ مَحْرَمًا منَ الرجالِ؛ سَدًّا لبابِ الفتنةِ العريضِ.

التاسع: الحذرُ منْ مَجالسِ اللغْو

تعيشُ كثيرٌ من النساءِ الأيامىٰ حالةً من الفراغِ، فلا تدري كيفَ تشغلُ وقتَها، فلا تجدُ لِمِلْءِ فراغِ وقتِها إلا الإكثارَ من الزياراتِ لسببٍ ولغيرِ سببٍ، فَتَخْتَلِقُ المناسباتِ لأجل الزياراتِ والخروجِ من البيتِ وتضييعِ الأموالِ علىٰ الهدايا التي لَيْستْ في مَحِلِّها، والأوقاتِ في لَغْوِ الحديثِ: هذه تزوجتْ، وتلك أنجبتْ، وثالثة مَرضتْ، فيذهبُ عُمرُها في غير فائدةٍ، بلْ في لَغْوٍ؛ إذ إنَّ أكثرَ مجالسِ النساءِ إنما تُقْضَىٰ في الغيبةِ وذكرِ أخبارِ البيوتِ، فتفنِي حسناتِها بغيبةِ غيرِها من المسلماتِ، فتأتي يوم القيامةِ مُفْلِسَةً؛ لِمَا عليها من حقوقِ العبادِ، وأحسنُ أوقاتِ النساءِ تُقْضَىٰ في ذكرِ الطعامِ والشرابِ، ومَنْ أنجبتْ ومنْ تزوجتْ، وأحسنُ الظنِّ بمنْ هذا حالُها أنَّ أوقاتَها تضيعُ بلا فائدةٍ؛ فتعظُم حسرتُها يومَ القيامة بما فاتها من الخيرِ في أيامِ حياتِها، وفي هذا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، إِلَّا كَأَنَّمَا تَفَرَّقُوا عَنْ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً»[1].

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي الدرداء: 15/ 22، وصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

قال المناوي: «لأنَّ ما يَجْرِي في ذلكَ المجلسِ منَ السَّقَطَاتِ والهَفَواتِ إذا لمْ يُجْبَرْ بِذِكْرِ اللهِ؛ يكونُ كَجِيفَةٍ، تَعافُها النَّفْسُ، وتَخْصِيصُ الحِمارِ بالذِّكْرِ يُشْعِرُ بِبَلادَةِ أهلِ ذلكَ المجلسَ»[1].

وقال عليٌّ القاري: «أَيْ: لَا يُوجَدُ مِنْهُمْ قِيَامٌ عَنْ مَجْلِسِهِمْ إِلَّا كَقِيَامِ الْمُتَفَرِّقِينَ عَنْ أَكْلِ الْجِيفَةِ الَّتِي هِيَ غَايَةٌ فِي الْقَذَرِ وَالنَّجَاسَةِ. وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: وَتَخْصِيصُ جِيفَةِ الْحِمَارِ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ أَدْوَنُ الْجِيَفِ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تُخَالِطُنَا. أَوْ لِكَوْنِهِ أَبْلَدَ الْحَيَوَانَاتِ، أَوْ لِكَوْنِهِ مُخَالِطًا لِلشَّيْطَانِ، وَلِهَذَا يُتَعَوَّذُ عِنْدَ نَهِيقِهِ بِالرَّحْمَنِ»[2].

العاشر: القَرَارُ في البيوتِ عِصْمَةٌ ونجاةٌ

وقد تكثرُ من الذهابِ للأسواقِ والمحالِّ، والأعراسِ وغيرها، وقد أمرَ اللهُ -تعالىٰ- النساءَ بالقرارِ في بيوتهن، فقال -تعالىٰ-: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ . . .﴾[3].

قال ابنُ كثير: «أَيِ: الْزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ، فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَمِنَ الْحَوَائِجِ الشَّرْعِيَّةِ، الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ بِشَرْطِهِ»[4]. وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»[5].

---

(1) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي: 5/ 408.

(2) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 4/ 1554.

(3) الأحزاب: 33.

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، سورة الأحزاب: 6/ 363.

(5) رواه أبو داود في سننه، باب: بَابُ مَا جَاءَ فِي خُرُوجِ النِّسَاءِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ والتشديد في ذلك: 1/ 156.

قال بدرُ الدينِ العَيْنيُّ: «(المَخْدَع): هو البيْتُ الصغيرُ الذي يكونُ داخلَ البيْتِ الكبيرِ. وإنما كانتْ صلاتُها في مَخْدَعِها أفضلَ مِنْ صلاتِها في بَيْتِها ومِنْ صلاتِها في حُجْرَتِها؛ لأنَّها أَسْتَرُ لها، وأمنعُ لها مِنْ نَظَرِ الناسِ، ومَبْنَىٰ حالِهِنَّ عَلَىٰ السِّتْرِ ما أمْكَن»[1].

* فإذا كانتْ صلاةُ المرأةِ في بيتِها خيرٌ من صلاتِها في بيتِ اللهِ، فمكوثُها في بيتها خيرٌ وأحبُّ إلىٰ اللهِ من ذهابِها إلىٰ بيوتِ الناسِ من بابِ أولىٰ، فلا خيرَ للمسلمةِ من بَيْتِها تعبدُ فيه ربَّها وتصونُ نَفْسَها، فإن هيَ لَزِمَتْ ذلكَ؛ فَقَدْ صَانَتْ نَفْسَها، واستَبْرَأَتْ لدينِها وعِرْضِها[2].

الحادي عشر: الحذرُ منْ إدمانِ متابعةِ التلفازِ ومواقعِ الإنترنت

ابتُلِيتْ كثيرٌ من النساءِ بمتابعَةِ برامجِ التلفازِ، فلا يكادُ ينتهِي فيلمٌ حتىٰ يأتي مُسَلْسَلٌ، وهكذا يمضِي أكثرُ وقتها في غير فائدةٍ، بل فيما حَرَّم اللهُ، إذْ يُعْرَضُ في التلفازِ من المنكرات ما لا يُحْصَىٰ، وإنَّ نظرَ النساءِ إلىٰ الرجالِ في التلفازِ، محظورٌ كَنَظرِ الرجالِ إلىٰ النساءِ، وإنَّ اللهَ -تعالىٰ- أَمَرَ المؤمناتِ مِنْ غَضِّ البَصَرِ بما أَمَرَ به المؤمنين؛ فقال لهُنَّ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾[3]، كما قال للرجالِ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[4].

---

(1) شرح سنن أبي داود، لبدر الدين العيني: 3/ 56.

(2) أَيْ: حَصَلَ لَهُا الْبَرَاءَةُ لِدِينِها مِنَ الذَّمِّ الشَّرْعِيِّ، وَصَانَت عِرْضَهُا عَنْ كَلَامِ النَّاسِ، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 11/ 28.

(3) النور: 31.

(4) النور: 30.

قال ابنُ كثيرٍ: «فقولُه -تعالىٰ-: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾، أَيْ: عمَّا حرَّمَ اللهُ عليهنَّ من النَّظرِ إلىٰ غيرِ أزواجِهنَّ. ولهذا ذهبَ كثيرٌ من العلماءِ إلىٰ أنَّه: لا يجوزُ للمرأةِ أن تنظرَ إلىٰ الأجانبِ بشهوةٍ، ولا بغيرِ شهوةٍ أصلًا. واحتجَّ كثيرٌ منهم بما رواه أبو داودَ والترمذي، عَنْ نَبْهَانَ مَوْلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَيْمُونَةَ، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ، أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: احْتَجِبَا مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَىٰ لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا، أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟»[1]» [2] وأكثرُ النساءِ عن هذا في غفلةٍ.

• في البرامجِ الدِّينيةِ غُنْيَةٌ دونما إسرافٍ

وإذا كانتِ المرأة لا بُدَّ مُشاهِدة فلتُشاهد البرامجَ الدينيةَ التي تَنْفَعُها في آخرتها، ولا تُسْرفْ في التَّفَرُّجِ علىٰ التلفازِ، حتَّىٰ ولوْ في البرامجِ النافعةِ؛ فإنه يفوتُها بالتلفازِ ما هو خيرٌ لها من صلاةٍ وتلاوةِ قرآنٍ وذكرٍ لله -تعالىٰ-. وأشدُّ من التلفازِ في النَّكيرِ متابعةُ مواقعِ الإنترنت؛ إذْ فيه من المحاذيرِ ما فيه، التي تُفْضِي إلىٰ منكراتٍ عظيمةٍ، ومفاسدَ جليلةٍ، قد تخسرُ المسلمةُ بسببِه دنياها وآخرتها، وقصصُ ضياعِ النساءِ والرجالِ بسببِ الإنترنت أكثرُ مِنْ أنْ تُحْصَىٰ. فإياكِ وإدمانَ النَّظَرِ إلىٰ التلفازِ، ومتابعةَ الأَفْلامِ والمُسَلْسَلاتِ، ومواقعِ الإنترنت؛ فَتَفْنَىٰ الأعمارُ في غيرِ ما خُلِقَتْ له، فَيَفُتْكِ خيرٌ كثيرٌ، وتَنْقَلِبِي بِنَدَامةٍ

---

(1) رواه الترمذي في سننه، باب: باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال: 5/ 102، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، سورة النور: 6/ 41.

وخَسَارةٍ، فإذا أمضتِ النساءُ معَ أزواجِهنَّ وأبنائِهنَّ أعمارَهُنَّ علىٰ التِّلْفازِ وبرامِجِه؛ فَأَفْنِي أنتِ حياتَكِ في القرآنِ وتلاوتِه ومُدارسته.

الحذَرُ منَ الإصرارِ على المخالفةِ

فإنْ أصَرَّتِ المسلمةُ علىٰ رُكُوبِ لُجَّةِ الآثامِ، ومبارزةِ اللهِ -تعالىٰ- في المعاصِي، وتَمَرَّسَتْ مخالفةَ أَمْرِ اللهِ -تباركَ وتعالَىٰ- وأَمْرِ رسولِه ﷺ وأَلِفَتْهَا؛ فإنَّها تقعُ تحتَ وعيدِ اللهِ -تعالىٰ- للمخالفات؛ بأن يَضْرِبَهُنَّ بعقوبةٍ عاجلةٍ، وآجلةٍ؛ فأمَّا العاجلةُ: فقسوةُ قلبِها، وبُعْدُها عن ربِّها، وفتنٌ متتابعةٍ، لا تكادُ تنتهِي من فتنةٍ حتىٰ تقعَ في أعظمَ منها، وما إنْ تَخْلُصُ من بلاءٍ حتىٰ يُصيبَها شرٌّ منهُ، وهيَ في هذا تقولُ: أنَّىٰ هذا، واللهُ -تعالىٰ- يقولُ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]؛ فما أحمقَ مَنْ تُعَرِّضُ نفسها لِسَخَطِ المَلِكِ، ويا لَضَيْعَتِها إذا نزلتْ بها نقمة الجبارِ وهو القائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

قال الفخر الرازي: «المرادُ بالفتنةِ العقوبةُ في الدنيا، والعذابُ الأليمُ، عذابُ الآخرةِ، وإنَّما رَدَّدَ اللهُ -تعالىٰ- حالَ ذلكَ المُخالفِ بينَ هذينِ الأَمْرَيْنِ، لأنَّ ذلكَ المخالِفَ قدْ يموتُ منْ دونِ عقابٍ في الدنيا، وقدْ يعرضُ له ذلكَ في الدنيا؛ فلهذا السَّبَبِ أَوْرَدَهُ -تعالىٰ- علىٰ سبيلِ التَّرْديدِ، ثم قال الحسنُ: الفتنةُ هي ظهورُ نِفَاقِهِمْ، وقالَ ابنُ عباسٍ -رضي الله

(1) آل عمران: 165.

(2) النور: 63.

عنهما-: القتلُ، وقيل: الزلازلُ والأهوالُ، وعن جعفر بن محمد: يُسَلَّطُ عليهمْ سُلْطانٌ جائرٌ»[1].

(1) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة النور: 24/ 427.

الفَصْلُ السَّابِعُ

التأيُّمُ فرصةٌ للعبادةِ والتَّفَرُّغِ للطاعةِ

لَمَّا لمْ يكنْ للأَيِّمِ المسلمةِ زوجٌ تَشْتَغِلُ بهِ وبحقُوقِهِ عليها عنْ طاعةِ رَبِّها، ولمْ يكن لِبَعْضِهِنَّ أبناءٌ تَقْضِي أوقاتَها مُشتغلةً بتربيتِهِم، والقيامِ علىٰ خِدْمَتِهِم منْ مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ ومَلْبَسٍ وعِلَاجٍ وطُولِ تَرْبِيةٍ؛ كانتْ فُرصةُ التَّفَرُّغِ لعبادةِ اللهِ لهنَّ أكثرَ من غيرهنَّ من المتزوجاتِ اللاتي يَفْنِينَ أعمارَهُنَّ اشتغالًا بأزواجِهنَّ، ولَزِمَ أنْ نُنَبِهَهُنَّ إلىٰ حُسْنِ استغلالِ أوقاتِهنَّ بما يَرْفَعُهُنَّ عندَ اللهِ -تعالىٰ-، كما يلزمُ تَنبيهُ كُلِّ امرأة لها زوج وأبناء كذلك، ولكن الأَيامَىٰ أكثرُ حظًا من هذه التذكرة، وإن كانَ مِنَ المُتَزَوِّجاتِ مَنْ لمْ يشغلهنَّ أزواجُهنَّ وأبناؤُهنَّ عن ربِّهنَّ، بلْ تَعَبَّدْنَ اللهَ -تعالىٰ- بطاعةِ أزواجِهنَّ، وتربيةِ أبنائهنَّ، كما تعبَّدنَ للهَ -تعالىٰ- بسائرِ القُرُباتِ؛ لا سيما عندَ كِبَرِ سِنِّهنَّ واستغنائِهنَّ عنْ أبنائِهنَّ وأزواجِهنَّ، مِمَّنْ وَفَّقَهُنَّ اللهُ -تعالىٰ- لطاعتِه، وباركَ لهنَّ في أعمارهنَّ؛ فَفُزْنَ بالحُسْنَيَنِ؛ وذلك فضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

المسارعةُ في استغلالِ الأَعْمارِ قَبْلَ انْخِرامِ الآجالِ

لِتَعْلمِ المسلمةُ أن هذهِ الدارَ لمْ تُخْلقْ للبقاءِ، وأنَّ الناسَ فيها علىٰ جناحِ سَفَرٍ، ويوشكُ أنْ ينادِيَ المنادِي الرحيلَ... الرحيلَ، قدْ انتهتِ الرِّحْلةُ، وانقضتِ المُهْلةُ، ولن يبقَىٰ امرأةٌ ولا زوجَ ولا ولدَ، وكأنَّهُ ما تزوجتْ مَنْ تزوجتْ، ولا أنجبتْ مَنْ أنجبتْ، فإذا أردتِ برهانَ ذلكَ؛ فانْظُرِي في سُرعةِ انقضاءِ الأيامِ؛ أَمْسِ كُنْتِ صغيرةً دونَ سِنِّ التَّمْييزِ، فلمْ تلْبَثِي حتىٰ بلغتِ هذهِ السنَّ، ثم انظرِي في انْخرامِ الآجالِ[1]، ومَوْتِ الأجيالِ، جيلًا بعد جيلٍ، أينَ جَدُّكِ وجَدَّتُكِ؟ أينَ فلانةٌ وفلانٌ مِمَّنْ كانوا مِلْأَ السَّمْعِ والبَصَرِ؟ أغْمِضِي عينيكِ، وارجِعِي بذكرياتِك، واستْغرِقِي بأفكارِكِ؛ تَفَقَّدِي أَقَارِبَكِ، ثم تَفَقَّدِي جيرانَكِ ومَعَارِفَكِ، كمْ بقيَ مِمَّنْ تَعْرِفِينَ، ومِمَّنْ كنتِ تَرَينَ منذُ بضعِ سِنِينَ؟

(1) الخرم: النقص والقطع، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 12/ 170.

الغزاليُّ يضربُ الأمثالَ

لقد تَنَبَّهَ الصالحونَ لسرعةِ انقضاءِ الأيامِ، فلمْ يشغلْهُم ما همْ فيهِ منْ أهلٍ ومالٍ عنِ السَّيْرِ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- بأحسنِ الأعمالِ، ولمْ يَفْتِنْهُمْ فيها محنةٌ أوِ ابتلاءٌ، من سَرَّاءَ أوْ ضَرَّاءَ؛ لِعِلْمِهِم بسرعةِ الزوالِ، وقُرْبِ الفناءِ، وتَبَدُّلِ المنازلِ والدورِ والأحوالِ، ولمَّا أبصرتْ قلوبُ الصالحينَ والصالحاتِ حقيقةَ الدنيا وسرعةَ انقضائِها؛ جَدُّوا فيها السيرَ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ-، بأسرعِ الخُطا، وأحسنِ الأحوالِ.

وما أحسنَ ما وصفَ الغزاليُّ -رحمه الله- بهِ سُرعةَ انقضاءِ الدنيا، حيثُ قالَ رحمه الله: «الدُّنيا مزرعةُ الآخرةِ وإنما البذْرُ هو العمرُ، فَمَنِ انقَضَىٰ عليهِ نَفَسٌ منْ أَنْفاسِه، ولمْ يعبدِ اللهَ فيهِ بطاعةٍ، فهو مَغْبونٌ لِضَياعِ ذلك النَّفَسَ، فإنَّهُ لا يعودُ قَطُّ، ومثالُ الإنسانِ في عُمُرِه، مثالُ رجلٍ كانَ يبيعُ الثَّلْجَ وقْتَ الصيفِ، ولمْ تَكُنْ لهُ بِضَاعةٌ سواهُ، فكانَ ينادِي، ويقولُ: ارحَمُوا مَنْ رأسُ مالِهِ يذوبُ، فَرَأْسُ مالِ الإنسانِ عُمُرُهُ الذِي هوَ وَقْتُ طاعَتِه، وإنَّهُ ليذوبُ علىٰ الدوامِ، فَكُلَّمَا زادَ سِنُّهُ نَقصَ بقيَّةُ عُمُرِهِ، فزيادتُه نُقْصانُه علىٰ التَّحْقِيقِ، ومَنْ لمْ يَنْتَهِزْ في أنفاسِهِ حتَّىٰ يَقْتَنِصْ بها الطاعاتِ كلِّها؛ كانَ مغبونًا»[1].

فيا فَوْزَ العابداتِ الصابراتِ، يومَ تُرْفعُ لَهُنَّ الأعلام، وتُنْصَبُ لهن الخيامُ، وتَحُفُّهُنَّ ملائكةُ الرَّحْمنِ، وَتَتَزَيَّا لَهُنَّ الجِنانُ، جَعَلَنَا اللهُ منهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَحُسْنِ مَثُوبَتِهِ.

---

(1) فضائح الباطنية، لأبي حامد الغزالي: 1/ 196.

ولابن الجَوْزِيِّ وصيةٌ

ولقد كان الصالحونَ مِنَ الأولينَ يكتُبُونَ لأبنائِهم يُوصُونهمْ بِحِفْظِ أَوْقاتِهِمْ، والضَّنِّ بها مِنْ أنْ تَضيعَ في غيرِ ما طاعةٍ، قالَ ابنُ الجَوْزِيِّ في لَفْتَةِ الكَبِدِ في نصيحةِ الوَلَدِ: «فانتَبِهْ يا بُنَيَّ لِنَفْسكَ، وانْدَمْ علىٰ ما مَضَىٰ مِنْ تَفْرِيطِكَ، واجْتَهِدْ في لحاقِ الكامِلِينَ؛ ما دامَ في الوقتِ سَعةٌ، واسقِ غُصْنكَ ما دامتْ فيهِ رُطُوبةٌ، واذكرْ ساعاتِكَ التِي ضَاعَتْ، فَكَفَىٰ بها عظةٌ، ذهبَتْ لذةُ الكَسَلِ فيها، وفاتَتْ مراتِبُ الفضائِلِ، وقدْ كانَ السَّلَفُ -رحمهمُ اللهُ- يُحِبُّونَ جَمْعَ كُلِّ فضيلةٍ، ويَبْكُونَ علىٰ فَواتِ واحدةٍ منها. واعْلَمْ يا بُنَيَّ أنَّ الأيامَ تبسُطُ ساعاتٍ، والساعاتُ تبسُط أنفاسًا، وكلُّ نفَسٍ خزانةٌ، فاحذرْ أنْ تُذهِبَ نَفَسًا فِي غيرِ شَيْءٍ؛ فَتَرَىٰ يومَ القيامةِ خزانةً فارغةً؛ فتندم... واعلمْ يا بُنَيَّ -وفَّقكَ اللهُ- أنَّهُ لمْ يُمَيِّزِ الآدَمِيُّ بالعقلِ إلا ليعملَ بمُقْتَضاهُ، فاستحضرْ عَقْلَكَ وأعْمِلْ فِكرَكَ، واخلُ بِنَفْسِكَ، تَعْلَمْ بالدليلِ أنَّكَ مَخْلوقٌ مُكَلَّفٌ، وأنَّ عليكَ فَرَائِضَ أنتَ مُطالَبٌ بِهَا، وأنَّ المَلَكَيْنِ -عليهما السلامُ- يُحْصِيانِ ألفاظَكَ ونَظَراتِكَ، وأنَّ أنفاسَ الحَيِّ خُطُواتٌ إلىٰ أَجَلِه، ومِقْدارُ اللُّبثِ في الدنيا قليلٌ، والحَبْسُ في القُبورِ طويلٌ، والعذابُ علىٰ مُوافَقَةِ الهَوَىٰ وَبيلٌ، فأَيْنَ لذةُ أمسِ؟ قدْ رَحَلَتْ، وأبقَت نَدَمًا، وأينَ شهوةُ النَّفْسِ؟ نكَّسَتْ رَأْسًا، وأزلّتْ قَدَمًا؛ فاعْتَبِرْ بِمَنْ مَضَىٰ... وكأَنَّهُ ما شَبِعَ مَنْ شَبِعَ، ولا جَاعَ مَنْ جَاعَ... ثمَّ اعلمْ أنَّ طَلَبَ الفضائلِ نهايةُ مُرادِ المُجْتَهِدِينَ، وقدْ عَرَفْت بالدليلِ أنَّ الهِمَّةَ مولودةٌ معَ الآدَمِيِّ، وإنَّما تَقْصُرُ بَعْضُ الهِمَمِ في بَعْضِ الأوقاتِ، فإذا حُثَّتْ سارتْ. ومتَىٰ رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ عَجْزًا فسلِ المنعِمَ،

أو كَسَلًا فَالْجأْ إِلَىٰ المُوَفِّقِ، فلنْ تنالَ خيرًا إلا بطاعَتِه، ولا يَفوتُكَ خيرٌ إلا بمعصِيَتِه، ومَنِ الذي أَقْبَلَ عليهِ فلمْ يرَ كلَّ مرادٍ لديه؟ ومَنِ الذِي أَعْرَضَ عنهُ فَمَضَىٰ بفائدةٍ؟ أوْ حَظِيَ بِغَرَضٍ من أغراضِهِ؟ وقد قَالَ رجلٌ لعامِرِ بنِ عَبْدِ قَيْسٍ: قِفْ أُكَلِّمْكَ! فقالَ: أمسِكِ الشمسَ. وقَعَدَ قومٌ عندَ معروفٍ الكَرْخِيِّ -رحمهُ اللهُ-، فقالَ: «أَما تريدونَ أن تقوموا؟ فإنَّ مَلَكَ الشمسِ يجرُّها لا يفتُر»[1].

(1) لفتة الكبد في نصيحة الولد، لابن الجوزي: 5.

نماذجُ منَ الصالحاتِ المجتهداتِ في الطاعة

ذَكَرَ ابنُ الجَوْزِيِّ فِي صِفَةِ الصَّفْوةِ نماذجَ فَرِيدةً في الاجتهادِ في الطاعةِ والمسارعةِ في الخيراتِ لنساءٍ صالحات نذكر منها:

جاريةُ خالدٍ الوَرَّاقِ

قالَ ابنُ الجَوْزِي: «بلغَنَا عنْ خالدٍ الوَرَّاقِ أَنَّهُ قالَ: كانتْ لي جاريةٌ شديدةُ الاجتهادِ، فدخَلْتُ عليها يومًا، فأخبرتْها بِرِفْقِ اللهِ، وقَبُولِهِ يَسيرَ العَمَلِ؛ فَبَكَتْ، ثمَّ قالتْ: يا خالدُ، إِنِّي لَأُؤَمِّلُ منَ اللهِ -تعالىٰ- آمالًا، لَوْ حَمَلَتْها الجبالُ لأَشْفَقَتْ مِنْ حَمْلِها، كما ضَعُفَتْ عَنْ حَمْلِ الأمانةِ. وإِنِّي لأَعْلَمُ أنَّ فِي كَرَمِ اللهِ مُسْتَغاثًا لِكُلِّ مُذْنِبٍ، ولكنْ كيفَ لِي بِحَسْرةِ السِّبَاقِ؟ قالَ: قُلْتُ: وما حسرةُ السِّباقِ؟! قالَتْ: غَداةَ الحَشْرِ، إذا بُعْثِرَ ما فِي القُبُورِ، وَرَكِبَ الأبرارُ نجائِبَ الأَعْمالِ؛ فَاسْتَبَقُوا إِلَىٰ الصِّراطِ، وَعِزَّةِ سَيِّدِي، لا يَسْبِقُ مُقَصِّرٌ مجتهدًا أبدًا، أمْ كيفَ لِي بِمَوْتِ الحُزْنِ والكَمَدِ؟ إذا رأيتُ القومَ يتراكَضُونَ، وقدْ رُفِعَتْ أعلامُ المُحْسنينَ، وجازَ الصِّراطَ المشتاقون، وَوَصَلَ إلىٰ اللهِ المُحِبُّونَ، وخُلِّفْتُ مع المُسِيئِينَ المُذْنِبينَ، ثمَّ بَكَتْ، وقالتْ: يا خالدُ، انظرْ لا يَقْطَعْكَ قاطِعٌ عنْ سُرْعَةِ المُبادَرَةِ بالأعمالِ؛ فإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الدارَيْنِ دارٌ، يُدْرِكُ فيها الخُدَّامُ ما فاتَهُمْ مِنَ الخِدْمَةِ؛ فويلٌ لِمَنْ قَصَّرَ عنْ خِدْمَةِ سَيِّدِهِ، ومَعَهُ الآمَالُ؛ فَهَلَّا كانَتِ الأعمالُ تُوقِظُهُ إذا نامَ البَطَّالونَ؟!»[1].

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 257.

أمُّ حَسَّانٍ الكُوفِيَّة

«عنْ عبدِ اللهِ بنِ المُبارَكِ، قالَ: ذَكَرَ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ امرأةً بالكوفةِ، يُقالُ لَها: أمُّ حَسَّانٍ، ذاتُ اجتهادٍ وعِبادةٍ، فَدَخَلْنا بَيْتَها، فلمْ نَرَ فيهِ شيئًا غَيْرَ قِطْعَةِ حَصيرٍ خَلِقٍ، فقالَ لها الثوريُّ: لوْ كَتَبْتِ رِقْعَةً إلىٰ بَعْضِ بني أَعْمَامِكِ لَغَيَّروا مِنْ سوءِ حالِكِ؛ فقالتْ: يا سفيانُ، قدْ كنتَ فِي عَيْنِي أعظمَ، وفِي قَلْبِي أكبرَ مُذْ ساعَتِكَ هذهِ، إنِّي ما أَسْأَلُ الدنيا مَنْ يَقْدِرُ عليها، ويَمْلِكُها، ويحْكُم فِيها، فكيفَ أسألُ مَنْ لا يقدِرُ عليها، ولا يَقْضِي ولا يَحْكُمُ فيها؟! يا سفيانُ، واللهِ ما أُحِبُّ أنْ يأتيَ عليَّ وَقْتٌ وأنا مُتشاغِلَةٌ فيهِ عنِ اللهِ -تعالىٰ- بغيرِ اللهِ؛ فأبْكَتْ سفيانَ، قال عبدُ اللهِ: فبلغَنِي أنَّ سفيانَ تَزَوَّجَ بها»[1].

مُنِيبَةُ البَصْرِيةِ وابْنَتُها

«عنْ عَيَّاشٍ القَطَّانِ، قال: كانتِ امرأةٌ بالبَصْرَةِ مُتَعَبِّدَةً يُقالُ لها: مُنِيبةُ، وكانَتْ لها ابنةٌ أشدَّ عِبادةً مِنْها، فكانَ الحَسَنُ رُبَّما رآها، وتَعَجَّبَ مِنْ عِبَادتِها علىٰ حَدَاثَتِها، فبينا الحَسَنُ ذاتَ يومٍ جالسٌ، إِذْ أتاهُ آتٍ، فقالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنَّ الجاريةَ قدْ نَزَلَ بها الموتُ؛ فَوَثَبَ الحَسَنُ، فدَخَلَ عليها، فَلَمَّا نظرتِ الجاريةُ إليهِ بَكَتْ؛ فقالَ: لها ما يُبْكِيكِ؟ قالتْ لهُ: يا أبا سعيدٍ، الترابُ يُحْثَىٰ عَلَىٰ شَبابِي، ولَمْ أَشْبَعْ مِنْ طاعةِ ربِّي، يا أبا سعيدٍ، انظرْ إلَىٰ والِدَتِي، وهيَ تقولُ لِوالِدِي: احْفُرْ لابْنَتِي قَبْرًا واسِعًا، وَكَفِّنْها بِكَفَنٍ حَسَنٍ، واللهِ لوْ كنتُ أُجَهِّزُ إلَىٰ مَكَّةَ؛ لَطَالَ بُكَائِي، كيفَ وأنا أُجَهِّزُ إلىٰ ظُلْمةِ القُبُورِ وَوَحْشَتِها وَبَيْتِ الظُّلْمَةِ والدودِ؟»[2].

---

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 110.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 243.

ترك بَعْضِ الصالحاتِ الزواجَ لِتَتَفَرَّغَ لعبادةِ اللّهِ

ولقدْ آثرَتْ بعضُ الصالحاتِ التَّفَرُّغَ لعبادةِ اللهِ -تعالىٰ- علىٰ الزواجِ، فَأَبَيْنَ الأَزْواجَ، وَرَفَضْنَ الخُطَّابَ، علىٰ ما للرجالِ فيهِنَّ منْ رغبةٍ؛ لِعِلْمِهِنَّ أنَّ الأزواجَ يَشْغَلُونَ عنْ طاعةِ الله -تعالىٰ-، ولإِيثارِهِنَّ عبادَتَه علىٰ كُلِّ شيءٍ ولقد ذكر ابنُ الجَوْزِيِّ في صِفَةِ الصَّفْوةِ نماذجَ مِنْهُنَّ، نذكرُ مِنْها علىٰ سبيلِ المواساةِ لِمَنْ لمْ تُرْزَقْ زوجًا، لا علىٰ سبيلِ الدَّعوةِ للتَّأَيُّمِ والترغيبِ فيهِ لِمَنْ تَهَيَّأَ لها الزوجُ الصالحُ الكفءُ:

مليكةُ بنتُ المُنْكَدِرِ

«عن مالكِ بنِ دينارٍ: بينا أنا أطوفُ بالبيتِ إذا أنا بامرَأَةٍ جهيرةٍ في الحِجْرِ، وهي تقولُ: أتيتُكَ مِنْ شُقَّةٍ بعيدةٍ، مُؤَمِّلةٍ لمعروفِكَ؛ فَأَنِلْنِي مَعْروفًا مِنْ معروفِكَ؛ تُغْنِينِي بِهِ عن معروفِ مَنْ سِوَاكَ، يا مَعْروفًا بالمعروفِ، فعرفتُ أيوبَ السِّخْتِيانِيِّ، فَسَأَلْنا عَنْ مَنْزِلِها، وقَصَدْناها، فقالَ لها أيوبُ: قُولِي خيرًا يَرْحَمُكِ اللهُ، قالتْ: وما أقولُ: أَشْكُو إِلَىٰ اللهِ قَلْبِي وهَوَايَ؛ فَقَدْ أَضَرَّا بِي، وشَغَلانِي عنْ عِبَادَةِ ربِّي، قُومَا؛ فإِنِّي أُبَادِرُ طَيَّ صحيفَتِي، قالَ أيوبُ فما حَدَّثْتُ نَفْسِي بامرأةٍ قَبْلَها، فَقُلْتُ لها: لوْ تَزَوَّجْتِ رَجُلًا؛ كان يُعِينُكِ علىٰ ما أنتِ عليهِ، قالتْ: لوْ كانَ مالكُ بنُ دينارٍ، أوْ أيوبُ السِّخْتِيانيُّ ما أَرَدْتُه؛ فقلتُ: أنا مالكُ بنُ دينارٍ، وهذَا أيوبُ السختيانِيُّ؛ فقالتْ: أُفٍ؛ لَقَد ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَشْغَلُكُما ذِكْرُ اللهِ عنْ مُحادَثَةِ النساءِ، وأَقْبَلَتْ علىٰ صلاتِها؛ فسألنا عنها فقالوا: هذه مليكةُ بنتُ المُنْكَدِرِ»[1].

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 409.

حَسَنَةُ العابدةُ

«عنْ محمدِ بنِ قُدَامةَ، قالَ: بَلَغَنا أنَّ امرأةً كانَ يُقالُ لها: حَسَنَةُ، تَرَكَتْ نعيمَ الدُّنيا؛ فأقبلتْ علىٰ العبادةِ، فكانتْ تصومُ النهار، وتُحْيِي الليلَ، وليسَ في بيتِها شيءٌ، كُلَّما عَطِشَتْ خَرَجَتْ إلىٰ النَّهْرِ، فَشَرِبَتْ بِكَفَّيْها، وكانتْ جَمِيلَةً، فقالتْ لها امرأةٌ: تَزَوَّجِي؛ فقالتْ: هاتِي رَجُلًا زاهدًا، لا يُكَلِّفُنِي مِنْ أمرِ الدُّنيا شيئًا، وما أظُنُّكِ تَقْدِرينَ عَلَيْهِ، فواللهِ ما فِي نَفْسِي أنْ أعبدَ الدنيا، ولا أَتَنَعَّمَ معَ رجالِ الدُّنيا، فإنْ وجدتِ رَجُلًا يَبْكِي ويُبْكِينِي، ويصومُ ويأمُرُنِي، ويَتَصَدَّقُ ويَحُضُّنِي عليه؛ فَبِها وَنِعْمَتْ، وإلَّا فَعَلَىٰ الرجالِ السلامُ»[1].

أختَ الإسلامِ، بعدَما سَمِعْتِ من اجْتِهادِ الصالحاتِ ما سَمِعْتِ؛ أمَا آنَ لكِ أن تُبَادِرِي ساعاتَكِ -رَحِمَكِ اللهُ- بالأعمالِ الصالحةِ؛ فلا يَفُوتَنَّ نَفَسٌ من أَنْفاسِكِ في غيرِ طاعةٍ، واعْلَمِي أنَّ الأيامَ والليالِيَ يَعْملانِ فِي عُمُرِكِ عَمَلَ الآكِلَةِ؛ فَلْتَكُونِي دَهْرَكِ علىٰ حَذَرٍ!!!

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 252.

أبوابُ الطاعاتِ مُفَتَّحةٌ للأَيَامَى

واعْلَمِي يا أمةَ اللهِ أنَّ فِي الأزواجِ والأولادِ مَشْغَلةٌ عنْ طاعةِ اللهِ -تعالىٰ-، ففِي التفكيرِ بِشُؤُونِهِمْ مشغلةٌ عن الفِكْرِ بما يُقَرِّبُ منَ اللهِ -تعالىٰ، وفي اهْتِمَامَكِ بهمْ تَشْتِيتٌ لهَمَّكِ عَنْ رَبَّكِ؛ أَمَا وقد عُوفِيتِ منهم، ومِنْ أَشْغالِهِمْ وهُمُومِهِمْ، فاشْتَغِلي باللهِ -تعالىٰ- وبما يُقَرِّبُ منه، وبما يُحَبِّبُهُ فيكِ، وأَفْنِي في ذلكَ العُمُرَ والشبابَ، وإليكِ بَعْضُ فُرَصِ العبادةِ التي هيَ مُتَيَسِّرةٌ لكِ أكثر مِمَّنْ سواكِ مِنَ المُتَزَوِّجاتِ، وللمتزوجات -كذلك- منها نصيبٌ وفيرٌ؛ فلنْ تَعْدِمَ الخيرَ عاقلةٌ:

الأول: قراءةُ القرآنِ، وتَعَلُّمُ أَحْكَامِهِ، وتَعْلِيمُه

في حِفْظِ القرآنِ وتثبيتِه، وتَعَلُّمِ أحكامِ تلاوتِه فُرْصةٌ عَظيمَةٌ تَتَقَرَّبُ بها المسلمةُ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ-؛ فإنَّه من أَجَلِّ القرباتِ، وأعظمِ الحسناتِ؛ فعَنْ عُثْمَانَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[1]. وخيرُ أهلِ الأرضِ هم أهلُ القرآنِ، وإنَّ لكِ بكلِّ حَرْفٍ تَقْرَئينَه منْ كتابِ اللهِ -تعالىٰ- عَشْرَ حسناتٍ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَؤوا القرآنَ، فإنَّكم تُؤْجَرون عليه، أَمَا إِنِّي لا أقولُ (الم) حَرْفٌ، ولكنْ أَلِفٌ عَشْرٌ، ولامٌ عَشْرٌ، وميمٌ عَشْرٌ؛ فتلكَ ثلاثون»[2]. وحافظةُ القرآنِ مِنْ أَعْلَىٰ الناسِ مَنْزِلَةً عندَ اللهِ -تعالىٰ- فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ،

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه: 6/ 192.

(2) انظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته، للألباني: 1/ 257.

وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»[1]، كما أنَّ إدامةَ تلاوةِ القرآنِ علامةٌ علىٰ حُبِّ اللهِ -تعالىٰ-: عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ؛ فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ»[2]. وقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لا يسألْ أحدُكُم عن نَفْسِه إلا القرآنَ؛ فإنْ كانَ يحبُّ القرآنَ ويُعْجِبُه؛ فهو يحبُّ اللهَ -سبحانه- ورسولَه ﷺ، وإنْ لمْ يكنْ يحبُّ القرآنَ فليسَ يحبُّ الله»[3].

• القرآنُ دواءُ أمراضِ القُلوب

والقرآن من أنفعِ ما للمسلمةِ في صلاحِ قلبِها ونفسِها، وقُرْبِها منْ ربِّها.

قال ابن القيم: «تباركَ الذِي جعلَ كلامَه حياةً للقلوبِ، وشفاءً لِما في الصدورِ، وبالجُمْلَةِ فلا شَيْءَ أنفعُ للقلبِ من قراءَةِ القرآنِ بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ؛ فإنَّه جامعٌ لجميعِ منازلِ السائرينَ، وأحوالِ العاملينَ، ومقاماتِ العارفينَ، وهو الذِي يُوْرِثُ المحبَّةَ، والشَّوْقَ، والخَوْفَ، والرَّجاءَ، والإنابةَ: والتَّوَكُّلَ، والرِّضا، والتَّفْويضَ، والشُّكْرَ، والصَّبْرَ؛ وسائِرَ الأحوالِ، التِي بها حياةُ القلبِ وكَمَالِه، وكذلكَ يَزْجُرُ عنْ جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومةِ، والتي بها فسادُ القلبِ وهلاكِه، فلوْ عَلِمَ الناسُ ما فِي قراءَةِ القرآنِ بالتَّدَبُّرِ؛ لاشْتَغَلُوا بها عنْ كُلِّ ما سِواها، فَقِراءَةُ القرآنِ بالتَّفَكُّرِ هي أصلُ صلاحِ القَلْبِ»[4].

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عمر بن العاص: 36/ 39، وصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: من تعلم القرآن: 3/ 507، وأبو نُعَيم في الحلية، باب من حدث وروىٰ عنه شعبة من الأئمة: 7/ 209، وحَسَّنَهُ الألباني في صحيح الجامع.

(3) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: 1/ 273.

(4) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن قيم الجوزية: 1/ 187.

والقرآن أفضلُ ما تُعِدِّينه لِظُلْمَةِ القَبْرِ؛ إذْ يأتِي شفيعًا لأصحابِه يومَ القيامةِ، روىٰ أحمد في مسنده بسند صحيح، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ»[1].

قال ابنُ عَطِيَّةَ في مُقَدِّمَةِ تفسيرِه: «فلمَّا أَرَدْتُ أنْ أختارَ لنفسِي، وأنظرَ في عِلْمٍ أُعِدُّ أنوارَه لِظُلَمِ رَمْسِي[2]، سَبَرْتُها[3] بالتنويعِ والتَّقْسيمِ، وعَلِمْتُ أنَّ شَرَفَ العِلْمِ علىٰ قَدْرِ شَرَفِ المعلومِ؛ فوجدتُ أَمْتَنَها حِبالًا، وأَرْسَخَها جِبَالًا، وأَجْمَلَها آثارًا، وأَسْطَعَها أنوارًا، عِلْمُ كتابِ اللهِ- جلَّتْ قُدْرَتُه، وتَقَدَّسَتْ أسماؤُه- الذِي لا يأتِيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِه، تنزيلٌ منْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، ورَجَوْتُ أنَّ اللهَ -تعالىٰ- يُحَرِّمُ علىٰ النارِ فِكرًا عَمَرْتُه

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عمر بن العاص: 36/ 39، والبيهقي في شعب الإيمان، فصل في إدمان تلاوة القرآن: 3/ 378، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) يقال لما يُحْثَىٰ من التراب علىٰ القبر: رمس. والقبر نفسه: رمس، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 6/ 101.

(3) السبر: التجربة. وسبر الشيء سبرًا: حَزَرَه وخبره. والسبر: استخراج كنه الأمر، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 430.

أكثرَ عُمُرِهِ ومعانيهِ، ولِسانًا مَرَنَ علىٰ آياتِهِ ومَثانِيهِ[1]، ونفسًا مَيَّزتْ بَراعةَ رَصْفِهِ[2] ومَبَانيهِ، فَثَنيتُ إليهِ عنانَ النَّظَرِ[3]، وأَقْطَعْتُهُ جانبَ الفِكَرِ، وجعلتُه فائدةَ العُمرِ»[4].

حفصةُ بِنْتُ سيرين والقرآنَ

ولقدِ اجتهدتْ كثيرٌ منَ النساءِ في حفظِ القرآنِ وتَعَلُّمِه وتَعْلِيمِه قديمًا وحديثًا، ذكرَ ابنُ الجوزيِّ «عن هشامِ بنِ حَسَّان، قال: كانتْ حَفْصَةُ بنتُ سيرين تقولُ لنا: يا معشرَ الشَّبابِ خُذُوا مِنْ أنفُسِكُم وأَنْتُم شبابٌ، فإنِّي ما رأيتُ العملَ إلا في الشبابِ، قالَ: قَرَأَتِ القرآنَ وهيَ ابنةُ اثنتي عَشْرَةَ سنةً، وماتت وهي ابنة تسعين، وعن مهدي بن ميمون، قالَ: مَكَثَتْ حفصةُ في مُصَلّاها ثلاثينَ سنةً لا تخرجُ إلا لحاجةٍ أو لِقَائِلة، وعن هشامٍ أن ابنَ سيرينَ كان إذا أَشْكَلَ عليه شَيْءٌ من القراءة، قالَ: اذهبُوا فَسَلُوا حَفْصَةَ كيفَ تَقْرَأُ»[5]، ولقد رأينا في زمانِنا هذا -بحمدِ الله تعالىٰ- منَ المسلماتِ اللاتِي أَوْقَفْنَ حياتَهُنَّ علىٰ كتابِ اللهِ -تعالىٰ- تَعَلُّمًا وتَعْليمًا نماذجَ طيبةً مباركةً؛ ربما زاحمنَ نساءَ السَلَفِ في الشَّرَفِ والخَيْرِ.

---

(1) مَثانِي، أي: تثني فيه الأنباء والقصص، وذكر الثواب والعقاب، انظر: غريب القرآن، لابن قتيبة، سورة الزمر: 1/ 330.

(2) الرصف: ضم الشيء بعضه إلىٰ بعض ونظمه، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 6/ 101.

(3) العنان: ما عن لك منها إذا نظرت إليه، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 4/ 19.

(4) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، مقدمة التفسير: 1/ 34.

(5) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 241.

الثاني: إِدَامَةُ ذِكْرِ اللهِ -تعالى-

أخبرَ اللهُ -تعالىٰ- أنَّ ذِكْرَ اللهِ -تعالىٰ- للمسلمةِ علىٰ قَدْرِ ذِكْرِها ربَّها، كما دَلَّتْ عليه الآية: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]، وأنَّ مَعِيَّةَ اللهِ لها ما دامتْ ذاكرةً للهِ، عن أبي هريرةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْثُرُه عَنْ رَبِّهِ ﷻ أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»[2]. وَكُلَّما كانتِ الأَمَةُ أكثرَ ذِكْرًا لربِّها، وأكثرَ استغراقًا بقلبها وفِكْرها؛ كانَ ذِكْرُ اللهِ لها أتمَّ وأَكْملَ.

قال ابن القيم في وصفِ منزلة الذكر: «مَنْزِلَةُ الذِّكْرِ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ الْقَوْمِ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي مِنْهَا يَتَزَوَّدُونَ، وَفِيهَا يَتَّجِرُونَ، وَإِلَيْهَا دَائِمًا يَتَرَدَّدُونَ. وَالذِّكْرُ مَنْشُورُ الْوِلَايَةِ، الَّذِي مَنْ أُعْطِيَهُ اتَّصَلَ، وَمَنْ مُنِعَهُ عُزِلَ، وَهُوَ قُوتُ قُلُوبِ الْقَوْمِ الَّذِي مَتَىٰ فَارَقَهَا؛ صَارَتِ الْأَجْسَادُ لَهَا قُبُورًا، وَعِمَارَةُ دِيَارِهِمُ، الَّتِي إِذَا تَعَطَّلَتْ عَنْهُ؛ صَارَتْ بُورًا، وَهُوَ سِلَاحُهُمُ، الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ، وَمَاؤُهُمُ الَّذِي يُطْفِئُونَ بِهِ الْتِهَابَ الطَّرِيقِ، وَدَوَاءُ أَسْقَامِهِمُ، الَّذِي مَتَىٰ فَارَقَهُمُ؛ انْتَكَسَتْ مِنْهُمُ الْقُلُوبُ، وَالسَّبَبُ الْوَاصِلُ وَالْعَلَاقَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَلَّامِ الْغُيُوبِ. وَكُلَّمَا ازْدَادَ الذَّاكِرُ فِي ذِكْرِهِ اسْتِغْرَاقًا؛ ازْدَادَ الْمَذْكُورُ مَحَبَّةً إِلَىٰ لِقَائِهِ وَاشْتِيَاقًا، وَإِذَا وَاطَأَ فِي ذِكْرِهِ قَلْبُهُ لِلِسَانِهِ؛ نَسِيَ فِي جَنْبِ ذِكْرِهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَحَفِظَ اللهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَكَانَ لَهُ عِوَضًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[3].

---

(1) البقرة: 152.

(2) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة: 16/ 572، وابن حبان في صحيحه، باب: ذِكْرُ رَجَاءِ سُرْعَةِ الْمَغْفِرَةِ لِذَاكِرِ اللهِ إِذَا تَحَرَّكَتْ بِهِ شَفَتَاهُ: 3/ 97، وصَحَّحَهُ الألباني.

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 2/ 395.

والذاكرة لله مذكورةٌ عندَ اللهِ -تعالىٰ-؛ في مَلَأٍ عظيمٍ، مادامت تَذْكُر ربها، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ: التَّسْبِيحَ، وَالتَّهْلِيلَ، وَالتَّحْمِيدَ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟»[1].

وكيفما تَذْكُرُ المسلمةُ ربَّها؛ يَكْنْ ذِكْرُ اللهِ -تعالىٰ- لها أعظمَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِ الَّذِينَ يَذْكُرُنِي فِيهِمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ الْعَبْدُ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[2].

مُقْتَرَحُ الذِّكْرِ

أَمَا وقد رأيتِ مِنْ عظيمِ بَرَكَةِ الذِّكْرِ ما رأيتِ، فجديرٌ بكِ -إنْ كُنتِ عاقلةً، وكان لنفسكِ عِنْدكِ ثمنٌ- أن تُدْمِنِي ذكرَ اللهِ -تعالىٰ-، فتَذْكُرِينَه علىٰ مَدَىٰ الأنفاسَ، في الليلِ والنهارِ، بالغدوِّ والآصالِ، ولْتَجْعَلِي لنفْسِكِ أَلْفِيَّةً من الذِّكْرِ تُداوِمِينَ عليها عندَ شروقِ الشَّمْسِ بعد أذكارِ الصباحِ: مائةً: (سبحان اللهِ)، ومائةً: (الحمدُ للهِ)، ومائةً: (لا إلهَ إلا اللهُ)، ومائةً: (اللهُ أكبرُ)، ومائةً: (سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ)، ومائة: (لا إلهَ إلا اللهُ، وحْدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ المُلْكُ، ولهُ الحَمْدُ، وهوَ علَىٰ كلِّ شَيْءٍ قَديرٌ)، ومائةً: (سبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ،

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه، باب فضل التسبيح: 2/ 1252، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾: 9/ 121، ومسلم، باب: الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ: 4/ 2061.

سبحانَ اللهِ العظيمِ)، ومائةً: (حَسْبِيَ اللهُ، ونِعْمَ الوكيلِ)، ومائةً: (أستغفرُ اللهَ)، و تختمينها بمائةٍ: (اللهمَ صلِّ علىٰ مُحَمَّدٍ، وعَلَىٰ آلِه، وسائرِ النَّبِيِّينَ، وسَلِّمْ)، فهذه ألفيةٌ من الذِّكْرِ، ولَكِ أن تَزِيدِي أو تُنْقصي، بَحَسبِ وُسْعُكِ، ثم تُعِيدِينَها عندَ غروبِ الشَّمْسِ بعد أذكارِ المساءِ؛ وَلْتَلْهَجِي بِذِكْرِ الرحمنِ ما بينهما، وفي أَعْقابِ الصلواتِ بالأذكارِ المخصوصةِ، وتَذْكُرِينَهُ علىٰ كلِّ حالٍ؛ فلعلَّ اللهَ -تعالىٰ- يَقْبِضُ رُوحَكِ يومَ يَقْبِضُها، وأنتِ ذاكرةٌ لله -تعالىٰ-؛ فَتُبْعَثِينَ يومَ يقومُ الناسُ فَزِعِينَ مِنْ قُبُورِهِمْ، يقولون: يا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا؛ وتَقُومِينَ أنتِ ذاكرةً للهِ مُطْمَئِنَّةً تَهْتِفِينَ: سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، لا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ؛ لِمَا رُوِي عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُبْعَثُ كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ»[1]؛ ثم أَبْشِرِي بَمَحَبَّةِ الرحمنِ، والقُرْبِ من الديانِ.

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند جابر بن عبد الله: 22/ 412، ومسلم، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالىٰ عند الموت: 4/ 2206.

الثالث: تَعَلُّمُ العِلْمَ الشَّرْعِيِّ، وتَعْلِيمُهُ

جديرٌ بالمسلمةِ أنْ تَسْتَغِلَّ وقتَها بأفضلِ ما ينفعُها في آخِرتها، ومن أنفعِ ذلكَ تَعَلُّمُ العلمَ الشَّرْعِيَّ وتَعْلِيمُه الناسَ؛ فإنَّ أهلَ العلمِ بمكانٍ عالٍ رفيعٍ عند اللهِ، قال -تعالىٰ-: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

قال ابن جرير: «يرفعُ اللهُ الذينَ أوتُوا العِلْمَ منْ أهلِ الإيمانِ علىٰ المؤمنين، الذينَ لمْ يُؤتَوا العلمَ بِفَضْلِ عِلْمِهم درجاتٍ، إذا عَمِلوا بما أُمِرُوا به»[2].

وطلب العِلْمِ طريقٌ سَهْلٌ سالكٌ قريبٌ إلىٰ الجَنَّةِ، عن أبي هريرة ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ»[3].

قال ابنُ رَجَبٍ: «قد يرادُ: أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ لطالبِ العِلْمِ إذا قَصَدَ بِطَلَبِه وجهَ اللهِ؛ الانتفاعَ بِهِ، والعَمَلَ بِمُقْتَضاهُ، فيكونُ سَبَبًا لهدايتِهِ، ولِدُخولِ الجنةِ بذلكَ، وقد يدخُلُ في ذلكَ أيضًا تَسْهيلُ طريقِ الجنةِ الحِسِّيِّ يومَ القيامةِ -وهو الصراطُ - وما قَبْلَهُ وما بَعْدَهُ منَ الأهوالِ، فَيُيَسَّرُ ذلكَ علىٰ طالبِ العلمِ للانتفاعِ بِهِ، فإنَّ العلمَ يدلُّ علىٰ اللهِ مِنْ أقربِ الطُّرقِ إليهِ، فَمَنْ سلكَ طَرِيقَه، ولَمْ يَعْرُجْ عنْهُ، وصلَ إلىٰ اللهِ، وإلَىٰ الجنةِ مِنْ أقربِ الطُّرُقِ وأَسْهَلِها؛ فسهلتْ عليه الطُّرُقُ الموصلةُ إلىٰ الجنةِ كلُّها في الدنيا والآخرةِ، فلا طريقَ إلىٰ معرفةِ اللهِ، وإلىٰ الوصولِ إلىٰ رضوانِه والفوزِ بقُرْبِه، ومُجَاوَرَتِه في الآخرةِ إلا

---

(1) المجادلة: 11.

(2) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، سورة المجادلة: 23/ 246.

(3) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة: 12/ 393، ومسلم، باب: فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر: 4/ 2074.

بالعلمِ النافعِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَه، وأنزلَ بِهِ كُتُبَه، فهوَ الدليلُ عَلَيهِ، وبِهِ يُهْتَدَىٰ في ظلماتِ الجهلِ والشُّبَهِ والشُّكُوكِ»[1].

- **مرتبةُ الصِّدِّيقيَّةِ تُنَالُ بالعِلْمِ والعَمَلِ والتَّعْلِيمِ**

والعلماءُ العالمونَ بِعِلْمِهِمْ، المعلمونَ غيرَهُمُ ابتغاءَ وجهِ اللهِ -تعالىٰ- يبلُغونَ بِهِ مرتبةَ الصِّدِّيقِيَّةِ، التِي هيَ أعْلَىٰ مراتبِ البَشَرِ، وهيَ مرتبةٌ تَلِي مَرْتَبَةَ النبوةِ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ: «فالصدِّيقون هم ورثةُ الرُّسُلِ، وخلفاؤُهم في أُمَمِهِمْ، وهمُ القائمونَ بما بُعِثُوا به: عِلمًا، وعَمَلًا، ودعوةً للخلقِ إلىٰ اللهِ علىٰ طُرُقِهِمْ ومِنْهاجِهِمْ، وهذهِ أفضلُ مراتبِ الخلقِ بعدَ الرسالةِ والنُّبُوةِ، وهيَ مرتبةُ الصِّدِّيقِيَّةِ؛ ولهذا قَرَنَهُمُ اللهُ في كتابِه بالأنبياءِ فقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[2]، فَجَعَلَ درجةَ الصِّدِّيقِيَّةِ معطوفةً علىٰ درجةِ النُّبُوةِ، وهؤلاءِ هُمُ الرَّبانيون، وهم الراسِخُونَ في العِلْمِ، وهمُ الوسائطُ بينَ الرسولِ ﷺ وأُمَّتِه، فهمْ خلفاؤُه، وأولياؤُه، وحِزْبُه، وخاصَّتُه، وحَمَلةُ دِينِه، وهيَ أَفْضَلُ درجاتِ الأُمَّةِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِها وشَرَفِها إلا أنَّ كلَّ مَنْ عَلِم بِتَعْلِيمِهِمْ وإرشادِهِم، أو عَلَّمَ غَيْرَه شَيْئًا مِنْ ذلكَ؛ كانَ لهُ مثلُ أَجْرِه ما دامَ ذلكَ جاريًا في الأُمَّةِ علىٰ آبادِ الدُّهورِ؛ فيا لَها مِنْ مَرْتَبَةٍ ما أَعْلاها! ومَنْقَبَةٍ ما أَجَلَّها وأَسْنَاها! أنْ يكونَ المرءُ في حياتِه مَشْغولًا بِبَعْضِ أَشْغالِهِ، أو فِي قَبْرِه، قدْ صارَ أشلاءَ مُتَمَزِّقةً، وأَوْصالًا مُتَفَرِّقَةً؛ وصُحُفُ حسناتِه مُتَزايِدَةٌ، يُملَىٰ فيها الحسناتُ كلَّ وقتٍ، وأعمالُ الخيرِ مُهْداةٌ إليهِ منْ حيثُ لا يحتسبُ؛ تلكَ -واللهِ- المكارمُ والغنائمُ، وفي

---

(1) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي: 2/ 297.

(2) النساء: 69.

ذلكَ فليتنافسِ المتنافسون، وعليهِ يَحْسدُ الحاسدون، وحَقِيقٌ بمرتبَةٍ هذا شَأْنُها أَنْ تُنْفَقَ نفائِسُ الأنفاسِ عليها، ويسبقَ السابقون إليها، وتُوَفَّرَ عليها الأوقاتُ، وتَتَوَجَّهَ نحوها الطلباتُ؛ وأصحابُ هذهِ المرتبةِ يُدْعَوْنَ عظماءَ في مَلَكُوتِ السماءِ، كما قالَ بعضُ السَّلَفِ: مَنْ عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ؛ فذلكَ يُدْعَىٰ عَظِيمًا في ملكوتِ السماءِ. فنسألُ اللهَ الذِي بيدِهِ مفاتيحُ كلِّ خيرٍ؛ أنْ يَفْتحَ عَلَيْنا خزائنَ رَحْمَتِه، ويَجْعَلَنا مِنْ أهلِ هذهِ الصِّفَةِ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِه»[1].

* فخليقٌ بمنزلةٍ هذا وصْفُها أنْ تُفْنَىٰ في سبيلِ نَيْلِها وبلوغِ رُتْبَتِها الأعمارُ، وتُبْذَلَ لها الأموالُ.

نماذجُ العالماتِ العامِلاتِ المعلماتِ

وقد ذَكَرَ ابنُ الجوزيِّ في صِفَةِ الصَّفْوَةِ نماذجَ من العالِماتِ العاملاتِ بِعِلْمِهِنَّ من أولئكَ:

الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ، عائشةُ رضي الله عنها

عنْ أبي مُوسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه، قالَ: «ما أَشْكَلَ علينا أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ حديثٌ قَطُّ؛ فَسَأَلْنا عائشةَ عنهُ إلَّا وَجَدْنَا عِنْدَها مِنْهُ عِلْمًا. وعن مسروقٍ قال: نَحْلِفُ باللهِ، لَقَدْ رَأَيْنَا الأَكَابِرَ مِنْ أَصْحابِ رسولِ اللهِ ﷺ يسألونَ عائشةَ عَنِ الفَرَائِضِ.

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 351.

وعن عُرْوَةَ، عنْ أَبيهِ، قَالَ: ما رَأَيْتُ أحدًا مِنَ الناسِ أَعْلَمُ بالقرآنِ ولا بفريضةٍ ولا بحلالٍ ولا بحرامٍ ولا بِشِعْرٍ ولا بحديثِ العَرَبِ ولا بِنَسَبٍ منْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها. وعنْ هِشامِ بنِ عُرْوَةَ، قالَ: كانَ عُرْوَةُ يقولُ لعائشةَ: يا أُمَّتاهُ، لا أَعْجَبُ من فِقْهِكِ، أَقُولُ: زوجةُ رسولِ اللهِ ﷺ، وابنةُ أبي بَكْرٍ، ولا أَعْجَبُ من عِلْمِكِ بالشِّعْرِ وأيَّامِ العَرَبِ. أقولُ: ابنةُ أبي بكرٍ، وكانَ أَعْلَمَ الناسِ أو من أَعْلَمِ الناسِ لكنْ أَعْجَبُ مِنْ عِلْمِكِ بالطبِّ. قال: فَضَرَبَتْ عَلَىٰ مَنْكِبِهِ، وقالَتْ: أيْ عروةُ، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ بِسَقَمٍ عِنْدَ آخِرِ عُمُرِهِ، فَكَانَتْ تَقْدُمُ عَلَيْهِ وُفُودُ العربِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَتَنْعَتُ لهُ الأَنْعاتِ[1]، فَكُنْتُ أُعالجُهَا فَمِنْ ثَمَّ.

- وعن سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، قالَ: «قالَ الزُّهْرِيُّ: لوْ جُمِعَ عِلْمُ عائشةَ إلىٰ علمِ جميعِ أزواجِ النبيِّ ﷺ وجميعِ النساءِ، كانَ عِلْمُ عائشةَ -رضي الله عنها- أَكْثَرَ»[2].

أمُّ عِيسى بنتُ إبراهيمَ الحَرْبيِّ

«عن أبي بكرٍ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ ثابتٍ قال: ذُكِرَ لي أنَّ أمَّ عيسَىٰ بنتَ إبراهيمَ الحَرْبِيِّ كانتْ فاضلةً عالمةً تُفْتِي في الفِقْهِ ودُفِنَتْ إلىٰ جنبِ أبيها إبراهيم والسلام»[3].

أَمَةُ الواحدِ بنت القاضي أبي عبدِ اللهِ الحُسَينِ بنِ إسماعيلَ المحامِليِّ

«عنْ أبي بكرِ البرقانِيِّ، قالَ: كانتْ بنتُ المحامِلِيِّ تُفْتِي معَ أبي عَلِيِّ بنِ أبي هريرة، قال أبو الحَسَنِ الدَّارَقطْنِيِّ: أَمَةُ الواحدِ بنتُ الحُسَينِ بنِ إسمعيلَ بنِ محمدٍ القاضِي

---

(1) قال ابن الأثير: النَّعْتُ وَصْفُ الشيء بما فيه من حسن، والوصف يُقالُ في الحَسَنِ والقبيحِ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 2/ 100.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 311.

(3) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 578.

المحامِلِيِّ، سَمِعَتْ أباها، وإسمعيلَ بنَ العباسِ الوَرَّاق، وعبدَ الغافِرِ بنِ سلامةَ الحِمْصِيِّ، وأبا الحَسَنِ المِصْرِيِّ، وحَمْزةَ الهاشِمِيِّ الإمامِ وغيرَهم، وحَفِظَت القرآنَ والفِقْهَ علىٰ مَذْهبِ الشافِعِيِّ والفرائضَ، وحِسابَها والنَّحْوَ وغيرَ ذلكَ مِنَ العُلُومِ، وكانتْ فاضِلةً في نَفْسِها، كثيرةَ الصَّدَقَةِ، مُسارِعةً في الخَيْراتِ، وحَدَّثَت، وكُتِبَ عنها الحديثُ»[1].

* أمَّا فِي زمانِنا فقدْ تَيَسَّر طَلَبُ العِلْمِ للنساءِ أكثرَ مِنْ أيِّ وَقْتٍ سبقَ، فَقَدْ خُصِّصَ لهنَّ مدارسُ وجامعاتٌ، وتيسَّرَ لهنَّ بُلوغَ العِلْمِ النافعِ بأيسرِ الأسبابِ، وأَقَلِّها مَؤُونةٍ؛ فَمَا علىٰ المسلمةِ إلا أنْ تُخْلِصَ نِيَّتَها في سلوكِ طريقِ العِلْمِ؛ وسَتَجِدُ اللهَ -تعالىٰ- يَرْفَعُها مِنْ مَنْزِلَةٍ إلىٰ أَعْلَىٰ، واللهُ -وَحْدَهُ- المُوَفِّقُ لكلِّ خيرٍ.

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 578.

الرابع: الدَّعْوةُ إلى اللهِ -تعالى-

وللمسلمةِ الأَيِّمِ التي أوتيتْ حَظًا مِنَ العِلْمِ أنْ تَتَّخِذَ دعوةَ النساءِ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- مِهْنَةَ عُمُرِها، تُفْنِي بها حياتَها، تدعو المسلماتِ التائهاتِ إلىٰ اللهِ بالحكمةِ والمَوْعظةِ الحَسَنَةِ، لا سيما وأَنَّنَا بِتْنَا في زمانٍ كَثُرَتْ فيه الفتنُ، وعَمَّ فيهِ التَّبَرُّجُ والسُّفورُ، وسلَكَتْ فيه بناتُ المسلمينَ سبيلَ المغضوبِ عليهمْ وسبيلَ الضالين، ولْتَعْلَمِ المسلمةُ وهِيَ تَهْدِي الضالاتِ السبيلَ، وتَنْتَشِلُ الغَريقاتِ مِنْ أوحالِ المعاصِي وأَقْذَارِ الآثامِ أَنَّها تسلُكُ بهذا سبيلَ الأنبياءِ وتَمْتَهِنُ مِهْنَتَهم، وتَحْتَرِفُ حِرْفَتَهم؛ إذِ الدعوةُ إلىٰ اللهِ مهنةُ الأنبياءِ، وحِرْفَةُ المرسلينَ، ولو عَلِمَ اللهُ عملًا أفضلَ من الدعوةِ إلىٰ اللهِ، لَخَصَّ بهِ الأنبياءَ والمرسلينَ، فكُلُّ الأعمالِ لها تَبَع.

• الداعياتُ إلى اللهِ أرفع النساءِ منزلةً

فمقامُ الداعياتِ إلىٰ اللهِ أحسنُ المقاماتِ، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

روىٰ ابن جريرٍ أنَّ الحَسَنَ البَصْرِيَّ قال بعدَ أنْ تَلَا علىٰ أَهْلِ البَصْرَةِ هذهِ الآيةَ: «هو المؤمنُ أجابَ اللهَ في دَعْوَتِه، وعَمِلَ صالِحًا فِي دَعْوَتِه، ودعا الناسَ إلىٰ ما أجَابَ اللهَ فيه مِنْ دعوتِه، وعَمِلَ صالحًا في إِجَابَتِهِ؛ هذا خليفةُ اللهِ»[2].

---

(1) فُصِّلَتْ: 33-35.

(2) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، سورة فُصِّلَتْ: 21/ 469.

• الدعوةُ إلى اللهِ ميراثُ النُّبُوَّةِ

قال ابنُ القَيِّمِ مبينًا عَظَمَةَ مَنْزِلَةِ الدعوةِ إلىٰ اللهِ: «فالدعوةُ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- هي وظيفةُ المرسلينَ وأتباعِهم، وهُمْ خلفاءُ الرسلِ في أُمَمِهِمْ، والناسُ تَبَعٌ لهم، وَاللهِ -سُبْحَانَهُ- قد أَمر رَسُوله ﷺ أَن يُبَلِّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَضَمِنَ لَهُ حِفْظَهُ وعِصْمَتَهُ منَ النَّاسِ، وَهَكَذَا الْمُبَلِّغُونَ عَنهُ مِنْ أُمَّتِهِ، لَهُم مِنْ حِفْظِ اللهِ وعِصْمَتِهِ إِيَّاهُمْ بِحَسبِ قِيامِهِمْ بِدِينِهِ وتبليغِه لَهُم، وَقد أَمر النَّبِي ﷺ بالتبليغ عَنهُ وَلَو آيَة، ودعا لمن بَلَّغَ عَنهُ وَلَو حَدِيثًا، وتَبْلِيغُ سُنَّتِهِ إِلَىٰ الْأُمَّةِ أَفْضَلُ مِنْ تَبْلِيغِ السِّهَامِ إِلَىٰ نُحورِ الْعَدُوِّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّبْلِيغَ يَفْعَلُه كثيرٌ منَ النَّاسِ، وَأَمَّا تَبْلِيغُ السُّنَنِ فَلَا تقومُ بِهِ إِلَّا وَرَثَة الْأَنْبِيَاءِ وخُلَفَاؤُهُمْ فِي أُمَمِهِمْ؛ جعلنَا الله -تَعَالَىٰ- مِنْهُم بمنه وَكَرمه»[1].

ويقولُ عبدُ القادرِ الكيلانيُّ في مَنْزِلَةِ الدعوةِ إِلَىٰ اللهِ: «فهذهِ الغايةُ القُصْوَىٰ فِي بَنِي آدَمَ، لا مِنْزِلَةَ تفوقُ منزلتَهُ إلا النُّبُوَّةَ»[2].

• عظيمُ أجْرِ الدعوةِ إلى اللهِ

ويكفي أن مِنْ بركةِ الدعوةِ إلىٰ اللهِ أنَّ كلَّ مُسْلِمَةٍ تكونينَ سببًا في هدايَتِها؛ سيكونُ لكِ مثلُ أَجْرِها، مِنْ صلاةٍ وصيامٍ وصَدَقَةٍ وتلاوةٍ وحَجٍّ واعتمارٍ، منْ غيرِ أن يَنْقُصَ منْ عملِها شَيْءٌ؛ ولذلكَ قال رسولُ اللهِ ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه يومَ خَيْبَرَ: «فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَىٰ بِكَ رَجُلٌ

---

(1) جلاء الأفهام في فضل الصلاة علىٰ محمد خير الأنام، لابن قيم الجوزية: 1/ 415.

(2) الإنسان بين علو الهمة وهبوطها، لعلي بن نايف الشحود: 2/ 369.

وَاحِدٌ؛ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ[1]»[2]. فما علىٰ المسلمةِ إلا أنْ تكونَ سببًا في هدايةِ غيرِها إلىٰ الالتزامِ بالإسلام، ثمَّ لا تبالي مَتَىٰ تموتُ، وكيفَ تموتُ.

وإنَّ في سَعَةِ وقَتِ الأيِّمِ ما يسمحُ بامتهانِ الدعوةِ إلىٰ اللهِ، والقيامِ بواجبِ هذا العَمَلِ الشَّريفِ، وهذهِ القُرْبَةِ الجليلةِ؛ إذْ لا زوجَ يُسْتأذنُ، ولا ذُرِّيَّةَ تَشْغَلُ.

---

(1) النعم: الْإِبِل، وحمرها: كرامها وأعلاها منزلَة، انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 1/ 247.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: دعاء النبي ﷺ الناس إلىٰ الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله: 4/ 47، ومسلم، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: 4/ 1872.

الخامس: الصلاةُ والقيامُ

• صلاةُ الفَريضَةِ أعْظَمُ الطاعاتِ

ولَمَّا لم يكنْ للأيِّمِ المسلمةِ زوجٌ تشتَغِلُ بهِ، ولا أولادٌ يُلْهُونَها؛ اتَّسَعَ وقْتُها، وكانَ فيهِ فرصةٌ للصلاة، ولقد انتدب الله -تعالىٰ- عباده لخدمته والقيام بواجب الصلاة له بقوله: ﴿قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[1].

قالَ الأَلُوسيُّ: «أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ خُلَّصَ عِبادِهِ بِالعِبادَةِ البَدَنِيَّةِ والمالِيَّةِ، فقالَ -سبحانَه-: ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وخَصَّهُمْ بالإضافَةِ إليهِ -تعالىٰ- رَفْعًا لهم، وتَشْريفًا، وتَنْبِيهًا علىٰ أَنَّهُم المقيمونَ لِوَظَائِفِ العُبُودِيَّةِ، الْمُوفُونَ بِحُقُوقِها»[2]، وقال السَّعْديُّ: «أيْ: قُلْ لِعِبادِي المؤمنينَ آمرًا لهم بما فيهِ غَايةُ صَلاحِهِمْ، وأنْ يَنْتَهِزُوا الفُرْصَةَ، قَبْلَ أنْ لَا يُمْكِنُهُمْ ذلكَ: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاة﴾ ظاهرًا وبَاطِنًا»[3].

فالصلاةُ علىٰ وقتِها أفضلُ ما تَتَقَرَّبُ به المسلمةُ لربها، وأحبُّ العِباداتِ لِوَلِيِّ نِعْمَتِها، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أحبُّ إلىٰ اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا»[4].

---

(1) إبراهيم: 31.

(2) تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، سورة إبراهيم: 7/ 207.

(3) تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، سورة إبراهيم: 1/ 426.

(4) رواه البخاري في صحيحه، باب: فضل الصلاة لوقتها: 1/ 112، ومسلم، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالىٰ أفضل الأعمال: 1/ 90.

• الصلاةُ قُرَّةُ عيونِ العابدين، ومُسْتَراحُ المَهْمُومين

ولقد أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ عن نفسه بقوله: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1].

قال ابنُ القَيِّم: «أخبرَ أنَّ قُرَّةَ العينِ التي يَطْمَئِنُّ القلبُ بالوصولِ إليها، ومحضَ لَذَّتِه وفَرَحِهِ وسُرورِهِ وبَهْجَتِهِ، إنما هو في الصلاةِ، التي هي صِلَةُ اللهِ، وحضورٌ بينَ يديهِ، ومناجاةٌ لَه، واقترابٌ منْهُ، فكيفَ لا تكونُ قُرَّةَ العينِ، وكيفَ تَقَرُّ عَينُ المُحِبِّ بسواها؟ ومن كانتْ قُرَّةُ عينِه في شَيءٍ؛ فإنَّه يَوَدُّ أنْ لا يفارقَهُ، ولا يخرجَ منْهُ؛ فإنَّ قُرَّةَ عينِ العبدِ نعيمُهُ وطيبُ حياتِهِ بهِ»[2].

وهي راحة بال المهمومين؛ قال الشاطِبِيُّ: «فالصلاةُ أصلُ مشروعِيَّتِها الخضوعُ للهِ -سبحانه- بإخلاصِ التَّوَجُّهِ إليهِ، والانتصابِ علىٰ قَدَمِ الذِّلَّةِ والصَّغَارِ بينَ يديهِ، وتذكيرِ النَّفْسِ بالذكرِ لهُ، قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾، والاستراحةِ إليها مِنْ أنكادِ الدنيا، وفي الخَبَرِ: «أرحنا بها يا بلال»[3].

• الصلاةُ مَفْزَعُ الملائكةِ والنبيينَ والصالحينَ عندَ الأمورِ العِظامِ

والصلاةُ مَفْزَعُ الملائكةِ والنبيينَ والصالحينَ عندَ الأمورِ العِظامِ، والحوادِثِ الجسامِ، وهي أَرْجَىٰ العباداتِ، وأنفعُ القُرُباتِ، وأَرْفَعُها في الدرجاتِ.

قال محمدُ بنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ: «فَأَخْبَرَ -تعالىٰ- عَنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ مَفْزَعَهُمْ كَانَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، يَعْبُدُونَ اللهَ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِهَا... وَهِيَ مَفْزَعُ كُلِّ مُنِيبٍ، وَمَا زَالَ مَفْزَعُ

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه: 19/ 305، وحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

(2) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية: 1/ 40.

(3) انظر: الموافقات، للشاطبي: 3/ 142.

الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ كُلِّ مُهِمٍّ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَىٰ مُنَاجَاةِ رَبِّهِمْ فِي الصَّلَاةِ حَتَّىٰ آدَمَ فَمَنْ دُونَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ... فَالصَّلَاةُ مَفْزَعُ كُلِّ مُرِيدٍ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَعِنْدَ حَوَادِثِ عَظِيمِ النِّعَمِ شُكْرًا للهِ، فَإِذَا لَمْ تُمْكِنِ الصَّلَاةُ فَالسُّجُودُ لَهُ عِنْدَ حَوَادِثِ النِّعَمِ، وَذَلِكَ لِمَا عَرَّفَهُمْ مِنْ عِظَمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ عِنْدَهُ، حَتَّىٰ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ إِذَا رُعِبُوا فَأَصَابَهُمْ هَوْلٌ اعْتَصَمُوا بِالسُّجُودِ»[1].

• الصلاةُ خِدْمَةُ العبدِ للمَعْبُودِ

والصلاةُ خِدْمةُ العِبادِ لِرَبِّهم، عن ثابت البُنَانيِّ، قال: «الصَّلَاةُ خِدْمَةُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ عَلِمَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الصَّلَاةِ مَا قَالَ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾[2]»[3].

وهي قرابينُ المُقَرَّبين، وهدايا المُحِبين، بها يَتَحَبَّبُون إلىٰ الإلهِ الرحيمِ، وبها يَتَقَرَّبونَ إلىٰ الملكِ العظيمِ بين يَدَيْ حوائِجِهِمْ في رغَبَاتِهِمْ ورَهَباتِهم.

روىٰ المَرْوَزِيُّ عن أبي هريرة ﷺ، قال: «الصَّلَاةُ قُرْبَانٌ، إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَاةِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَرَادَ مِنْ إِمَامٍ حَاجَةً فَأَهْدَىٰ لَهُ هَدِيَّةً»[4].

فالصلاةُ خير ما تَقَرَّبَ بِهِ العِبَادُ إلىٰ الله، عنْ أبي هريرةَ ﷺ، قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الصلاةُ خيرُ مَوْضوعٍ؛ فمنْ استطاعَ أنْ يَسْتَكْثِرْ فَلْيَسْتَكْثِرْ»[5]. ولا تكونُ كذلكَ إلا إذا

---

(1) انظر: تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِي: 1/ 113.

(2) آل عمران: 39.

(3) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِي: 1/ 99.

(4) تعظيم قدر الصلاة، للمَرْوَزِي: 1/ 185.

(5) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه أحمد: 1/ 84، وحَسَّنَهُ الألباني.

أدّتها المسلمةُ بتمامِها، وخُشُوعِها، ولا يتحقَّقُ تمامُ الصلاةِ خُشوعًا وكَمالًا، إلا لمنْ عَظُمَتِ الصلاةُ في قلبها، وجَلَّت في نفسها.

- **وفي صلاةِ الليلِ خيرُ فَضِيلةٍ**

ولتكثرِ المسلمةُ منْ صلاةِ النافلةِ بعَد المحافظةِ علىٰ المكتوبةِ، وخيرُ ما تَتَنَفَّلُ به صلاةُ الليلِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»[1].

وإذا أرادتِ المؤمنةُ أن تُسَجِّلَ اسمها في ديوانِ الصالحاتِ؛ فعليها بقيامِ الليلِ، تجعَلُهُ عادَتَها ودَأَبَها وَوِرْدَها منْ كلِّ ليلةٍ؛ فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلْإِثْمِ»[2].

وإذا أرادت شرفًا وعِزًّا من غير زوجٍ ولا وَلَدٍ ولا عَشِيرَةٍ فعليها بقيامِ الليلِ، فعن سَهْلِ بنِ سعدٍ -رضي الله عنهما-، قال: «جاء جبريلُ إلىٰ النبيِّ ﷺ فقالَ: يا محمدُ، عِشْ ما شِئْتَ؛ فإنكَ مَيِّتٌ، واعملْ ما شِئْتَ؛ فإنكَ مَجْزِيٌّ به، وأَحْبِبْ من شِئْتَ؛ فإنَّكَ مُفارقُه. واعلمْ أنَّ شَرَفَ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعِزُّهُ استغناؤُه عنِ الناسِ»[3].

ولْتَلْزَمِ المؤمنةُ قيامَ الليلِ ما حَيِيَتْ، بقَلْبٍ خاشعٍ، وفِكْرٍ مَجْمُوعٍ علىٰ اللهِ -تعالىٰ-، لا سيما في جَوْفِ الليلِ، ساعةَ التَّجَلِّي الإلهِيِّ؛ ساعةَ ينزلُ الجليلُ -سبحانه-، وينادِي

---

(1) رواه مسلم، باب: باب فضل صوم المحرم: 2/ 821.

(2) رواه الترمذي في سننه: 5/ 444، والنسائي في السنن الكبرىٰ، باب: الترغيب في قيام الليل: 2/ 707، وحَسَّنَهُ الألباني.

(3) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه عبد الله: 4/ 306، وحَسَّنَهُ الألباني.

علىٰ أوليائِهِ وأَحْبَابِه؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ اللهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي؛ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي؛ فَأُعْطِيَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي؛ فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يُضِيءَ الْفَجْرُ»[1].

وأهلُ الليلِ أحسنُ الناس وجوهًا وأنْضَرُهُمْ بهاءً، قال الحسنُ -رحمه اللهُ-: «ما نعلمُ عَمَلًا أشدَّ من مُكابَدَةِ الليلِ، ونَفَقَةِ هذا المالِ؛ فقيلَ لهُ: ما بالُ المُتَهَجِّدينَ مِنْ أَحْسنِ الناسِ وجوهًا؟ قالَ: لأَنَّهُمْ خَلَوْا بالرحمنِ؛ فَأَلْبَسَهُمْ نورًا من نُورِه»[2].

• أخبارُ أهلِ اللَّيْلِ

الحَسَنُ البَصْرِيُّ يَصِفُ أهلَ الليلِ

فيا لَهَا مِنْ ساعةٍ ما أَمْتَعَها وأَلَذَّها لِمَنْ ذاقتْ حَلَاوتَها؛ روىٰ المَرْوَزِيُّ في قيامِ الليلِ عنِ الحَسَنِ، قال في أهلِ الليلِ: «ليلُهم خيرُ ليلٍ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[3]، يَنْتَصِبُونَ للهِ علىٰ أقدامِهِمْ، ويَفْتَرِشُونَ وجوهَهُم، سُجَّدًا لربِّهِمْ، تَجْرِي دُمُوعُهمْ علىٰ خُدُودِهِمْ فَرَقًا منْ ربِّهِمْ. قال الحَسَنُ: لِأَمْرٍ ما سَهِرُوا ليلَهُم، ولِأَمْرٍ ما خَشَعُوا نهارَهم، قال: صَدَقَ القومُ -واللهِ الذي لا إلهَ إلا هو-؛ فَعَمِلُوا، وأنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ، فإياكُمْ وهذهِ الأمانيَ -رحمكم اللهُ- فإنَّ اللهَ لَمْ يُعْطِ عبدًا بِأُمْنِيَّتِه خيرًا في دنيا ولا آخرة، وكان يقولُ: يا لها من موعظةٍ لوْ وافَقَتْ مِنَ القلوبِ حياةً. قالَ: لقدْ صَحِبتُ أقوامًا يَبِيتُونَ لربِّهِمْ في سوادِ هذا

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: الدعاء في الصلاة من آخر الليل: 2/ 53، ومسلم، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه: 1/ 521.

(2) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: 1/ 355.

(3) الفرقان: 64.

الليلِ سُجَّدًا وقيامًا، يقومون هذا الليلَ علىٰ أطرافِهم، تَسِيلُ دُمُوعُهم علىٰ خُدودِهِمْ، فَمَرَّةً رُكَّعًا، ومرةً سُجَّدًا يُناجُون ربَّهُم في فَكَاكِ رِقابِهم، لم يَمَلُّوا طولَ السَّهَرِ لِمَا خالطَ قلوبَهم من حُسْنِ الرجاءِ في يومِ المَرْجِعِ، فأصبحَ القومُ بما أصابوا من النَّصَبِ للهِ في أبدانِهم فَرِحينَ، وبما يَأْمُلونَ من حُسْنِ ثوابِه مُسْتَبْشِرِينَ، فَرِحمَ اللهُ امرأً نافَسَهُمْ في مِثْلِ هذه الأعمالِ، ولمْ يرضَ لنفسِهِ مِنْ نفسِهِ بالتَّقْصيرِ في أَمْرِهِ، واليسيرِ منْ فِعْلِهِ، فإن الدنيا عنْ أهلِها مُنقَطِعةٌ، والأعمالُ علىٰ أهلِها مردودةٌ. ثم يَبْكِي حتَّىٰ تَبْتَلَّ لحيتُه بالدموعِ»[1].

عمرُ بنُ ذَرٍّ يَصِفُ أهلَ الليلِ

رُوِيَ عنْ عمرَ بنِ ذَرٍّ أنَّه قالَ: «لمَّا رأَىٰ العابِدونَ الليلَ قدْ هَجَمَ عليهم، ونظَرُوا إلَىٰ أهلِ الغفلةِ، قد سَكَنُوا إلىٰ فُرُشِهِمْ، ورَجَعُوا إلىٰ مَلَاذِّهم مِنَ النومِ، قامُوا إلىٰ اللهِ فَرِحِين مُسْتَبْشِرينَ بما قدْ وُهِبَ لهمْ من حُسْنِ عادةِ السَّهَرِ وطُولِ التَّهَجُّدِ، فاستَقْبَلُوا الليلَ بأبدانِهم، وباشَرُوا الأرضَ بِصِفَاحِ وجوهِهِمْ، فانْتَفَىٰ عنهمُ الليلُ، وما انْقَضَتْ لذَّتُهمْ من التلاوةِ، ولا مَلَّتْ أبدانُهم منْ طُولِ العِبادَةِ، فأصبحَ الفريقانِ ولَّىٰ عَنْهُمُ الليلُ بِرِبْحٍ وغُبْنٍ، أصبحَ هؤلاءِ قدْ مَلُّوا النومَ والراحةَ، وأصبحَ هؤلاءِ مُتَطَلِّعينَ إلىٰ مجيءِ الليلِ للعادةِ، شَتَّانَ ما بينَ الفريقينِ؛ فَأَعْمِلُوا أنفسَكُم -رحمكم اللهُ- في هذا الليلِ وسوادِه، فإنَّ المَغْبُونَ مَنْ غُبِنَ خيرَ النهارِ والليلِ، والمحرومَ مَنْ حُرِمَ خيرَهُمَا، إنما جُعِلا سبيلًا للمؤمنين إلىٰ طاعةِ ربِّهِمْ، وَوَبَالًا علىٰ الآخرينَ للغفلةِ عن أنفُسِهِمْ، فَأَحْيُوا أنفسَكُمْ بذكرِ اللهِ؛ فإنَّما تَحْيَا القلوبُ بذكرِ اللهِ. كمْ مِنْ قائمٍ للهِ في هذا الليلِ قدِ اغْتبطَ بقيامِهِ في ظُلْمَةِ حُفْرَتِهِ؟!

---

(1) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، للمَرْوَزِي، اختصار أحمد بن علي المقريزي: 1/ 42.

وكمْ مِنْ نائمٍ في هذا الليلِ قد نَدِم علىٰ طولِ نَوْمِه، عندما يَرَىٰ مِنْ كرامةِ اللهِ للعابدينَ غَدًا؟! فاغْتَنِمُوا مَمَرَّ الساعاتِ والليالِي والأيامِ؛ رحمكم الله»[1].

• الغزالي يَذْكُرُ الأَخْبَارَ

ولقد ذَكَرَ الغزاليُّ في الإحياءِ طَرَفًا من أخبارِ العُبَّادِ وأَحْوَالِهِمْ معَ الليلِ، فقالَ -رحمه الله-:

«وكان ابنُ مسعودٍ ﷺ إذا هدأتِ العيونُ؛ قامَ فَيُسْمَعُ لهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ حتَّىٰ يُصْبِحُ.

ويُقالُ: إنَّ سفيانَ الثَّوْرِيَّ -رحمه الله- شَبِعَ ليلةً، فقالَ: إنَّ الحمارَ إذا زِيدَ في عَلَفِهِ؛ زِيدَ في عَمَلِهِ؛ فقامَ تِلْكَ الليلةَ حتَّىٰ أَصْبَحَ.

وكانَ طاووسٌ -رحمه الله- إذا اضْطَجَعَ علىٰ فِرَاشِهِ يَتَقَلَّىٰ عَلَيْهِ، كَمَا تَتَقَلَّىٰ الحَبَّةُ علىٰ الْمِقْلَاةِ، ثمَّ يَثِبُ، ويُصَلِّي إلىٰ الصَّباحِ، ثمَّ يقولُ: طَيَّرَ ذِكْرُ جهنمَ نومَ العابدينَ.

وكانَ عبدُ العزيزِ بنُ رَوادٍ إذا جَنَّ[2] عليه الليلُ يأتي فِراشَهُ، فيمدُّ يدَه عليهِ، ويقولُ: إنَّكَ لَلَيِّنٌ، وَوَاللهِ إنَّ في الجنةِ لَأَلْيَنَ مِنْكَ، ولا يزالُ يُصَلِّي الليلَ كُلَّهُ.

وقالَ الفُضَيْلُ: إنِّي لَأَسْتَقْبِلُ الليلَ مِنْ أَوَّلِهِ؛ فَيَهُولُنِي طُولُه، فَأَفْتَتِحُ القرآنَ، فَأُصْبِحُ، وما قَضَيْتُ نَهْمَتِي.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ الرجلَ لَيُذْنِبُ الذنبَ؛ فَيُحْرَمُ به قيامَ الليلِ.

---

(1) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، للمَرْوَزِي، اختصار أحمد بن علي المقريزي: 1/ 42.

(2) جَنَّ اللَّيْلُ: بِمَعْنَىٰ أَظْلَمَ، انظر: تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، سورة الأنعام: 7/ 318.

وقالَ الفُضَيلُ: إذا لم تَقْدِرْ عَلَىٰ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ؛ فاعلمْ أَنَّكَ محرومٌ، وقدْ كَثُرَتْ خَطِيئَتُكَ.

وكانَ صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ -رحمه الله- يُصَلِّي الليلَ كُلَّهُ فإذا كانَ في السَّحرِ قالَ: إِلَهِي لَيْسَ مِثْلِي يطلبُ الجنَّةَ، ولكنْ أَجِرْنِي بِرَحْمَتِكَ منَ النارِ.

وكانَ لِلْحَسَنِ بنِ صالحٍ جاريةٌ، فَبَاعَها مِنْ قَوْمٍ، فَلَمَّا كانَ في جَوْفِ الليلِ، قامتِ الجاريةُ، فقالتْ: يا أهلَ الدارِ، الصلاةَ الصلاةَ؛ فقالوا: أَصْبَحْنَا، أَطَلَعَ الفَجْرُ؟ فقالتْ: وَمَا تُصَلُّونَ إلا المكتوبةَ، قَالُوا: نَعَم؛ فَرَجَعَتْ إلىٰ الحَسَنِ، فقالتْ: يا مَوْلايَ، بِعْتَنِي مِنْ قَوْمٍ لا يُصَلُّونَ إلا المكتوبةَ؛ رُدَّنِي؛ فَرَدَّهَا.

وقالَ الرَّبِيعُ: بِتُّ في منزلِ الشافعيِّ ﷺ ليالِيَ كثيرةً، فلمْ يَكُنْ ينامُ منَ الليلِ إلا يَسِيرًا.

وقالَ أبو الجُوَيْرِيَةِ: لقدْ صَحِبْتُ أبا حَنِيفَةَ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فما فيها ليلةٌ وَضَعَ جَنْبَهُ علىٰ الأرضِ.

وكانَ أبو حنيفةَ يُحْيِي نِصْفَ الليلِ، فَمَرَّ بِقَوْمٍ، فقالوا إنَّ هذا يُحْيِي الليلَ كُلَّهُ؛ فقالَ: إِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أُوصَفَ بما لَا أَفْعَلُ؛ فكانَ بعدَ ذلكَ يُحْيِيْ الليلَ كُلَّهُ، ويُرْوَىٰ أَنَّهُ ما كانَ لهُ فِراشٌ بالليلِ.

ويُقَالُ إنَّ مالكَ بنَ دينارٍ ﷺ باتَ يُرَدِّدُ هذهِ الآيةَ ليلةً حتَّىٰ أَصْبَحَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (1).

(1) الجاثية: 21.

وقال المغيرةُ بنُ حَبِيبٍ: رَمَقْتُ مالكَ بنَ دينارٍ، فتوضأَ بعدَ العشاءِ، ثمَّ قامَ إلىٰ مُصَلَّاهُ، فَقَبَضَ علىٰ لِحْيَتِهِ، فَخَنَقَتْهُ العَبْرَةُ، فَجَعَلَ يقولُ: حَرِّمْ شَيْبَةَ مالكٍ علَى النارِ، إلَهِي، قَدْ عَلِمْتَ ساكنَ الجنةِ مِنْ ساكنِ النارِ؛ فَأَيُّ الرَّجُلينِ مالكٌ؟ وَأَيُّ الدارينِ دارُ مالكٍ؟ فَلَمْ يَزَلْ ذلكَ قَوْلُهُ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الفَجْرِ. وقيلَ حَجَّ مَسْرُوقٌ، فَمَا باتَ ليلةً إلا ساجدًا»[1].

من أخبارِ أُهَيْلاتِ الليلِ منَ العابداتِ

كما ذكرَ ابنُ الجوزيِّ في صِفَةِ الصفوةِ عنْ روائعِ النساءِ القائماتِ القانتاتِ للهِ – تعالىٰ– بالليلِ ما كُنَّ أُسْوةً وعِبرةً، مِنْهُنَّ:

مُعاذَةُ العَدَوِيَّةُ

«عن محمدِ بنِ فُضَيلٍ، قال: حَدَّثَنا أَبِي قالَ: كانتْ معاذةُ العَدَوِيَّةُ إذا جاءَ النهارُ قالتْ: هذا يومِي الذِي أموتُ فيه، فما تنامُ حتَّىٰ تُمْسِي، وإذا جاءَ الليلُ قالتْ: هذه ليلَتِي التِي أموتُ فيها، فلا تنامُ حتىٰ تُصْبحَ، وإذا جاءَ البردُ لَبِسَتِ الثيابَ الرِّقاقَ حتَّىٰ يَمْنَعَها البردُ مِنَ النومِ. قال الحَكَمُ بنُ سَنان الباهِلِيِّ: حَدَّثَتْنِي امرأةٌ كانتْ تَخْدِمُ معاذةَ العدويةَ قالتْ: كانتْ تُحْيِي الليلَ صلاةً، فإذا غَلَبها النومُ؛ قامتْ فَجَالتْ في الدارِ وهي تقولُ: يا

(1) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: 1/ 355.

نفسُ، النومُ أَمَامَكِ... وكانتْ تقولُ: عَجِبْتُ لِعَينٍ تنامُ، وقدْ عَرَفَتْ طولَ الرُّقادِ في ظُلَمِ القبورِ»[1].

رابعةُ العَدَوِيَّةُ

«عنْ عبيس بنِ مَرْحومٍ العطَّارِ، قالَ: حَدَّثَتْنِي عَبْدَةُ بنتُ أَبِي شوالٍ، وكانتْ مِنْ خيارِ إِماءِ اللهِ، وكانتْ تخدمُ رابعةَ، قالتْ: كانتْ رابعةُ تُصَلِّي الليلَ كُلَّه، فإذا طَلَعَ الفجرُ؛ هَجَعَتْ في مُصَلَّاها هَجْعةً خَفِيفَةً، حتَّىٰ يُسْفِرَ الفجرُ، فكنتُ أَسْمَعُها تقولُ إذا وَثَبَتْ مِنْ مَرْقَدِها ذلك، وهيَ فَزِعةٌ: يا نفسُ كمْ تنامينَ، وإلىٰ كَمْ تَقُومِينَ؟ يوشكُ أنْ تنامِي نومةً، لا تَقُومينَ منها إلا لِصَرْخَةِ يومِ النشورِ، قالتْ: فكانَ هذا دَأْبُها دَهْرَهَا حتَّىٰ ماتتْ، فلَّما حضَرَتْها الوفاةُ، دَعَتْنِي، فقالتْ: يا عَبْدةُ، لا تُؤْذِنِي بموتِي أحدًا، وكَفِّنِينِي في جُبَّتِي هذهِ، جُبَّةٍ مِنْ شَعْرٍ، كانتْ تقومُ فيها إذا هَدَأَتِ العيونُ، قالتْ: فَكَفَّنَّاها في تلكَ الجُبَّة، وخمارِ صوفٍ كانتْ تَلْبَسُهُ»[2].

بردةُ الصريميةُ

«عنْ عطاءِ بنِ المباركِ، قالَ: كانتْ بالبَصْرةِ امرأةٌ جليلةٌ مُتَعَبِّدةٌ، يُقَالُ لها: بردةُ، وكانتْ تقومُ الليلَ، فإذا سَكَنَتِ الحركاتُ، وهَدَأَتِ العيونُ؛ نادتْ بِصَوْتٍ لها حزينٍ: هدأتِ العيونُ، وغَارتِ النجومُ، وخَلَا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ، وقدْ خلوتُ بِكَ يا مَحْبُوبِي، أَفَتُرَاكَ تُعَذِّبُنِي، وحُبُّكَ فِي قَلْبِي؟! لا تَفْعَلْ يا حَبِيبَاهُ!!!»[3].

---

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 240.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 245.

(3) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 249.

❊ فإذا كنتِ تَرْغَبينَ بالخلوةِ بالرحيمِ الرحمنِ، ومناجاةِ الملكِ الديانِ؛ ومحبة الكريمِ المنَّانِ؛ فعليكِ بقيامِ الليلِ، أَعِدِّي له عُدَّتَه: منْ نَومِ القائلةِ في النهارِ، والنَّوْمِ مبكرًا من الليلِ، وعَدَمِ إتعابِ البدنِ في أعمالِ الدنيا بالنهارِ، ثم الاستيقاظ في جوفِ الليلِ، ساعةَ رَقْدةِ النساءِ مع أزواجِهِنَّ؛ فيا لها من ساعةٍ ما أَجَلَّها لو عَلِمَتْ نساءُ العالمينَ شرفَها وبَرَكَتَها!

السادس: الصَّدَقَةُ والإنفاقُ في وجوهِ الخير

• عَظِيمُ شَأنِ الصَّدَقَةِ

شأنُ الصَدَقةِ عظيمٌ، وفَضْلُها كَبيرٌ، فهيَ مقرونةٌ بالصلاةِ في كتابِ اللهِ، فما مِنْ أمرٍ بالصلاةِ إلا ويتلوهُ الأمرُ بالصَّدَقَةِ والإنفاقِ، فَبالصلاةِ تَحْسُنُ علاقةُ العبدِ بربِّهِ، وبالصَّدَقَةِ تَحْسُنُ علاقةُ الإنسانِ بأخيهِ الإنسانِ، ولا أَحَبَّ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- مِنْ أنْ يُحْسِنَ العَبْدُ لأخِيه العبدِ، ويُدْخِلَ عَلَيْهِ فَرَحًا، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ ﷻ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَىٰ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ -يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ- شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللهُ ﷻ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَىٰ مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّىٰ أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللهُ ﷻ قَدَمَهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ»[1].

• الصَّدَقَةُ حِصْنٌ مَنِيعٌ

والصَّدَقَةُ حِصْنٌ وأَمَنَةٌ لصاحِبَتِها في الدنيا والآخرةِ، قال ابنُ القيِّم: «في الحديث الصحيح: «وآمُرُكُم بالصَّدقة؛ فإنَّ مثلَ ذلكَ مثلُ رجلٍ أَسَرَهُ العدوُّ فأوثقوا يده»[2]، هذا

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه أحمد: 6/ 139، والحافظ ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، باب: في قضاء الحوائج: 1/ 47، وحَسَّنَهُ الألباني.

(2) رواه أحمد في مسنده، مسند الحارث الأشعري: 29/ 336، وصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

مِنَ الكلامِ الذِي برهانُه، وجودُه ودليلُه ووقُوعُه؛ فإنَّ للصدقةِ تأثيرًا عجيبًا في دفْعِ أنواعِ البلاءِ، ولو كانتْ من فاجرٍ أو من ظالمٍ، بل من كافرٍ، فإنَّ اللهَ -تعالىٰ- يدفعُ بها عنه أنواعًا من البلاءِ، وهذا أمرٌ معلومٌ عند الناسِ خاصَّتِهم وعامَّتِهم، وأهلُ الأرضِ كلُّهُم مُقِرُّون به لأنهم جَرَّبوه، وفي بعضِ الآثارِ: باكِروا بالصدقةِ فإنَّ البلاءَ لا يتخطَّىٰ الصدقَةَ، وفي تمثيلِ النبيِّ ﷺ ذلكَ بمن قُدِّمَ لِيُضْرَب عُنقُه، فافْتَدَىٰ نفسَه منهم بمالِه كِفَاية، فإنَّ الصدقةَ تفدِي العبدَ من عذابِ اللهِ -تعالىٰ-، فإنَّ ذُنُوبَه وخطاياهُ تَقْتَضِي هلاكَه، فتجِيءُ الصدقةُ تَفْدِيهِ من العذابِ، وتَفُكُّه منه؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديثِ الصحيحِ، لمَّا خطبَ النساءَ يومَ العيدِ: «يا معاشرَ النساءِ تَصَدَّقْنَ، ولو مِنْ حُلِيكُنَّ؛ فإني رأيتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النارِ»[1]، وكأنه حَثَّهُنَّ، ورَغَّبَهُنَّ علىٰ ما يفدينَ به أنفُسَهُنَّ من النارِ، وفي الصحيحين: عن عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما منكُمْ منْ أَحَدٍ إلا سيكلِّمُه ربُّهُ، ليسَ بينَه وبينَه تَرْجُمان، فينظرَ أَيْمَنَ مِنْهُ، فلا يرَىٰ إلا ما قَدَّمَ، وينظرَ أَشْأَمَ منهُ، فلا يَرَىٰ إلا ما قَدَّمَ، وينظرَ بينَ يديهِ، فلا يَرَىٰ إلا النارَ تِلْقاءَ وَجْهِهِ؛ فاتقوا النارَ ولو بِشِقِّ تمرةٍ»[2]...، وقد قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3]، وكان عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ يطوفُ بالبيتِ، وليسَ لهُ دَأْبٌ إلا هذه الدعوةَ: ربِّ قِنِي شُحَّ نفسِي، ربِّ قِنِي شُحَّ نفسِي، فقيلَ لهُ: أَمَا تَدْعو بغيرِ

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: العرض في الزكاة: 2/ 116، ومسلم، باب: فضل النفقة والصدقة علىٰ الأقربين والزوج والأولاد، والوالدين ولو كانوا مشركين: 2/ 649.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة: 2/ 108، ومسلم، باب: الحث علىٰ الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار: 2/ 703.

(3) الحشر: 9.

هذهِ الدعوةِ؛ فقالَ: إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسِي؛ فقدْ أَفْلَحْتُ. والسَّخِيُّ قريبٌ منَ اللهِ -تعالىٰ-، ومنْ خَلْقِه، ومِنْ أهلِه، وقريبٌ منَ الجنةِ، وبعيدٌ من النارِ؛ والبخيلُ بعيدٌ من خَلْقِهِ، بعيدٌ من الجنةِ، قريبٌ من النارِ، فَجُودُ الرجلِ يُحَبِّبُه إلىٰ أضدادِه، وبُخْلُه يُبَغِّضُهُ إلىٰ أولادِه:

ويُظْهِرُ عيبَ المرءِ في الناسِ بُخْلُهُ *** ويَسْتُرُهُ عنهمْ جميعًا سَخَاؤُهُ

تَغَطَّ بأثوابِ السَّخاءِ فإنَّني *** أَرَىٰ كلَّ عَيْبٍ فالسَّخَاءُ غِطَاؤُه»[1].

مِنْ أخبارِ المُتَصَدِّقاتِ

الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ، عائشةُ رضي الله عنها

«عنْ أُمِّ ذَرَّةٍ، وكانَتْ تَغْشَىٰ عائِشَةَ، قالتْ: بَعَثَ إليها ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَالٍ، قالت: أُرَاهُ ثمانينَ ومائةَ أَلْفٍ، فَدَعَتْ بِطَبَقٍ، وهي يومئذٍ صائمةٌ، فَجَلَسَتْ تُقَسِّمُهُ بينَ الناسِ، فَأَمْسَتْ وَمَا عِنْدَهَا مِنْ ذلكَ دِرْهَمٌ. فَلَمَّا أَمْسَتْ قَالَتْ: يا جَارِيَةُ، هَلُمِّي فِطْرِي. فجاءتها بِخُبْزٍ وزَيْتٍ، فقالتْ لها أُمُّ ذَرَّةٍ: أَمَا اسْتَطَعْتِ مِمَّا قَسَمْتِ اليومَ أنْ تَشْتَرِي لنا بِدِرْهَمٍ لحمًا نُفْطِر عليهِ؟ فَقَالَتْ لَهَا: لا تُعَنِّفِينِي، لَوْ كُنْتِ ذَكَّرْتِنِي لَفَعَلْتُ.

وعَنْ عُرْوَةَ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ عائشةَ تُقَسِّمُ سَبْعِينَ أَلْفًا، وَهِيَ تُرَقِّعُ دِرْعَهَا»[2].

زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عنها

«عنْ بَرزَةَ بِنْتِ رافِعٍ، قالتْ: لَمَّا جاءَ العَطَاءُ، بَعَثَ عُمَرُ ﷺ إِلَىٰ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بالذِي لَهَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا؛ قالتْ: غَفَرَ اللهُ لِعُمَرَ، لِغَيْرِي مِنْ أَخَوَاتِي كانَ أَقْوَىٰ علىٰ قَسْمِ

---

(1) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية: 1/ 31.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 318.

هذا مِنِّي. قَالُوا هذا كُلُّهُ لَكِ. قَالَتْ: سُبْحانَ اللهِ. صُبُّوهُ، واطْرَحُوا عليهِ ثَوْبًا. فَصَبُّوه وطَرَحُوا عَلَيْهِ ثَوْبًا. فَقَالَتْ لِيْ: أَدْخِلِي يَدَكِ، فَاقْبِضِي مِنْهُ قَبْضَةً؛ فَاذْهَبِي إلىٰ آلِ فُلانٍ، وآلِ فُلانٍ مِنْ أَيْتَامِها وَذَوِي رَحِمِهَا؛ فَقَسَمَتْهُ؛ فَقَالَتْ لها بَرزَةُ: غَفَرَ اللهُ لَكِ، واللهِ لَقَد كَانَ لَنَا فِي هذا حَظٌّ. قَالَتْ: فَلَكُمْ ما تَحْتَ الثوبِ. قالتْ: فَرَفَعْنَا الثوبَ، فَوَجَدْنَا خَمْسةً وثمانينَ دِرْهَمًا. ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَيْهَا إِلَىٰ الأَعْلَىٰ، فَقَالَتْ: اللهمَّ لا يُدْرِكنِي عَطَاءٌ لِعُمَرَ بَعْدَ عامِي هذا. قال: فَمَاتَتْ.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: «أَوَّلُكُنَّ يتبعني أَطْوَلُكُنَّ يَدًا»[1]. قَالَتْ عائشةُ: «فَكُنَّا إذا اجْتَمَعْنا بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ نَمُدُّ أَيْدِينَا فِي الحائِطِ نَتَطَاوَلُ، فَلَمْ نَزَلْ نَفْعَلُ ذلكَ حَتَّىٰ تُوُفِّيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، وكانَتِ امْرَأَةً قَصِيرَةً، ولَمْ تَكُنْ أَطْوَلَنَا يدًا. فَعَرَفْتُ أنَّ النبيَّ ﷺ أرادَ بِطُولِ اليَدِ الصَّدَقَةَ. وكانتِ امرأةً صَنَّاعًا، وكانتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا، وتَتَصَدَّقُ بِهِ فِي سبيلِ اللهِ ﷻ»[2].

زَوْجَةُ جُلَيْبِيبٍ مَثَلٌ حَسَنٌ لإنفاقِ الأيامَى

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، أَنَّ جُلَيْبِيبًا كَانَ امرأً مِنَ الْأَنْصَارِ، كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ النِّسَاءِ، وَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِنَّ، قَالَ أَبُو بَرْزَةَ: فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ جُلَيْبِيبٌ، وَكَانَ أصحاب النَّبِيِّ ﷺ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَيِّمٌ لَمْ يُزَوِّجْهَا حَتَّىٰ يَعْلَمَ، هَلْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهَا حَاجَةٌ أَمْ لَا؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: «يَا فُلَانُ زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ»، قَالَ: نَعَمْ ونُعْمَىٰ عَيْنٍ، قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ لِنَفْسِي أُرِيدُهَا»، قَالَ: فلِمَنْ؟ قَالَ: «لِجُلَيْبِيبٍ»، قَالَ: يَا

---

(1) رواه مسلم، باب: من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها: 4/ 1907.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 326.

رَسُولَ اللهِ، حَتَّىٰ أَسْتَأْمِرَ أُمَّهَا؛ فَأَتَاهَا، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكِ، قَالَتْ: نَعَمْ، وَنُعْمَىٰ عَيْنٍ، زَوِّجْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يُرِيدُهَا، قَالَتْ: فَلِمَنْ؟ قَالَ: لِجُلَيْبِيبٍ، قَالَتْ: حَلْقِي، أَلِجُلَيْبِيب؟ قالت: لا لَعَمْرُ اللهِ، لَا أُزَوِّجُ جُلَيْبِيبًا، فَلَمَّا قَامَ أَبُوهَا لِيَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَتِ الْفَتَاةِ مِنْ خِدْرِهَا: لأمها: مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمَا؟ قَالَا: رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: أَفَتَرُدُّونَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ؟ ادْفَعُونِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يُضَيِّعَنِي، فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: شَأْنَكَ بِهَا، فَزَوَّجَهَا جُلَيْبِيبًا، قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، لِثَابِتٍ: هَلْ تَدْرِي مَا دَعَا لَهَا به؟ قَالَ: وَمَا دَعَا لَهَا بِهِ؟ قَالَ: «اللهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا كَدًّا»، قَالَ ثَابِتٌ: فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي غزاة، قال: (تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟) قالوا: لا، قال: (لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا، فَاطْلُبُوهُ فِي الْقَتْلَىٰ)، فَوَجَدُوهُ إِلَىٰ جَنْبِ سَبْعَةٍ، قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَتَلَ سَبْعَةً، ثُمَّ قَتَلُوهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ»، يَقُولُهَا سَبْعًا، فَوَضَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ سَاعِدِهِ، مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ وَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ قَالَ ثَابِتٌ: «فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا»[1].

* فانظري إلىٰ هذهِ المرأةِ الصالحةِ، كيفَ قدَّمتْ أَمْرَ رسولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ أَمْرِ أَبَوَيْهَا، وعَلَىٰ حَظِّ نَفْسِها؛ إذْ إنَّ البَنَاتِ يَطْمَعْنَ فِي زَوْجٍ ذِي مَنْزِلَةٍ وشَرَفٍ وجَمَالٍ، ويَتَبَاهَيْنَ بِأَزْواجِهِنَّ عِنْدَ صُوَيْحِبَاتِهِنَّ، أمَّا هذِهِ المرأةُ الصالحةُ، فقد آثرت رسول الله ﷺ علىٰ حَظِّ نَفْسِها وَرَغْبَةِ أَبَوَيْها، تَنَازَلَتْ عَنْ هذا كُلِّه، ولم تَلْتَفِتْ إلىٰ كلامِ النساءِ بشأنِ زوجِها، ما

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي برزة الأسلمي: 33/ 29، وابن حبان في صحيحه، باب: ذِكْرُ مَا يُسْتَحَبُّ لِلْمَرْءِ عِنْدَ التَّزْوِيجِ: 9/ 342، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم».

دامَ هذا يُرْضِي رسولَ اللهِ ﷺ. ثُمَّ انظرِي إلىٰ قولِ راوي الحديثِ، ثَابِتٍ: «فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا» تَعْلَمِي أنَّ إنْفاقَ الأيامَىٰ هو فِعْلُ الصالحاتِ مِنْ صحابياتِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهُوَ مِنْ أَفْضَلِ ما تَعَبَّدَ بِهِ العُبَّادُ في كلِّ زَمَانٍ.

مُقْتَرَحُ الصَّدَقَةِ

فيحسنُ بالأيِّمِ إذا لمْ يكنْ لها مَنْ تنفقُ عليهم أموالَها من زوج وأبناء، أن تَدَّخِرَ مالَها لَصَدَقَةٍ جاريةٍ؛ تنتفِعُ بها بعدَ مَوْتها، ولَئِنْ كانتْ عاملةً، ولها دخلٌ شهريٌّ، فتعملُ بِنِيَّةِ الصَّدَقَةِ، ولَها أنْ تكفلَ أسرةً فقيرةً معدومةً، تَتَوَلَّىٰ طعامَهُمْ وشرابَهُمْ، أو تكفلَ يتيمًا تَبْلُغُ به رفقةَ النبي ﷺ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىٰ»[1]. أو تُجَهِّزَ غازيًا في سبيل الله، وتنفقَ علىٰ المجاهدين، فعن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»[2]. أو تكفل طالبًا أو طالبةً من طَلَبَةِ العلمِ الصالحين الذين يُرْجىٰ أن يُنْتَفعَ بعلمهم. وفي قضاءِ ديونِ الغارمينَ، وتحريرِ المَحْبوسينَ بِدُيونِهم، فإن كثيرًا من المسلمين يُحْبسون بديونٍ قليلةٍ، فيُرْجَىٰ لمنْ حَرَّرَهم، وأَطْلَقَهم من مَحْبَسِهِمْ أن يُحَرِّرَها الله ويُعْتِقها من النارِ، وفي أبوابِ الخير سعةٌ لكلِّ مُبْتَغِيةِ الخيرَ.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: فضل من يعول يتيمًا: 8/ 9.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير: 4/ 27.

السابع: صيامُ النهارِ وظَمَأُ الهواجرِ

وفي بَدَنِ الأيِّمِ قوةٌ وجَلَدٌ على الصيامِ؛ إذْ ليستْ تشتَغِلُ بالأولادِ، فَيُتْعِبُها خدمتُهم والقيامُ عليهمْ، وليسَ لها زوجٌ تَسْتأْذِنُهُ في صومِها، وتتركُ الصيامَ لأجلِه، فالصيام من أَجَلِّ القُرُبَاتِ؛ إذ فيه ما لا في غيره من المعاني، قال ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين: «اعلم أنَّ في الصَّوْمِ خصيصةٌ ليستْ في غيرِه، وهيَ إضافَتُهُ إلىٰ اللهِ ﷻ حيث روىٰ البخاري في صحيحه عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ؛ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...»[1]. وكَفَىٰ بهذِه الإضافةِ شَرَفًا، وكَفَىٰ بالصيامِ برَكَةً ما بَشَّرَ به النبيُّ ﷺ من فَضْلِهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ، بَاعَدَ اللهُ وَجْهَهُ مِنْ جَهَنَّمَ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَامًا»[2].

- **ابنُ رَجَبٍ يَذْكُرُ أَخْبَارَ الصُّوَّامِ**

ذكر ابنُ رَجَبٍ في لطائِفِ المعارفِ أَخْبارًا عنْ صيامِ الصالحينَ فقال -رحمه الله-: «اجتازَ بعضُ الصالحينَ بمنادٍ ينادِي علىٰ السَّحورِ في رمضانَ: يَامَا خَبَّأْنا للصُّوَّامِ؛ فَتَنَبَّهَ بهذِهِ الكَلِمَةِ وأكثرَ من الصيامِ.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: هل يقول إني صائم إذا شتم: 3/ 29، ومسلم، باب: فضل الصيام: 2/ 807.

(2) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي سعيد الخدري: 18/ 5، ومسلم، باب: فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، بلا ضرر ولا تفويت حق: 2/ 808.

ورأىٰ بعضُ العارفينَ في منامِه كأنَّهُ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، فَسَمِعَ قائِلًا يقولُ له: هلْ تَذْكُرُ أنَّكَ صُمْتَ للهِ يومًا قَطُّ، فقالَ: نَعَم، قال: فَأَخَذَتْنِي صوانِئ النَّثَار[1] مِنَ الجَنَّةِ، مَنْ تَرَكَ للهِ في الدنيا طعامًا وشرابًا وشهوةً مُدَّةً يسيرةً، عَوَّضَهُ اللهُ عندهُ طعامًا وشرابًا لا ينفدُ، وأزواجًا لا يَمُتْنَ أبدًا.

وصامَ بعضُ التابعينَ حتَّىٰ اسْوَدَّ مِنْ طولِ صيامِه.

وصامَ الأسودُ بنُ يزيدَ حتَّىٰ اخْضَرَّ جِسْمُهُ واصْفَرَّ، فكان إذا عُوتِبَ في رِفْقِهِ بِجَسَدِهِ، يقولُ: كَرامةَ هذا الجسدِ أريدُ.

وصامَ بعضُهم حتَّىٰ وجدَ طَعْمَ دِماغِه في حَلْقِهِ.

وكان بعضُهم يسرُدُ الصومَ، فَمرِضَ وهو صائمٌ، فقالوا له: أَفْطِرْ، فقال: ليسَ هذا وقتُ تَرْكٍ.

وقيلَ لآخرَ منهم، وهو مريضٌ: أَفْطِرْ، فقالَ: كيفَ، وأنا أسيرُ لا أَدْرِي ما يُفْعَلُ بي؟

وماتَ عامرُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ وهو صائمٌ، ما أفطرَ.

ودخلوا علىٰ أبي بكرِ بنِ أبِي مريمَ، وهو فِي النَّزْعِ وهو صائمٌ، فَعَرضُوا عليه ماءً؛ ليُفْطِرَ؛ فقال: أغربتِ الشمسُ؟ قالوا: لا، فَأَبَىٰ أنْ يُفْطِرَ، ثمَّ أَتَوْهُ بماءٍ، وقدِ اشتدَّ نَزْعُهُ؛ فأومَأَ إليهم: أغربتِ الشمسُ؟ قالوا: نعم، فَقَطروا في فِيهِ قطرةً منْ ماءٍ، ثم ماتَ.

---

(1) الصواني: الأواني منسوبة إلىٰ الصين، والنثار: ما تناثر من المائدة، والمعني دالٌّ علىٰ كثرة الطعام وتناثره مما تشتهيه الأنفس، والله أعلم، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 13/ 251.

واحتُضِرَ إبراهيمُ بنُ هانِئٍ صاحبُ الإمامِ أحمدَ، وهو صائمٌ، وسألَ: أغربتِ الشمسُ؟ فقالوا: لا، وقالوا له: قدْ رُخِّصَ لكَ في الفَرْضِ، وأنتَ مُتَطَوِّعٌ، قال: أمهلْ، ثمَّ قالَ: لمثلِ هذا فليعملِ العاملونَ، ثم خَرَجَتْ نفسُه، وما أفطرَ»[1].

من أخبارِ الصائماتِ

ولقدْ كانتِ الصالحاتُ يُبْلِينَ أجسادَهُنَّ في الصيامِ، ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة نماذج منهن:

زَجْلةُ العابدةُ مولاةُ مُعَاوِيَةَ

«عن أحمدِ بنِ سَهْلٍ الأَزْدِيِّ، قالَ: دَخَل علىٰ زَجْلةَ العابدةَ نَفَرٌ مِنَ القُّراء، فكلموها في الرِّفْق بِنَفْسها؛ فقالتْ: مالِي وللرفْقِ بها، فإنَّمَا هيَ أيامٌ مبادرةٌ، فَمَنْ فاتَه اليومَ شيءٌ لم يدركْهُ غدًا، واللهِ يا إخوتاه لأُصَلِّيَن ما أَقَلَّتْنِي جَوَارِحِي، ولَأَصُومَنَّ له أيامَ حياتِي، ولأَبْكِيَنَّ لهُ ما حَمَلَتِ الماءَ عَيْنايَ، ثم قالتْ: أيُّكُمْ يَأْمُرُ عبدَهُ بأمرٍ فيحبُّ أنْ يُقَصِّرَ فيهِ؟»[2].

مولاةٌ لإبراهيمَ النَّخَعِي

«عن أَبِي الأَحْوصِ عنِ مُغِيرَةَ، قالَ: كانتْ مولاةٌ لإبراهيمَ النَّخَعِيِّ تَعْمَدُ إلىٰ اليومِ الشديدِ الحرِّ فتصومُه، فقيلَ لها: إنكِ تَعْمَدِينَ إلىٰ أشدِّ الايَّامِ حَرًّا فتصومينَه؟ فقالتْ إنَّ السِّعْرَ إذا رَخُصَ اشتراهُ كلُّ أَحَدٍ»[3].

---

(1) انظر: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، لابن رجب الحنبلي: 159.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 252.

(3) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 256.

الصومُ دواءُ منْ لمْ تَتَزَوَّجْ

ولقد وَصَفَ النبيُّ ﷺ الصيامَ دواءً لمن لم يتزوج من الشباب، فعن عَبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَابًا لَا نَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ، فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[1].

قال النووي: «والْمُرَادَ بالباءة مَعْنَاهَا اللُّغَوِيُّ وَهُوَ الْجِمَاعُ، وقيل المراد بالباءةِ مُؤَنُ النِّكَاحِ، سُمِّيَتْ بِاسْمِ مَا يُلَازِمُهَا، وقِيلَ لِعَقْدِ النِّكَاحِ بَاءَةٌ؛ لِأَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بَوَّأَهَا مَنْزِلًا. وَأَمَّا الْوِجَاءُ فهُوَ رَضُّ الْخُصْيَتَيْنِ. وَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّ الصَّوْمَ يَقْطَعُ الشَّهْوَةَ وَيَقْطَعُ شَرَّ الْمَنِيِّ كَمَا يَفْعَلُهُ الْوِجَاءُ، فمَنِ اسْتَطَاعَ الْجِمَاعَ لِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مُؤَنِهِ، وَهِيَ مُؤَنُ النِّكَاحِ فَلْيَتَزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْجِمَاعَ لِعَجْزِهِ عَنْ مُؤَنِهِ؛ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ لِيَدْفَعَ شَهْوَتَهُ وَيَقْطَعَ شَرَّ مَنِيِّهِ كَمَا يَقْطَعُهُ الْوِجَاءُ»[2].

* وإنْ كانَ المخاطَبُ في هذا الحديثِ الرجالَ، فإنَّ النساءَ داخلاتٌ فيهِ دخولًا ضمنيًا؛ فإنهنَّ يُخْشَىٰ عليهنَّ منْ عَدَمِ الزواجِ كَمَا يُخْشَىٰ علىٰ الرجالِ، ولهُنَّ شَهْوةُ نِكَاحٍ، كما للرجالِ شَهْوَةُ نكاحٍ، واللهُ -تعالىٰ- أَمَرَ النساءَ بِغَضِّ البَصَرِ وحِفْظِ الفَرْجِ، كما أَمَرَ الرجالَ بِغَضِّ البَصَرِ وحِفْظِ الفَرْجِ؛ فَعُلِمَ بذلكَ أنَّ الصومَ لهنَّ دواءٌ، كما هو للرجالِ

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: الصوم لمن خاف علىٰ نفسه العزبة: 3/ 26، ومسلم، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم: 2/ 1018.

(2) انظرِ: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 9/ 173.

دواءٌ؛ فَمَنْ لمْ يَتيَسَّرْ لها الزواجُ، أو ماتَ عَنْها زوجُها، أو طُلِّقَتْ ولم تتزوَّجْ، وهيَ شَابَّةٌ فَتِيَّةٌ؛ فَلْتَلْزَمِ الصيامَ بِنِيَّةِ العبادةِ والتَّقَرُّبِ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- بما يُحِبُّ مِنَ الطاعاتِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِنِيَّةِ حِفْظِ الفَرْجِ وكَسْرِ الشَّهْوَةِ ثانيًا، وهي عبادةٌ وقُرْبَةٌ وطَاعَةٌ للهِ كَذلِكَ، ومن عَلِمَ اللهُ مِنْها حِرْصَها علىٰ صَوْنِ نَفْسِها، وَرَأَىٰ سَعْيَها لذلكَ بالصيامِ وغيرِهِ؛ صانَهَا اللهُ -تعالىٰ-، وحَفِظَهَا، وصَرَفَ عَنْها كُلَّ ما تَخْشَىٰ، ويَسَّرَ لها كُلَّ ما تَرْجُو؛ فإنه ما خابَ مَنْ رَجَاهُ، ولا شَقِيَ أَحَدٌ بِطَاعَةِ اللهِ -تعالىٰ-.

مُقْتَرَحُ الصيامِ

فمن كَرُمَتْ عليها نفسُهَا، وأرادَتْ أنْ تُغْلِيَهَا الثمنَ فَلْتَخْتَرْ لنفسِها عادةَ صيامٍ تلزمُها وتداومُ عليها ما عاشتْ، فتداومُ علىٰ صيامِ ثلاثةِ أيامٍ منْ كلِّ شهرٍ، (الثالثِ عشرَ، والرابعِ عشرَ، والخامسِ عشرَ من كل شهرٍ قَمَرِيٍّ، لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّىٰ أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَىٰ، وَنَوْمٍ عَلَىٰ وِتْرٍ»[1]، وفي رواية لعبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ -رضي الله عنهما-، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ»[2]. فإن أَطَاقَتْ أكثرَ منْ ذلكَ؛ فَلَها أنْ تُدَاوِمَ علىٰ صيامِ يَوْمَيِ الإثنينِ والخميسِ، وقد ورد فيه: عن أَبي هريرة ﷺ، عن رسولِ

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب: صَلَاةِ الضُّحَىٰ فِي الْحَضَرِ: 3/ 51، ومسلم، باب: الوصية بصلاة الصبح: 1/ 498.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: صوم داود عليه السلام: 3/ 40.

اللهِ ﷺ قَالَ: «تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يومَ الإِثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ؛ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»[1]. فإنْ وَجَدَتْ فِي نَفْسها القوَّةَ علىٰ الصيامِ أكثرَ؛ فَلْتَصُمْ صيامَ داودَ، وذلكَ خيرُ الصيامِ وأحبُّه إلىٰ اللهِ، لحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَهُ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، ويُفْطِرُ يَوْمًا»[2].

(1) رواه الترمذي، باب: ما جاء في صوم يوم الإثنين والخميس: 3/ 113، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: من نام عند السحر: 2/ 50، ومسلم، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقًّا أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم، وإفطار يوم: 2/ 816.

الثامن: الحَجُّ والاعتمارُ

تتهاونُ أكثرُ النساءِ في شَأْنِ الحجِّ تهاونًا كبيرًا، فينتظرنَ حتىٰ يَكْبُرْنَ في السنِّ، وقد تموتُ قبلَ أنْ تبلغَ هذا، والحقُّ أنَّ علىٰ المرأةِ حَجٌّ منْ مالِها، وينْبَغِي عليها أن تحج من حُلِيِّها إن عَدِمتِ المالَ، فشعيرةُ الحجّ فريضةٌ لا يكمُل الإسلامُ إلا بها، وهي واحدةٌ من أعظمِ شعائرِ الإسلامِ التي كتبها الله علىٰ عبادِه وانْتَدَبَهم إليها؛ فبها تُغتَفر سائر الذنوبِ، وتُهدَمُ المعاصي والعيوبُ، قَالَ ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»[1]. والحجُّ شِعارُ أمةِ الإسلامِ الذي تَفَرَّدَتْ به، لذلكَ قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «مَنْ قَدَرَ عَلَىٰ أَنْ يَحُجَّ؛ فَلَمْ يَحُجَّ، فَلْيَمُتْ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا»[2]، وفي الحديثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ: إِنَّ عَبْدًا صَحَّحتُ لَهُ جِسْمَهُ ووسَّعت عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ، يَمْضِي عَلَيْهِ خمسةُ أعوامٍ لا يَفِدُ إليَّ لَمَحْرُومٌ»[3].

• جهادُ المرأةِ حَجُّها

والحجُّ جهادُ النساءِ، غيرَ أنهُ لا شَوْكَةَ فيهِ،

فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ نَغْزُو وَنُجَاهِدُ مَعَكُمْ؟ فَقَالَ: «لَكِنَّ أَحْسَنَ الجِهَادِ وَأَجْمَلَهُ الحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «فَلاَ أَدَعُ الحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[4]، وفي قولِ عائشةَ رضي الله عنها في الحديثِ

---

(1) رواه مسلم، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج: 1/ 112.

(2) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء: 9/ 251، والفاكهي في أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: 1/ 380.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه، باب: ذكر البيان بأن الحج للنساء يقوم مقام الجهاد للرجال: 9/ 16، وصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

(4) رواه البخاري في صحيحه، بَابُ حَجِّ النِّسَاءِ: 3/ 19.

السابقِ: «فَلَا أَدَعُ الْحَجَّ أَبَدًا بَعْدَ إذ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ» بيانٌ لأحوالِ نساءِ السَّلَفِ -عليهم رضوان الله- من المسارعةِ إلىٰ الخيراتِ إذا عَلِمْنَه.

وللأيِّمِ المسلمةِ فُرْصةٌ أعظمُ من المتزوجاتِ، إذ بِوُسْعِها أنْ تَدَّخِرَ من مالها، فَتَحُجَّ، ثمَّ تعتمرَ كلَّ خمسِ سنواتٍ؛ عَمَلًا بالحديثِ السابقِ.

- **رَهْطُ الأنبياءِ يَحْدُوك[1]**

ثم اذْكِرِي هناكَ وأنتِ تُلَبِّينَ نداءَ الجليلِ -سبحانه وتعالىٰ- بالحجِّ رهطَ الأنبياء والمرسلين، وهم ينحدرونَ من الأوديةِ والجبالِ والشِّعابِ، يُلبُّون النداءَ ذاتَه، وينزلونَ المنازلَ إيَّاها؛ فيُخَالِطُ قَلْبَكِ رقةٌ، وروحَك خِفَّةٌ؛ يُهَيِّجانِ فيكِ الشُّجونَ، فتُسكبَ هنالكَ العَبَراتُ، وتَجْأَرينَ جُؤَارَهم، وتلبينَ تَلْبِيَتَهم، وتُكَبِّرين تكبيرَهم؛ تُحاكِينَ ذكرياتِ رسولِ الله ﷺ لإخوانِه الأنبياءِ. فعنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بوادي الأَزْرَقِ فَقَالَ: «أَيُّ وَادٍ هَذَا؟»، فَقَالُوا: هَذَا وَادِيْ الأَزْرَقِ، قَالَ: «كَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَىٰ مُوسَىٰ عليه السلام هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَىٰ اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ»، ثُمَّ أَتَىٰ عَلَىٰ ثَنِيَّةِ هَرْشَىٰ، فَقَالَ: «أَيُّ: ثَنِيَّةِ هَذِهِ؟»، قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَىٰ قَالَ: «كَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ عليه السلام عَلَىٰ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ[2]، وَهُوَ يُلَبِّيْ»، ومن حديثِ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه

---

(1) يحدو: يسوق، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 14/ 168.

(2) (وله جؤار) الجؤار: رفع الصوت، (هرشي): جبل قُرْب الجُحْفَة، (علىٰ ناقة حمراء جعدة)، أي: مُكْتَنِزَة اللحم، (خطام ناقته خلبة)، الخطام، هو: الحبل الذي يقاد به البعير يجعل علىٰ خطمه، وخلبة: هو الليف، انظر: حاشية صحيح مسلم، لمحمد فؤاد عبد الباقي: باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السماوات، وفرض الصلوات: 1/ 152.

يُحَدِّثُ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ، حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا»[1].

- **نماذجُ من حجِّ النِّساءِ**

ولقدْ كانَ للصالحاتِ معَ اللهِ -تعالىٰ- في حَجِّهِنَّ أحوالٌ وأخبارٌ، روىٰ ابنُ الجوزيِّ في صِفَةِ الصَّفْوَةِ «عن أبي موسىٰ الشواءِ، قالَ: كُنْتُ مع أمِّ إبراهيمَ العابدةِ، فلمَّا صِرْنَا عند الجِمَارِ، رَأَتِ الناسَ قد أقبلوا علىٰ الشِّراءِ والبيعِ، فرفعتْ رأسَها إلىٰ السماءِ، وقالتْ: حَبِيبِي، أقْبَلُوا علىٰ الدنيا، وتركوكَ»، وعن هشامٍ، عنْ حَفْصةَ، قالَ: «كانَ لها كَفَنٌ مُعَدٌّ، فإذا حَجَّتْ، وأَحْرَمَتْ؛ لَبِسَتْهُ، وكانت إذا كانتِ العشرُ الأواخرُ من رمضانَ، قامتْ من الليلِ فَلَبِسَتْهُ»[2].

وروىٰ ابن الجوزي: «حَجَّتِ امْرَأَةٌ عَابِدَةٌ، فَجَعَلَتْ تَقُولُ: أَيْنَ بَيْتُ رَبِّي، أَيْنَ بَيْتُ رَبِّي؟ فَقِيلَ لَهَا: الآنَ تَرَيْنَهُ، فَلَمَّا لاحَ الْبَيْتُ، قَالُوا: هَذَا بَيْتُ رَبِّكِ، فَاشْتَدَّتْ نَحْوَهُ فَأَلْصَقَتْ جَبِينَهَا بِحَائِطِ الْبَيْتِ، فما رفعت إلا ميتةً!»[3].

---

(1) رواه مسلم، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السماوات، وفرض الصلوات: 1/ 152.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 251.

(3) مثير العزم الساكن إلىٰ أشرف الأماكن، لابن الجوزي: 1/ 389.

التاسع: القيامُ علَى خِدْمةِ الوالدَيْنِ أَوْ أَحَدِهِما

- **واحدةٌ بواحدةٍ، والبادِئُ أكْرَمُ**

فإذا اشتغلتِ أختُكِ المُتَزَوِّجَةُ بخدمةِ زوجِها وأبنائِها، فاشتغلي أنتِ بخدمةِ والدَيْكِ، اللذَيْنِ أَنْجَباكِ، ورَبَّياكِ، ورَعَياكِ، وأنفقا عليكِ أموالَهُما، وسَهِرا عليكِ الليالِيَ الطوالَ؛ فَعَساكِ تَرُدِّينِ ولوْ شَيْئًا مِنْ جَمِيلَيْهِما، ولا أظُنُّكِ قادرةً؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ»[1]، وعن سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: «سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، أَنَّهُ شَهِدَ ابْنَ عُمَرَ وَرَجُلٌ يَمَانِيٌّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، حَمَلَ أُمَّهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، يَقُولُ:

إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّلُ *** إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُهَا لَمْ أُذْعَرِ

ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ أَتُرَانِي جَزَيْتُهَا؟ قَالَ: لَا، وَلَا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ»[2]. فبهما تدخلينَ الجنةَ من بابٍ واسعٍ؛ فإن النبيَّ ﷺ، قَالَ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَأَضِعْ ذلكَ البابَ أَوِ احْفَظْهُ»[3]، ولهذا كان الصالحونَ يُفَضِّلون خِدْمةَ الآباءِ علىٰ قيامِ الليلِ.

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة: 12/ 49، وابن ماجه في سننه، باب: بر الوالدين: 2/ 1207، وأبو داود في سننه، باب: في بر الوالدين: 4/ 335، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب: جزاء الوالدين: 1/ 18، وصَحَّحَهُ الألباني.

(3) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي الدرداء: 45/ 517، والترمذي في سننه، باب: مَا جَاءَ مِنَ الفَضْلِ فِي رِضَا الوَالِدَيْنِ: 3/ 375، وابن ماجه في سننه، باب: بر الوالدين: 2/ 1208، وصَحَّحَهُ الألباني.

روىٰ ابن الجوزي، عن محمد بن المُنْكَدر قال: «باتَ عمرُ يعني: أخاه يُصَلِّي، وبِتُّ أُغَمِّزُ[1] رِجْلَ أُمِّي، وما أُحِبُّ أنَّ لَيْلَتِي بِلَيْلَتِه»[2].

- **خِدْمةُ الوالِدَينِ جِهادٌ**

ولقد جعل النبي ﷺ القيام علىٰ خدمتهما جهادًا، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»[3].

ولقد خابتْ وخَسِرَتْ منْ لَمْ تَدْخُلْ بِوَالِدَيْها الجنةَ، فعَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا عِنْدَ الْكِبَرِ، لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»[4].

- **خِدْمةُ الوالِدَينِ تَفْرِيجٌ للكربات**

وخدمةُ الوالدين، ورِعَايَتُهُمَا، والإحسانُ إليهما سَبَبٌ في تَفْرِيجِ الكُرُبَاتِ في الدنيا، كما في الحديثِ عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

---

(1) الغمز: النخس في الشيء. من ذلك: غمزت الشيء بيدي غمزًا، والمراد هنا بـ (أُغَمِّزُ): أُدَلِّكُ، والله أعلم، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 4/ 394.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 379.

(3) رواه البخاري في صحيحه، باب: الجهاد بإذن الأبوين: 4/ 59، ومسلم، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به: 4/ 1975.

(4) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة: 14/ 231، وصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

«انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ[1] مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّىٰ أَوَوُا الْمَبِيتَ إِلَىٰ غَارٍ، فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ[2] قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَىٰ بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ[3] عَلَيْهِمَا حَتَّىٰ نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَىٰ يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّىٰ بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ؛ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا[4]؛ فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّىٰ أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ[5] مِنَ السِّنِينَ،

---

(1) الرهط: هم جماعة دون عشرة، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 17/ 104.

(2) أغبق، أَيْ: مَا كُنْتُ أُقَدِّمُ عَلَيْهِمَا أَحَدًا فِي شُرْبِ نَصِيبِهِمَا عِشَاءً مِنَ اللَّبَنِ وَالْغَبُوقُ شُرْبُ الْعِشَاءِ وَالصَّبُوحُ شُرْبُ أول النهار، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 17/ 58.

(3) أُرِحْ، أي: لم أرجع علىٰ أَبَوي حَتَّىٰ أخذهما النّوم، انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 12/ 90.

(4) فأردتها عَن نَفسهَا: كِنَايَة عَن طلب الْجِمَاع، انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 12/ 90.

(5) أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ، أَيْ: وَقَعَتْ فِي سَنَةِ قَحْطٍ، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 17/ 58.

فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ، عَلَىٰ أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا؛ فَفَعَلَتْ حَتَّىٰ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ[1]؛ فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ، وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ، حَتَّىٰ كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنْ أَجْرِكَ: مِنَ الْإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَالْغَنَمِ، وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي؛ فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ؛ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ، فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»[2].

* فانْظُرِي إلىٰ عَظِيمِ بِرِّ هذا الرجلِ بأبويهِ، الذي حَمَلَهُ علىٰ أنْ يقفَ ليلَهُ كُلَّهُ علىٰ رِجْلَيهِ، وقَدَحُ اللبنِ في يديهِ، وصِغَارُهُ جِيَاعٌ ينتظرونَ اللَّبَنَ، وهو يَأْبَىٰ أنْ ينامَ، وأنْ يسقِيَ أبناءَه قَبْلَ والِدَيْهِ، حتَّىٰ طَلَعَ الفَجْرُ؛ ثمَّ انظري كيفَ كانَ هذا العملُ الجَلِيلُ وأعمالُ رُفَقَائِهِ في الغارِ سَبَبًا في أنْ أَجْرَىٰ اللهُ -تعالىٰ- لهمْ كَرَامَةً عَظِيمةً، فَأَزاحَ عنهم الصخرةَ؛ دُونَمَا سَبَبٍ مِنَ الناسِ، وفَرَّجَ عنهم ما هُمْ فيهِ من كُرْبَةٍ مُؤَدِّيَةٍ إلىٰ الموتِ والهلاكِ.

---

(1) «لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ»، الْخَاتَمُ: كِنَايَةٌ عَنْ بَكَارَتِهَا، وَقَوْلُهُ: «بِحَقِّهِ»، أَيْ: بنكاح لا بزنا، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - (شرح النووي علىٰ صحيح مسلم)، للإمام النووي: 17/ 57.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: من استأجر أجيرا فترك الأجير أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد: 3/ 91، ومسلم، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال: 4/ 2100.

- **بر الوالدين يكفر كبائر الذنوب.**

وإن بر الوالدين يكفر كبائر الذنوب الموجبة لعذاب النار وسخط الجبار، قال الإمام السفاريني: «قَالَ سَيِّدُنَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ ﷺ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ كَفَّارَةُ الْكَبَائِرِ. وَكَذَا ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ مَكْحُولٍ»[1].فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، رَجُلٌ، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا كَبِيرًا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟، فقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَكَ وَالِدَانِ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَلَكَ خَالَةٌ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَبِرَّهَا إِذًا»[2].

و«عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً، فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي، وَخَطَبَهَا غَيْرِي، فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكِحَهُ، فَغِرْتُ عَلَيْهَا؛ فَقَتَلْتُهَا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: أُمُّكَ حَيَّةٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: تُبْ إِلَىٰ اللهِ ﷻ، وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ. فَذَهَبْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ»[3].

- **احذَرِي التَّسَخُّطَ والتَّأَفُّفَ**

ولتحذرِ المسلمةُ منَ التَّسَخُّطِ منهما، أو أَذِيَّتِهما بكلمةٍ، ولو بـ (أُفٍّ) فإنَّه عقوق؛ فيضيع تَعَبُكِ سُدًى، ويحلَّ عليكِ غضبُ اللهِ.

---

(1) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني: 1/ 389.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، باب: ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ بِرِّ الْمَرْءِ خَالَتَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ وَالِدَانِ: 2/ 177، وصَحَّحَهُ الألباني.

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب: بر الأم: 1/ 15، وصَحَّحَهُ الألباني.

وقد نَهَىٰ اللهُ -تعالىٰ- عن التَّضَجُّرِ والتَّأَفُّفِ منَ الوالدينِ، وعَنْ نَهْرِهِمَا، حيثُ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[1].

تفسيرُ الطبريِّ لآيةِ الإسراءِ

قال ابن جرير: «قوله: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ يقولُ: فَلَا تُؤَفِّفَ مِنْ شَيْءٍ تَرَاهُ مِنْ أَحَدِهِما أَوْ مِنْهُما مِمَّا يَتَأَذَّىٰ بِهِ الناسُ، ولكنْ اصبرْ علىٰ ذلكَ مِنْهُمَا، واحْتَسِبْ في الأَجْرِ صَبْرَكَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا، كَمَا صَبَرا عَلَيْكَ في صِغَرِكَ.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل.

فعنْ ليثٍ، عن مجاهدٍ، في قولِهِ: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ قالَ: إنْ بَلَغَا عِنْدَكَ مِنَ الكِبَرِ مَا يَبُولَانِ ويَخْرَآنِ، فَلَا تَقُلْ لهما أُفٍّ؛ تَتَقَذَّرُهُمُا.

وعنِ ابنِ جريجٍ، عنْ مُجاهدٍ: إِمَّا يَبْلُغانِ عِندكَ الكِبَرَ؛ فَلَا تَقُلْ لهُما: أُفٍّ حِينَ تَرَىٰ الأَذَىٰ، وتُمِيطُ عَنْهُمَا الخَلاءَ والبَوْلَ، كَمَا كَانَا يُمِيطَانِهِ عَنْكَ صَغِيرًا، ولا تُؤْذِهِما»[2].

تفسيرُ ابنِ أبي حاتمٍ للآيةِ

وروىٰ ابنُ أبي حاتمٍ، «عَنْ عروة ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾، قال: إذا دَعَوَاكَ؛ فَقُلْ: لَبَّيْكُمَا، وسَعْدَيْكُمَا.

وعَنْ قَتَادَةَ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾، قَالَ: قولًا لَيِّنًا سَهْلًا.

---

(1) الإسراء: 23.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، سورة الإسراء: 17/ 415.

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ يَقُولُ: اخضعْ لِوَالِدَيْكَ، كَمَا يَخْضَعُ الْعَبْدُ لِلسَّيِّدِ الفَظِّ الغَلِيظِ»[1].

➢ تفسيرُ ابنِ كَثِيرٍ للآيةِ

قال ابنُ كَثِيرٍ: «﴿فلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ﴾، أَيْ: لَا تُسْمِعْهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا حَتَّىٰ وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ ﴿ولا تَنْهَرْهُما﴾، أَيْ: وَلَا يَصْدُرْ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ»[2].

➢ تفسيرُ السَّمْعَانيِّ للآيةِ

وقال السَّمْعَانيُّ: وَحَقِيقَة كلمة (أُفّ) أَنها كلمةٌ تُقَالُ عِنْدَ الضَّجَرِ منَ الشَّيْءِ واسْتِثْقَالِه، وَقيلَ: الأُفُّ بِأَدْنَىٰ مَا يُتَبَرَّمُ بِهِ، فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: لَا يَتَبَرَّمُ بِهِمَا، وَلَا يَسْتَثْقِلُ مُعَالَجَةَ أَذَاهُما»[3].

➢ تفسيرُ الفَخْرِ الرَّازِي للآيةِ

وقال الفخر الرازي: «قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ هَذَا نِهَايَةُ الْمُبَالَغَةِ فِي الْمَنْعِ مِنْ إِيذَائِهِمَا»[4].

---

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، سورة الإسراء: 7/ 2323.

(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الإسراء: 5/ 60.

(3) تفسير القرآن، للسمعاني، سورة الإسراء: 3/ 232.

(4) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة البقرة: 3/ 586.

وقال رحمه الله: «الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ الْمَنْعُ مِنْ إِظْهَارِ الضَّجَرِ بِالْقَلِيلِ أَوِ الْكَثِيرِ، وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ الْمَنْعُ مِنْ إِظْهَارِ الْمُخَالَفَةِ فِي الْقَوْلِ عَلَىٰ سَبِيلِ الرَّدِّ عَلَيْهِ وَالتَّكْذِيبِ لَهُ»[1].

تفسيرُ ابن جُزَيٍّ للآيةِ

قال ابن جُزَيٍّ: «﴿فلا تَقُلْ لهما أُفٍّ﴾، والمعنىٰ الوصيةُ بِبِرِّ الوالِدَيْنِ إذا كَبُرَا، أوْ كَبُرَ أَحَدُهُمَا، وإنَّما خَصَّ حالةَ الكِبَرِ لأَنَّهُما حِينَئِذٍ أَحْوَجُ إلىٰ البِرِّ والقِيَامِ بِحُقُوقِهِمَا، لِضَعْفِهِمَا»[2].

(1) التفسير الكبير، المسمىٰ بمفاتيح الغيب، لأبي عبد الله، فخر الدين الرازي، سورة الإسراء: 20/ 326.

(2) تفسير التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جُزَيٍّ، سورة الإسراء: 1/ 444.

العاشر: في تربيةِ الأبناءِ، وكفالةِ المَحْرُومينَ عِوَضٌ وغَنَاء

• في تربيةِ الأبناءِ لمن ماتَ زوجُها عَظِيمُ الأَجْرِ

إذا كانت الأيِّم أرملةً قد تَأَيَّمَت لموتِ زوجِها، وأقامَتْ علىٰ أبنائِها، ولم تتزوجْ، فَعَلَيْها أن تَسْلكَ في نفسِها سبيلَ الصالحاتِ، فتدفَعَهم إلىٰ المساجدِ، وتَحُثَّهم علىٰ المحافظةِ علىٰ الصلاةِ في بيوتِ اللهِ جماعةً، كما تدفَعُهمْ إلىٰ حِفْظِ كتابِ اللهِ -تعالىٰ- بتسجِيلِهم في مَرْكَزٍ من مراكزِ تحفيظِ القرآنِ الكريم، وتُحَفِّزُهم علىٰ حِفْظِه بالمكافآتِ التي يُحِبُّونَها، كما تُرَبِّيهم علىٰ سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ عِلْمًا وعَمَلًا، وتُرَبِّيهمْ علىٰ التَّدَيُّنِ الصَّحِيحِ، والالتزامِ بشرائعِ الإسلامِ، والوقوفِ عندَ حدودِ اللهِ -تعالىٰ-؛ فإنَّها إنْ فَعَلَتْ ذلكَ؛ فَلْتُبْشِرْ بِكُلِّ خيرٍ، فهيَ وزوجُها أولُ المُنْتَفِعِينَ بأبنائِها في الدنيا والآخرةِ، روىٰ أحمد في مسنده بسند حسن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّىٰ لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ»[1]، وإنَّ دعاءَ الصالحِينَ لا يُرَدُّ بإذن الله؛ فمن تَرَبَّىٰ علىٰ الصلاحِ؛ أصابَ استغفارُه لوالِدَيْه ودعاؤُه لهم عندَ اللهِ مَوْقِعًا عَظِيمًا؛ ثمَّ إنَّ لها أَجْرَ عَمَلِ أولادِها وبناتِها كاملًا -إن شاءَ اللهُ- من غيرِ أن ينقصَ منْ أجورهم شيءٌ. ولها في الصالحاتِ اللاتي رَبَّيْن أيتامَهُنَّ خيرُ أسوةٍ.

• في أمِّ سُفْيانَ قُدْوَةٌ

روىٰ ابن الجوزي، «قال وكيعٌ: قالتْ أمُّ سفيانَ الثوريِّ لسفيانَ: يا بُنَيَّ اطلبِ العلمَ، وأنا أكفيكَ بِمِغْزَلِي، وقالت له: يا بُنَيَّ إذا كَتَبْتَ عشرةَ أحرفٍ؛ فانظرْ هل تَرَىٰ نفسَكَ زيادةً

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة: 16/ 357، وحَسَّنَهُ شعيب الأرنؤوط.

فِي مَشْيِكِ وحِلْمك وَوَقَارِكَ، فإنْ لَمْ يَزِدْكَ؛ فاعلمْ أَنَّهُ لا يضرُّكَ ولا ينْفَعُكَ»[1]. وهذان الإمامانِ الشافعيُّ وأحمدُ كانا إِمَامَي الدنيا، عِلْمًا وعَمَلًا وصَلَاحًا، وكانا يَتِيمَيْنِ؛ ولو تَتَبَّعْنا العلماءَ الأيتامَ الذينَ رَبَّتْهُم أُمَّهاتُهم لوجَدْنا منهمُ الكثيرَ.

• ربيعةُ الرَّأيِ وتَربِيَةُ أمِّهِ له

ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: «عنْ عَبْدِ الوَهَّابِ بنِ عَطَاءٍ الخَفافِ، قالَ: حَدَّثَنِي مَشْيَخَةُ أَهْلِ المدينةِ أنَّ فَرُّوخًا، أبا عبدِ الرَّحْمنِ، أبو رَبِيعةَ خَرَجَ في البُعُوثِ إلىٰ خُراسانَ أيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ غازيًا، وربيعةُ حَملٌ في بَطْنِ أُمِّهِ، وخَلفَ عِنْدَ زَوْجَتِهِ أُمِّ رَبِيعةَ ثلاثينَ ألفَ دينارٍ، فَقَدِمَ المدينةَ بَعْدَ سَبْعٍ وعِشْرينَ سَنَةً وهوُ راكبٌ فَرَسًا، وفِي يَدِهِ رُمْحٌ، (وكانَ قدِ انقَطَعَتْ أخبارُه، وعَدُّوهُ فِي الشُّهداءِ) فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِه ثمَّ دَفَعَ البابَ بِرُمْحِهِ، فَخَرَجَ (ابنُه) ربيعةُ، فقالَ لهُ يا عَدُوَّ اللهِ أَتَهْجِمُ علَىٰ مَنْزِلِي؟ (وهوَ لا يعلمُ أَنَّهُ أبوه)، فقالَ لا، وقالَ فَرُّوخٌ: يا عَدُوَّ اللهِ أَنْتَ رجلٌ دَخَلْتَ عَلَىٰ حُرْمَتِي(وهو لا يعلمُ أنَّه ابنُهُ) فَتَوَاثَبا، وتَلَبَّبَ كلُّ واحدٍ منهُما بصاحبِهِ، حتَّىٰ اجتمعَ الجيرانُ، فبلغَ مالكَ بنَ أَنَسٍ والمشيخةَ، فَأَتَوا يُعِينُونَ ربيعةَ، فَجَعَلَ ربيعةُ يقولُ: واللهِ لا فَارَقْتُك إلَّا عندَ السُّلْطانِ، وجعل فَرُّوخٌ (أبوه) يقولُ: واللهِ لا فارقْتُكَ إلَّا بالسُّلطانِ، وأنتَ معَ امرَأَتِي، وكَثُرَ الضَّجِيجُ، فلمَّا بَصُرُوا بمالكٍ سَكَتَ الناسُ كُلُّهُم، فقالَ مالِكٌ: أيها الشيخُ لكَ سعةٌ فِي غيرِ هذهِ الدارِ؟ فقالَ الشيخُ هيَ داري، وأنَا فَرُّوخٌ، مَوْلَىٰ بَنِي فُلانٍ، فَسَمِعَتْ امرأَتُه كلامَه؛ فَخَرَجَتْ، فقالتْ: هذا زَوْجِي، وهذا ابْنِي الذِي خَلَّفْتَهُ، وأنا حامِلٌ بهِ؛ فاعْتَنَقَا جميعًا، وبَكَيَا، فَدَخَلَ فَرُّوخٌ المنزلَ، وقالَ هذا ابني؟ قالتْ: نَعَم، قالَ فَأَخْرِجِي المالَ الذِي لِي عِنْدَك (وكانتْ قَدْ

---

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: 2/ 110.

أَنْفَقَتِ المالَ كُلَّهُ علىٰ تَرْبِيَةِ ابنِها وتَعْلِيمِه) وهذهِ معي أربعةُ آلافِ دينارٍ، فقالتِ المالَ قَدْ دَفَنْتُهُ، وأنا أُخْرِجُهُ بَعْدَ أيَّامٍ، فَخَرَجَ ربيعةُ إلىٰ المسجدِ، وجَلَسَ فِي حَلْقَتِه، وأَتاهُ مالكُ بنُ أَنَسٍ والحَسَنُ بنُ زَيْدٍ وأَشْرَافُ أهلِ المَدِينةِ، وأَحْدَقَ الناسُ بهِ، فقالتِ امرأتُهُ، اخرجْ صَلِّ في مسجدِ الرسول ﷺ؛ فخرجَ فَصَلَّىٰ، فَنَظَرَ إلىٰ حَلْقَةٍ وافِرَةٍ، فَأَتاهُ، فَوَقَفَ عليه، فَفَرَّجُوا لهُ قليلًا، ونكَّسَ ربيعةُ رَأْسَهُ، يُوهِمُهُ أنَّه لمْ يَرَه، فشكَّ فيه أبوه، فقالَ: مَنْ هذا الرجلُ؟ فقالوا له: هذا ربيعةُ بنُ أَبِي عبدِ الرَّحمنِ، فقال أبو عبد الرحمن: لقد رفَعَ اللهُ ابني، فَرَجَعَ إلىٰ مَنْزِلِه، فقالَ لوالِدَتِه، لقد رأيتُ وَلَدَكِ في حَالَةٍ ما رأيتُ أحدًا مِنْ أهلِ العِلْمِ والفِقْهِ عليها؛ فقالتْ أُمُّهُ: أَيُّمَا أحبُّ إليكَ، ثلاثونَ ألْفَ دينارٍ (تعنِي الأموالَ التِي سأَلَها عنها، والتِي كانَ تَرَكَها عِنْدَها قبلَ خروجِهِ لِلْغَزْوِ) أو هذا الذِي هُوَ فيهِ منَ الجَاهِ؟ قَالَ: لا واللهِ، إلَّا هذا، قالت: فإنِّي قَدْ أَنْفَقْتُ المالَ كُلَّه عليه، قال: فواللهِ ما ضَيَّعْتِهِ»[1].

(1) انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: 9/ 414، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خَلِّكَان: 2/ 289، وصفة الصفوة، لابن الجوزي: 1/ 382.

وَصِيَّةُ الأُمَّهاتِ بِأَمْوالِ الأيتامِ

ولْتَتَنَبَّهِ الأمُّ في القيامِ علىٰ أموالِ أَيْتَامِها، بحيثُ تقومُ علىٰ أموالِهِمْ قيامًا شرعيًّا صحيحًا، فَتُخَصَّصَ لكلِّ وَلَدٍ وبنتٍ حافظةً، تُحْفَظ فيها أموالُ كلِّ واحدٍ منهم علىٰ حِدَةٍ، بحيثُ تُوضَعُ الواردات المالية لكلِّ واحدٍ في حافظتِهِ الخاصةِ؛ حتَّىٰ لا تَخْتَلِطَ أموالُهُم، ويأكلَ بعضُهم نصيبَ بعضٍ. وإذا أَخَذَتْ منْ أموالِهِمْ لنفقةِ المعيشةِ اليوميةِ؛ فلتأخذْ منه بالمعروفِ؛ فتأخذ منْ حافظةِ كلِّ ولَدٍ من أولادِها بالسَّوِيَّةِ، ولا تنفقْ منه إلا لضرورةِ مَطْعَمٍ ومشربٍ ومَلْبَسٍ ومَسْكَنٍ وتَعْليمٍ. أمَّا تعليمُ الجامعاتِ، وما فَوْقَها الذي يحتاجُ إلىٰ نفقةٍ خاصةٍ كبيرةٍ؛ فَيُنفَقُ علىٰ كلِّ واحدٍ منهمْ من حافظتِهِ الخاصةِ. ولتُخْرِجْ زكاةَ أموالِ كلِّ شخصٍ بِعَيْنِه علىٰ رأسِ الحَوْلِ إذا بلَغَ النِّصابَ. والحذرَ كلَّه من وضعِ أموالِ الأيتامِ في المصارفِ (البنوك) فيختلطُ بالرِّبا؛ فَتُمْحَقُ بَرَكَتُهُ، وتَطْعَمُ أبناءَها حَرامًا، وكلُّ جَسَدٍ نبتَ من حَرامٍ؛ فالنارُ أَوْلَىٰ به. ولها أنْ تقومَ علىٰ تَنْمِيةِ أموالِ الأيتامِ؛ فإن وَجَدَتْ رجلًا صالحًا أمينًا وضعَتْهُ في يَدِه؛ ولتُوَثِّقْ ذلك بِعَقْدٍ شَرْعِيٍّ يَحْفَظُ أموالَ الأيتامِ من الاحتيالِ، لِيُشَغِّلَه لهمْ في مشروعٍ رابحٍ؛ يعودُ عليهمْ بِكَسْبٍ حلالٍ؛ وإنْ لمْ تجدِ الصالحَ الأمينَ؛ فلا تُغَامِرْ بأموالِ الأيتامِ في يدِ أيِّ أحدٍ، لو كان قريبًا.

في تربيةِ مجهولي النَّسَبِ لِمَنْ لم تَتَزَوَّجْ وللمُطَلَّقَاتِ عَظِيمُ الأَجْرِ

أَمَّا إِنْ تَأَيَّمَتِ المرأةُ منْ غيرِ زواجٍ، أو كانتْ مُطَلَّقَةً، ولم تتزوجْ؛ فبإمكانِها أن تَتَعَوَّضَ عن الأبناءِ والزوجِ بكفالةِ أبناءِ إخوتِها أو أخواتِها، أو يَتِيمًا أو طِفْلًا مِنْ مَجْهُولِي النَّسَبِ، بِنِيَّةِ تربيَةِ ذريةٍ صالحةٍ؛ تُرَبِّيه تربيةً صالحةً علىٰ حفظِ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولهِ ﷺ والعملِ بهما؛ فيكونَ إمامًا لِلْأُمَّةِ كأبِي بَكْرٍ وعمرَ، أو قائدًا مُجاهدًا، كخالدٍ وسَعْدٍ، أو عَالِمًا عاملًا، كالشافعيِّ وأحمدَ، فيكونَ أنفعَ لها منْ أبناءِ أُمَّهاتِهم، واللهُ يُعطي كُلَّ مسلمةٍ علىٰ ما نَوَتْ؛ شَرِيطةَ أن تلتزمَ بحدودِ الشَّرْعِ من حيثُ النَّسَبُ والميراثُ.

في الإرضاعِ خُرُوجٌ منْ حَرَجِ الخُلْوَةِ

وللخروج من حرج الخلوة والخلطة بمن تربيهم، لِلْأَيِّمِ أنْ تَدْفَعَهُ إلىٰ أختٍ لها، أو مَنْ يَحْرُمُ عليها برضاعِها إياهُ؛ لتُرْضِعَهُ؛ فيصبح محرمًا عليها. ففي الحديث: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بِنْتِ حَمْزَةَ: «لَا تَحِلُّ لِي؛ يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ، هِيَ بِنْتُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ»[1].

وأبوابُ الخيرِ التِي يُمْكِنُ للمسلمةِ الأيِّمِ أنْ تنتفعَ بها أكثرُ منَ الحَصْرِ، وإنما هذهِ مفاتيحُ للخيرِ نَضَعُها بينَ يَدَيِ المسلمةِ، وما عَلَيْها إلا أنْ تنويَ استفراغَ عُمُرِها في طاعةِ اللهِ -تعالىٰ- ومحبتِهِ والقُرْبِ منه، والله -تعالىٰ- بِفَضْلِه وكَرَمِه يَفْتَحُ لها منْ أبوابِ البرِّ والخيرِ ما لمْ يكنْ يخطرُ لَهَا علىٰ بالٍ.

---

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن العباس: 5/ 250، والبخاري في صحيحه، باب: الشهادة علىٰ الأنساب، والرضاع المستفيض، والموت القديم: 3/ 170.

خَاتِمَةٌ

هذه بعضُ المعاني التِي فَتَحَ اللهُ بِها عَلَيْنَا مِنْ فُيُوضِ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وتَوْفِيقِهِ؛ فَجَرَىٰ بِهَا مِدادُ قَلَمِي، فَمَا كانَ مِنْهَا مِنْ صَوابٍ؛ فَبِتَوْفِيقِ اللهِ وتَسْدِيدِهِ، ومَا كانَ خِلافَ ذَلِكَ؛ فَأَنَا مُعْتَذِرٌ عَنْهُ، مُسْتَغْفِرٌ مِنْهُ، ولَنْ يَعْدِمَ مُجْتَهِدٌ مِنْ رَبٍّ كَرِيمٍ أَجْرًا.

وإننا إذ نَسْطُرُ هذه المادةَ لَسْنا نُرَغِّبُ في التأيُّمِ وتركِ الزواجِ، ولا ندعو إليه، إذِ الزواجُ فطرةٌ غريزيةٌ أَوْدَعها اللهُ نفوسَ الأحياءِ، وهي مَتَأَكِّدةٌ عندَ الإنسانِ؛ فهي آيةُ اللهِ للإنسانِ، ومَظْهَرٌ من مظاهرِ تَكْرِيمِه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. فالزواجُ يَحْفَظُ بقاءَ نسلِ الإنسانِ إلىٰ ما شاءَ اللهُ، وبِهِ يَكْثُرُ نَسْلُ الإسلامِ، لِيُبَاهِيَ به النبيُّ ﷺ الأنامَ، وبِهِ تُقْضَىٰ الأوطارُ، وتَسْكُنُ الشهواتُ، وتَهْجَعُ الغرائزُ، وتُتَّقَىٰ به الفتنُ والمخاوفُ، وبِهِ يكونُ التعاونُ علىٰ تكاليفِ الحياةِ بينَ بنِي الإنسانِ، وإنَّما أَرَدْنا بهذهِ الكتابَةِ التقربَّ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ-، ثمَّ طلبَ القُرْبِ من رسولِ اللهِ ﷺ في المآلِ؛ بإنفاذِ وَصِيَّتِه ﷺ بالنساءِ عامةً: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[2]. كما أَرَدْنا أنْ نَخُصَّ هذهِ الفِئَةَ التي تكادُ تكونُ مَنْسِيَّةً مَغْفُولًا عنها في الناس، متروكةً تُكَابِدُ مرارةَ الوَحْدَةِ والحِرْمانِ دونما تَوْجيهٍ وإرشادٍ وإسنادٍ من أَحَدٍ، ثمَّ أَرَدْنا

---

(1) الروم: 21.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: خلق آدم صلوات الله عليه وذريته: 4/ 133، ومسلم، باب: الوصية بالنساء: 2/ 1091.

مواساةَ الأَيَامَىٰ علىٰ مُصابِهِنَّ؛ فَنَنَال بركَتَهُ، فعنْ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ، عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ عَزَّىٰ أَخَاهُ المؤمنَ في مُصِيبَتِهِ؛ كساهُ اللهُ حُلَّةً خضراءَ يُحْبَر بها يومَ القيامةِ»، قيلَ: يا رسول الله ما يُحْبَرُ؟ قال: «يُغْبَطُ»[1]. كما أَرَدْنا وَضْعَ مادةٍ جامعةٍ لِمَا يَنْفَعُ الأَيِّمَ في دُنْياها وأُخْراها؛ صِيانةً لها عنْ سُبُلِ الغِوَايةِ والضَّلالِ، وَأَخْذًا بِيَدَيْها إِلَىٰ سبيلِ الرشادِ، وصراطِ اللهِ المستقيمِ؛ لا سيَّما وأنَّ الأَيَامَىٰ في نساءِ المسلمينَ كثيرٌ عَدَدُهنَّ، تُعَدُّ بالملايينِ الكثيرةِ؛ وتَتَأَكَّدُ كَثْرَتُهُنَّ بينَ يَدَيِ الساعةِ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ، يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ ثُمَّ لَا يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ، وَيُرَىٰ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ»[2].

والله -تعالىٰ- **وَحْدَه** المسؤولُ أنْ يحفظَ نساءَ المسلمينَ عامَّةً، والأيامَىٰ مِنْهُنَّ خاصةً، وأنْ ينفعَ بهذِهِ المادةِ خلقًا كثيرًا، وأنْ يَكْتُبَ لَنَا بها القَبُولَ والقُربَ من الرحمنِ. وصلَّىٰ اللهُ وسَلَّمَ وبارَكَ علىٰ رسولِ اللهِ، وآلِه، وسائرِ النبيين، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كثيرًا.

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه محمد: 5/ 273، وكتاب الدعاء، بَاب: ثَوَاب مَنْ عَزَّىٰ مُصَابًا: 1/ 369، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، باب: ما يستحب من تعزية أهل الميت رجاء الأجر في تعزيتهم: 4/ 98، وحَسَّنَهُ الألباني.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب: الصدقة قبل الرد: 2/ 109، ومسلم، باب: الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها: 2/ 700.

وِقْفَةٌ أَخِيرَةٌ

أختاهُ، اِرْجِعِي واقْرَئِيها مرةً أُخْرَىٰ، ثُمَّ أُخْرَىٰ بِنِيَّةِ العَمَلِ بها، وأَهْدِيهَا لِمَنِ ابْتُلِيَتْ بالتَّأَيُّم، ليكونَ لها عزاءٌ ومواساةٌ؛ لَعَلَّكِ تُصِيبينَ أَجْرَهَا. ثُمَّ ارْفَعِي يَدَيكِ ساعةَ إجابةٍ، وسَلِي ربًّا كريمًا، بَرًّا رحيمًا أنْ يغفرَ لكاتبِ هذهِ الوُرَيْقاتِ وكُلِّ مَنْ أَعَانَ عَلَيْهَا، علىٰ قِلَّةِ الحِيْلَةِ، وعَظِيمِ حَقِّ الرَّبِّ -سُبْحَانَهُ-، وأنْ يُبارِكَ فيه في الحياةِ وفي الممات، وأنْ يَجْبُرَ كَسْرَ بناتِ المُسْلِمينَ، وأنْ يُفَرِّجَ كُرُبَاتِهِنَّ.

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا؛ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العليمُ ﴾

تمَّ بحمد الله -تعالىٰ-، الثلاثاء، لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان، لعام 1435هـ، في مسجد العودة إلىٰ الله، بُعَيْد صلاة العصر. وتمَّ الفراغ من المراجعة ضُحَىٰ يومِ الجمعة، لأربع عشرة ليلةً خَلَتْ من شهر الله المحرم، لعام 1436هـ.

وكتبه

زكريا بن طه شحادة

مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ

وِقْفَةٌ أُوْلَىٰ: القَارِئَةُ الكَرِيمَةُ 4

مُقَدِّمَةٌ 5

الفَصْلُ الأَوَّلُ: الصَّبرُ عُدَّةُ الصَّالِحَاتِ 7

الصبرُ علىٰ الابتلاءِ سُنَّةُ الحياةِ الدُّنيا 9

مُقَسِّمُ الأرزاقِ هو مُقَسِّمُ الابتلاءاتِ 10

لا اعتراضَ علىٰ قَضَاءِ الحَكِيمِ -سُبْحَانَهُ- 11

رحمةُ اللهِ -تعالىٰ- بِعِبادِهِ في كُلِّ قَضاءٍ 12

الصبرُ دواءُ كلِّ داءٍ 14

حقُّ الرَّبِّ -تعالىٰ- عَلَىٰ عِبَادِهِ الصبرُ علىٰ قَضَائِهِ 15

الصَبْرُ دواء لمن تَأَيَّمَت ولم تتزوج 17

بُشْرَىٰ لِمَنْ لَمْ تَتَزَوَّجْ 18

الصَبْرُ دواء لمن تَأَيَّمَت لموت زوجها 20

في صَبْرِ الصالحاتِ علَىٰ مَوْتِ الأزواجِ عِبْرَةٌ 21

لمن ماتَ زوجُها الخيارُ بَيْنَ التَّأَيُّمِ أو الزواجِ 22

الصَبْرُ دواءٌ لمن تَأَيَّمَت لطلاقها من زوجها 23

وفي الطلاقِ بَقِيَّةٌ من خَيْرٍ 25

السبيلُ إلىٰ تَحْقِيقِ الصَبْرِ 26

العزاءُ بأخبارِ أهلِ البلاء..... 32
الفَصْلُ الثَّانِي: الرِّضا بِقَضاءِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الزَّوْجِ..... 39
لا تَتَمَنَّيَنَّ مُسْلِمةٌ حَظَّ أُخْتِها..... 41
الله المُصَوِّرُ، لا سِواهُ..... 42
صُوْرَةُ القَلْبِ أَوْلَىٰ أَنْ تُجَمَّل..... 44
جَمَالُ الدِّينِ والخُلُق سِتْرٌ لِكُلِّ قَبِيحٍ..... 47
حَقِيقَةُ الرِّضا..... 53
السَّبِيلُ إلىٰ تَحْقِيقِ الرِّضا..... 55
ثَمَرَةُ الرِّضَا..... 57
عَسَىٰ أنْ تُحبوا شيئًا وهوَ شرٌ لكم..... 63
فَوَائِدُ الآيةِ من الفوائد..... 65
الفَصْلُ الثَّالِثُ: وَاسِطَةُ العِقْدِ: محبةُ رَبِّ العَالَمِينَ أَعْظَمُ مِنْ مَحَبَّةِ المَخْلُوقِينَ..... 67
نفوذُ قَلْبِ المُحِبَّةِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالىٰ-..... 68
مَنْزِلَةُ المَحَبَّةِ مَنْزِلَةُ السابقاتِ..... 69
المَحَبَّةُ روحُ العُبُودِيَّةِ ولُبُّهَا..... 71
محبةُ اللهِ مَنْسَاةٌ للهُمُومِ والأحزانِ..... 72
حقيقة المحبة..... 74
أَرْبَابُ الْمَحَبَّةِ يَصِفُون..... 75
إِعْذَارٌ وتَصْدِيقٌ..... 78
نماذجُ لِلْمُحِبَّاتِ الصالحاتِ..... 79
وِقْفَةٌ لازِمَةٌ..... 81
السَّبِيلُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ مَحَبَّةِ اللهِ..... 82
عَجْرَدَةُ العَمِيةُ مَثَلٌ حَسَنٌ..... 85

الفَصْلُ الرَّابِعُ: لا أَسَفَ عَلَىٰ دارِ الدُّنْيا 86
جلاءُ صورةِ الدُّنْيَا 87
إِطْلالَةٌ علَىٰ الدُّنْيا مِنْ نافذةِ القرآنِ 88
إِطْلالةٌ عَلَىٰ الدُّنيا منْ نافذةِ السُّنَّةِ 94
الدنيا في عيونِ الصالحينَ 102
إنما يُحْمدُ من الدنيا ما يُقَرِّبُ منَ اللهِ -تعالىٰ- 106
وِقْفَةٌ لازِمَةٌ 107
الفَصْلُ الخَامِسُ: والدارُ الآخرةِ خيرٌ للذينَ يَتَّقُون 108
إِطْلالةٌ علىٰ الجَنَّةِ مِنْ نافذةِ القُرْآنِ 109
ولَنَا كَلِمَةٌ 112
مشاهدُ لرجالِ الجَنَّةِ 113
مشهد لرجال الجنة من نافذة السُّنَّة 115
رواياتُ الحديثِ ودِلَالَاتُها 117
كيف للأيِّمِ أن تختارَ زوجَها في الجَنَّةِ 118
مشاهدٌ لنساءِ الجنَّةِ من نافذةِ القرآنِ 119
مَشْاهَدٌ لنساءِ الجنةِ من نافذةِ السُّنَّةِ 123
طيبُ مآلِ الصالحونَ والصالحاتِ 127
زِيادةُ الكَريمِ الوَهَّابِ 132
آخرُ دُعاءِ أهلِ الجَنَّةِ 134
شَوْقٌ لِلِقَاءِ اللهِ واسْتِبَاقٌ 136
وِقْفَةٌ لازِمَةٌ 137
الفَصْلُ السَّادِسُ: ما عندَ اللهِ لا يُدْرَكُ بِمَعْصِيَتِهِ 139
الأول: الذهابُ إلىٰ السَّحَرةِ والمُشَعْوِذِينَ الدَّجالِينَ 140

الثاني: التَّجَمُّلُ بما لم يأذنْ به الله 144
الثالث: الاستعطارُ والتَطَيُّبُ للناسِ 147
الرابع: خلعُ ملابسِها في غيرِ بَيْت أهلِها 148
الخامس: حَسَدُ الأيِّم صاحبَتَها التي رَزَقَها اللهُ زوجًا وذُرِّيَّة 150
السادس: مُهَاتَفَةُ النِّساءِ الرجال 155
السابع: الحَذَرُ مِنْ خَدِيعةِ الدَّجَّالين 157
الثامن: الحذرُ من تَطْوافِ أمِّ الأيتامِ علىٰ الجَمْعيَّاتِ الخَيْرِية 158
التاسع: الحذرُ منْ مَجالسِ اللغْو 159
العاشر: القَرَارُ في البيوتِ عِصْمَةٌ ونجاةٌ 160
الحادي عشر: الحذرُ منْ إدمانِ متابعةِ التلفازِ ومواقعِ الإنترنت 161
الحذَرُ منَ الإصرارِ علىٰ المخالفةِ 163
الفَصْلُ السَّابِعُ: التأيُّمُ فرصةٌ للعبادةِ والتَّفَرُّغِ للطاعةِ 165
المسارعةُ في استغلالِ الأَعْمارِ قَبْلَ انْخِرامِ الآجالِ 166
الغزاليُّ يضربُ الأمثالَ 167
ولابن الجَوْزِيِّ وصيةٌ 168
نماذجُ منَ الصالحاتِ المجتهداتِ في الطاعة 170
تركُ بَعْضِ الصالحاتِ الزواجَ لِتَتَفَرَّغَ لعبادةِ اللهِ 172
أبوابُ الطاعاتِ مُفَتَّحةٌ للأَيَامَىٰ 174
الأول: قراءةُ القرآنِ، وتَعَلُّمُ أَحْكَامِهِ، وتَعْلِيمُه 174
الثاني: إِدَامَةُ ذِكْرِ اللهِ -تعالىٰ- 178
الثالث: تَعَلُّمُ العِلْمَ الشَّرْعِيِّ، وتَعْلِيمُهُ 181
الرابع: الدَّعْوةُ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- 186
الخامس: الصلاةُ والقيامُ 189

السادس: الصَّدَقَةُ والإنفاقُ في وجوهِ الخير 200
السابع: صيامُ النهارِ وظَمَأُ الهواجرِ 206
الثامن: الحَجُّ والاعتمارُ 212
التاسع: القيامُ علَىٰ خِدْمةِ الوالدَيْنِ أَوْ أَحَدِهِما 215
العاشر: في تربيةِ الأبناءِ، وكفالةِ المَحْرُومينَ عِوَضٌ وغَنَاء 223
وَصِيَّةُ الأُمَّهاتِ بِأَمْوالِ الأيتامِ 226
في تربيةِ مجهولي النَّسَبِ لِمَنْ لم تَتَزَوَّجْ وللمُطَلَّقَاتِ عَظِيمُ الأَجْرِ 227
في الإرضاعِ خُرُوجٌ منْ حَرَجِ الخُلْوَةِ 228
خَاتِمَةٌ 229
وِقْفَةٌ أَخِرَةٌ 231
مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ 232